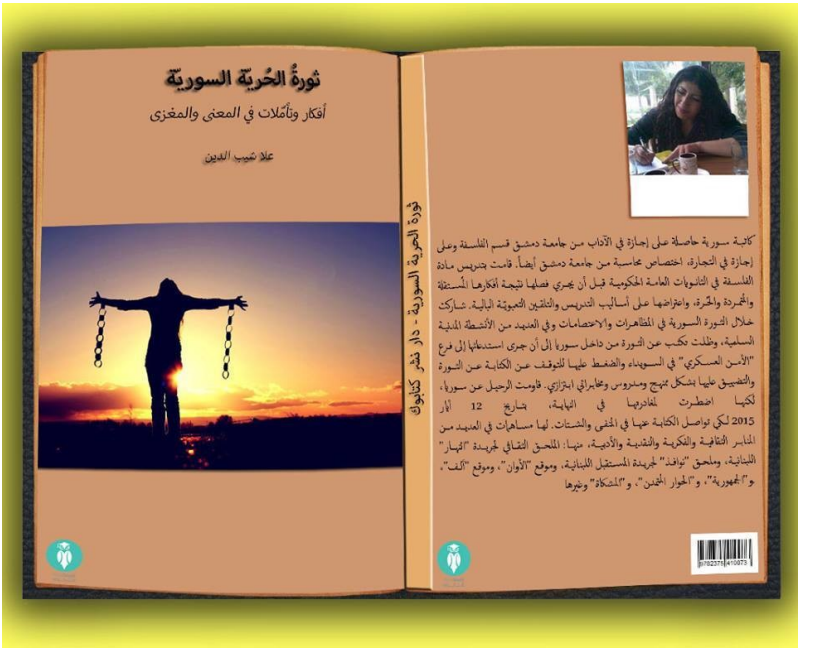

ثورةُ الحُريّة السوريّة
أفكار وتأمّلات في المعنى والمغزى
علا شيب الدين
ثورة الحرية السورية - دار نشر كتابوك
كاتبة سورية حاصلة على إجازة في الآداب من جامعة دمشق قسم الفلسفة وعلى إجازة في التجارة، اختصاص محاسبة من جامعة دمشق أيضاً. قامت بتدريس مادة الفلسفة في الثانويات العامة الحكومية قبل أن يجري فصلها نتيجة أفكارها المُستقلة والمتمردة والحرّة، واعتراضها على أساليب التدريس والتلقين التعبويّة البالية. شاركت خلال الثورة السورية في المظاهرات والاعتصامات وفي العديد من الأنشطة المدنية السلمية، وظلت تكتب عن الثورة من داخل سوريا إلى أن جرى استدعاؤها إلى فرع "الأمن العسكري" في السويداء والضغط عليها للتوقف عن الكتابة عن الثورة والتضييق عليها بشكل ممنهج ومدروس ومخابراتي ابتزازي. قاومت الرحيل عن سوريا، لكنها اضطرت لمغادرتها في النهاية، بتاريخ 12 أيار 2015 لكي تواصل الكتابة عنها في المنفى والشتات. لها مساهمات في العديد من المنابر الثقافية والفكرية والنقدية والأدبية، منها: الملحق الثقافي لجريدة "النهار" اللبنانية، وملحق "نوافذ" لجريدة المستقبل اللبنانية، وموقع "الأوان"، وموقع "ألف"، و"الجمهورية"، و"الحوار المتمدن"، و"المشكاة" وغيرها

ثورةُ الحُريّة السوريّة

أفكار وتأمّلات في المعنى والمغزى

علا شيب الدين

اسم الكتاب: ثورة الحرية السوريّة

أفكار وتأمّلات في المعنى والمغزى

اسم المؤلف: علا شيب الدين

الناشر: دار كتابوك للنشر الإلكترونيّ - فرنسا

www.keta-book.com

تصميم الغلاف: ديالا مسعود

تاريخ الإصدار: 03/12/2015

الرقم الدوليّ للكتاب: 978-2-37541-007-3

جميع حقوق النشر والطبع محفوظة لدار كتابوك للنشر الإلكترونيّ ولا يُسمح بنشر هذا الكتاب أو أجزاء منه أو تخزينه أو تداوله الإلكترونيّ دون إذن خطيّ من دار نشر كتابوك كما هو منصوص عليه في عقد التأليف.

فهرس

إهداء **6**
مقدمة **7**

■ **المبحث الأول: في ثورة اللغة** 16

ولغة الثورة
الشعب يريد إسقاط النظام 17
مفهوم الشارع 26
مفهوم الانشقاق 32
مفهوم الجامع 36
"الجـــامع الثـــائر" من منظـــور 39

سيكولوجي
"الجامع الثائر" من منظور مفاهيمي 41
اللغة بين نظام جائر وشعب ثائر 43
عن إخمـاد النـار بالنـار وزلزلـة الأبـد 43

بالأبد
اللغة الثائرة والتعرية 52
الحرب واللغة 57
لوثة لغوية 58
الدال إذ ينصـهر في مدلوله 63
1- ملح على جرح 63
2- لقمة مغمَّسة بالدم 64
3- "ما حدا بموت من الجوع؟!" 65
4- تقبيل البوط العسكريّ 67
■ **المبحث الثـاني: في علاقـة الثـورة** **71**

السورية ببعض الثيمات
الثورة والعبودية 72
الثورة والحرية 78
الثورة والجسد 84

الثورة والعجرفة 91
الثورة والوطنية 101
وطنية أطفال الحرية 106
التمثّل الأسطوري للوطنية 109
التمثّل الحميمي للوطنية 113
الثورة والقيمة الجمالية 115
الثورة والسيادة 121
"إنمـا جئتُ لأدمـرَ أعمـالَ الأنـثى!" 127

كليمان السكندري
الاغتصاب بوصفه اضطهاداً للتعيُّن 130
الثورة والنزوح 136
في عالم الممكن 137
الثورة والتطرف الديني 142
■ **المبحث الثـالث:إضـاءة نقديَّة على** **152**

بعض المسائل الجَدَليّة والسـجالية في

الثورة السوريّة
الرأي والرأي الآخر 153
في التفاؤل والتشاؤم 161
التفاؤل كضرورة ثورية 172
الأنوثة والذكورة 174
"الثورة أنثى"! 174
الحرب والأنوثة 181
حيوية الثائر وصنميّة المثالي 190
التمثيل والتنجيم 197
المجتمع الأهلي والمجتمع المدني 205
صمتان قاتلان ونخبوية متهافتة 213
15 آذار/18 آذار 222
■ **المبحث الرابع: في بعض مـا تجلّى** **232**

عن الثورة السورية
قتل الأب السوري 233
تفتُّح الفردية 235
عَوْد إلى الملموس 236
إضاءة المهمَّش 237

قهر الموت التنسيبي والانبعاث البعثي 239
إسقاط "سورية الأسد" وتحطيم صنم 243

الدولة المتعالية
الحرق، الفضح، والإنارة. 246
إنعاش روح الوجود الأصيل 253

الإهداء:

إلى كل مَن اختار المخاطَرة، متجاوِزاً خطر الالتفات إلى الوراء، أو البقاء في الوسط، قاصداً العبور إلى الحرية توقاً وشوقاً...

إلى شعب يريد... ويدرك أن الاستبداد خطر، وأنّ الديموقراطية جهة مقابِلة، تستحقّ المخاطَرة دونما وَجَل ولا حَذَر...

والسلام على أرواح أُزهِقت وهي تحاول العبور...

مقدمة

1

قد لا نجانب الصَّواب، إذ نتفكّر في "الرّبيع العربيّ". في ما هو ثورات "ولادة الإنسان"، في منطقة من العالم شهدت موتاً حقيقيّاً للإنسان واقعاً ومفهوماً، إذ أُلقي به خارج التاريخ، أو إلى هامشه، على مرّ عقود طويلة استفحل فيها نزوع غريزيّ إلى السيطرة، مارسته أنظمة قائمة على قهر الإنسان واستعباده، فما الاستبداد سوى شكل مرير وبشع من أشكال الاستعباد فكراً ونهجاً وممارسة.

إنَّ الكلام عن ولادة جديدة للإنسان قد يرتبط بسؤال كالآتي: مذ إضرام التونسيّ (محمد البوعزيزي[1]، النّار في جسده احتجاجاً على واقع ظالم، واندلاع الثورات بعد تلك الواقعة واحدة تلو الأخرى، من بلد عربيّ إلى آخر؛ هل نحن أمام منعطف جديد في تاريخ المنطقة قد يفرز أنماطاً جديدة من المجتمعات، عبر تغيّر جوهر هذه المجتمعات، أي الإنسان؟. ربما تبدو الإجابة عن السؤال هذا أكثر حيويّة إذا ما

---

1 **محمد البوعزيزي (1984 -- 2011): شاب تونسي. أضرم بتاريخ 17 كانون الأول (ديسمبر) لعام 2010، النار في جسده أمام مقر ولاية سيدي بوزيد احتجاجاً على مصادرة السلطات البلدية في مدينة سيدي بو زيد لعَرَبة خضر وفاكهة كان يكسب رزقه من بيعها، وللتنديد برفض سلطات المحافظة قبول شكوى أراد تقديمها في حق الشرطية فادية حمدي التي صفعته أمام الملأ وقالت له بالفرنسية(Dégage) :) أي (ارحل)، فأصبحت هذه الكلمة شعار الثورة للإطاحة بالرئيس، وكذلك شعار الثورات التي اندلعت في بلدان عربية أخرى. كان ذلك الحدث شرارة، أدّت لثورة أطاحت، بعد قرابة شهر، بالرئيس زين العابدين بن علي. أما البوعزيزي فقد توفي بعد 18 يوماً متأثراً بحروقه.**

قرأنا ثورات "الرّبيع العربيّ"، قراءة علميّة تستند إلى قوانين اجتماعية تشكّل نظاماً عاماً تسير وفقه حركة المجتمعات في تغيّرها وتطوّرها. فعلى الرّغم من تميّز الثورات الاجتماعية/الشعبية تلك، بعفويّة يصعب معها الحديث عن "قوانين"، فقد يحقّ لنا التفكّر فيها، انطلاقاً من قوانين اجتماعيّة ربما تقترب من قوانين الطبيعة وتحاكيها، على اعتبار أن ثمّة حياة اجتماعيّة وحياة طبيعيّة، وطبيعة بشريّة وطبيعة طبيعيّة؛ وكما تعمّد الحياة الطبيعيّة الزَّلازل والبراكين والعواصف والرّعود والكسوف والخسوف والمدّ والجزر.. إلخ، ضمن نظام كونيّ دقيق كآلة رياضيّة ميكانيكيّة بحسب التّعبير الديكارتيّ؛ كذلك، تمهر الحياة الاجتماعيّة الثورات والتمرّدات بخاتم الصيرورة وجدل العدم والوجود.. إلخ، مادام فحوى الحياة الاجتماعيّة هم البشر، بصفتهم جزءاً من الطبيعة تنطبق عليهم نواميسها مثلما تنطبق على بقيّة الموجودات؛ ولمّا كان الضَّغط يولّد الانفجار فيزيائيّاً، فإنّ الذّات الإنسانيّة المقموعة تحت ركام من القهر، سوف تحين اللحظة التي تنبثق فيها الذّات تلك، مدوّية معلنة عن سخط إيجابيّ فعّال، رادَّة إلى نفسها الاعتبار والوجود. هكذا، يصبح في إمكان العقل ربما فهم شيء عن غضب شعوب المنطقة العربية العارِم الذي اجتاحها على هيئة ثورات.

أن يكون الإنسان جزءاً من الطبيعة تنطبق عليه نواميسها انطباقها على الكائنات الأخرى؛ معناه أن ثمّة ما يدفع المرء ربما إلى

تأمّل الحياة الاجتماعيّة بالآليّات نفسها التي يفكّر من خلالها في الحياة الطبيعيّة، كون ما يشكّل الحياة الاجتماعيّة هو اجتماع إنسان بإنسان، فالإنسان كائن حيويّ يشترك مع الكائنات الأخرى في الكثير من السِّمات الوجوديّة. هذا من جهة. لكنَّ ميزة وجود الإنسان - من جهة أخرى- تكمن في كونه وجوداً معنويَّاً وحرّاً مختاراً في هذا العالم، وفي كونه ظاهرة ثقافية، لغويَّة، منعتقة من الطّبيعة المحضة. هو كائن يتأثَّر بالطبيعة ويؤثِّر فيها. تكيّفه معها لا يشبه في حال من الأحوال ذاك التكيّف الذي تخضع له بقيّة الكائنات خضوعاً غرائزياً، فتكيّفه نابع من صميم العقل، حتى أنّ الإرادة الإنسانيّة تجعل من الإنسان بفضل العقل كائناً متكيّفاً مع البيئات كافة، بشكل يختلف عن بقيّة الكائنات التي لا يمكنها التكيّف سوى مع بيئة واحدة، بيئتها.

الإنسان بعقله، تكيّف مع البحر والفضاء والغابة والصحراء، ومع القطب المتجمِّد من الأرض....إلخ، وحسبنا أن نعود إلى أقدم الحضارات البشريّة لكي نتحقَّق من أن الإنسان قد سعى منذ القِدَم لكي يتكيّف مع الطبيعة عبر شعوره بأنها "شيفرة" تستدعي فكّ رموزها، وأن نفسه "أحجية" تتطلّب الشَّرح والتَّفسير، هكذا كان الذكاء الإنساني يتكيّفَ مع الطبيعة لكي يتجاوزها، فهو لم يسايرها قط؛ لأن تكيّف الإنسان، ككائن عاقل، ينطوي على رفض الواقعة المحضة، ونبذ التّصديق السّاذج. وعليه، تساعدنا خاصيّة الإنسان في رفض الواقعة المحضة، في محاولة تفسير "الربيع العربي" من خلالها.

نقـول محاوَلــة للتّفسـير ليس إلا، نظـراً إلى صـعوبة التّفسـير المنطقيّ مع ثورات عفويَّة لم تنطلق من مقدِّمات معيّنة لنصـل عبرهـا إلى نتائج مساوقة لها، منسجمة وإيّاها. فهي باختصار، ثورات شـعبيّة طَـرحت فيهـا الشـعوب في الشـارع، الحريـة كفعـل. لعـل أهميـة هـذه الثـورات، تـأتي ممـا أضـافته إلى مفهـوم الثـورة من ارتبـاط الحريـة والعدالة والكرامة والديموقراطية بـ(السِّلميَّة)، التي هي السِّمَة الرئيسة لهـا، ولم يكن حمـل السـلاح في بعضـها، كمـا في الثـورتين الليبيـة والسورية، خياراً. بل اضطرار دخيل عليها، لا داخل فيها، ولا مكوِّن لها، إذ ماهيَّتها سلمية مدنية شعبية، أساسها الأطفال والنساء والشـباب والمسنّين. إنه اضطرار- أجـبرَ بعض النـاس عنـوةً على حمـل السـلاح لغرض حماية أنفسهم أولاً من بطش أنظمة انفلتَ من كل عقال.

إنَّ رفض الواقعة المحضـة، يعـني رفض الإنسـان التكيّـف مـع واقع لا يحقّق فيه إنسانيّته؛ هكذا، تمرّدت شعوب المنطقـة العربيـة في ربيعها وثارت على واقع سياسيّ، اقتصاديّ، واجتماعي مُزرٍ ومُهين. الواقع الذي طالما فُرِض عليها، كأنه واقع محض و"أبديّ"، ومـا عـاد تكيّفها مع ذلـك الواقـع، إلا ضـرباً من المسـتحيل، تـؤطّره الرغبـة في اقتلاع الاسـتبداد من جـذوره، توقـاً إلى الديموقراطيـة حُكمـاً وثقافـة. الديموقراطيــة الــتي تعيــد، من خلال تعــدّديّتها، الكرامــة الإنســانية المهدورة في عالم الاستبداد المظلِم والظّالم.

إنّ "ثقافة" الاستبداد لا تنطفئ كليّاً ودفعة واحدة؛ وفي المقابل، الديموقراطية المأمولة ليست مسألة ناجزة، بل هي تجربة حيّة، طريق ومسار. في معنى آخر، هي ثقافة تُبنى على مرّ الزمن من خلال التربية أولاً، والجهد الحثيث؛ لذا يخطئ من يظن أنّ الديموقراطية قابلة للتحقق بين ليلة وضحاها. وعليه، يمكن المرء أن يتفهّم أن تظلّ رواسب الاستبداد موجودة، بعد سقوط الديكتاتور ونظامه حتى، وأن تظلّ الدول التي حصلت فيها ثورات شعبية من أجل الديموقراطية، تشهد ما هو منافٍ للديموقراطية، ومناقِض لمفهومها، أو مفاهيمها الأخلاقيّة والسياسيّة.

في العودة إلى السؤال المطروح آنفاً، حول إمكان إنتاج ثورات "الرّبيع العربيّ"، أنماطاً جديدة من المجتمعات، يمكن القول: إن التحوّل في المجتمعات قد يكون بطيئاً، تدرّجيّاً، وقد يكون فجائيّاً، "حدَثاً" تاريخيّاً، كحَدَث "الرّبيع العربيّ" الذي يشي بإنتاج أنماط جديدة من المجتمعات، مادام مَن يشكّلها، أي الإنسان باجتماعه مع الإنسان، قد تغيَّر من خلال ثورة، هي ليست على واقع موضوعيّ فحسب، بل أيضاً على الذّات. إنها الذّات التوّاقة إلى الانعتاق من الأصنام (السلطات). لعلّ أشدّ الأصنام مأساويَّة، ورغبة في التحرّر منها هو صنم "الخوف"، لذا قد يبدو التقهقر، أي العودة إلى زمن ما قبل اندلاع الثورات، عودة تناقِض قوانين الحياة الاجتماعيّة والطبيعيّة التي حاولنا الخوض فيها في ما سبق من هذه السطور.

القوانين التي تحكم المجتمعات البشريّة ربما تقتضي - مثل قوانين الطبيّعة- التطوّر والارتقاء الدّائم، بحيث يكون البقاء للأصلح في المعنى الدّاروينيّ للعبارة، ومما دلّل عليه الواقع ولا يزال، أن الأصلح في الصِّراع بين الشعوب العربية وديكتاتورياتها، هو الشعوب الطَّامحة للارتقاء في إنسانيّتها من خلال ولوج عصر جديد، هو عصر الدّيموقراطيّة واحترام حقوق الإنسان. هذا المفتوح على ارتقاء لا متناهٍ، إذ كل نهاية مرحلة، تبدو كأنها مستعدّة لتكون بداية لأخرى. يبدو الكلام الأخير هذا أقرب ما يكون إلى المؤرِّخ وعالم الاجتماع ابن خلدون (1332-- 1406م) في قوله: "واتَّسعَ عالم الحيوان وتعدَّدت أنواعه وانتهى في تدريج التَّكوين إلى الإنسان".

نزوع الشعوب الثائرة إلى الارتقاء في إنسانيّتها، قابله نكوص لدى أنظمة الحكم في اتجاه بدائيّة حيوانيّة غرائزية بحتة. تجلّى النكوص في الممارسات الوحشيّة التي مارستها الأنظمة ضدّ شعوبها. لا نبالغ إذاً، حين نقول: إنَّ ثورات "الرّبيع العربيّ" التي مثّل فيها شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" محوراً، وقاسماً مشتركاً بين الشعوب الثائرة، يؤسِّس لأوّل أفق إنسان جديد في هذه المنطقة من العالم، ومجتمع جديد، وعصر جديد متّصل بآخر أفق إنسان قديم، ومجتمع قديم، وعصر قديم، كان يحمل بين تضاعيفه، بذور تحوِّله.

2

تجدر الإشارة، في المقدمة هذه، إلى أن أصل هذا الكتاب، مقالات منشورة خلال الأعوام 2011-2012-2013-2014. جُمِعَت وأُعيدَت صياغة بعضها، وعُدِّلَ بعضها الآخر، وأُضيف إليه ما قد يُغنِي ويُثري، ليكون هدية رمزيَّة لثائري وثائرات الحرية، وإسهاماً نظريّاً في الثورة. هذا الكتاب، ربما يشبه الثورة، في عفويتها، وفي كونها مسار...، إذ فحواه أفكار، مستقاة، في أغلبها، من واقع حيّ ومعيش، وجدت نفسها في كتاب، من دون تخطيط قَبْليّ. ليس من شأن أفكار الكتاب، قطع الطريق أمام أي فكرة جديدة قد تثري ما هو مطروح وتضيف إليه، وفي هذا، ربما يكون قد قارب الثورة أيضاً. ثمة، في امتداد الكتاب، مساحة، بل مساحات، من شأنها "التحريض" على قراءات ربما تعيد كتابة المكتوب، وتساهم في إعادة إنتاج النص الناقص دوماً، والمفتوح على ارتقاء لا متناهٍ.

****

تجدر الإشارة أيضاً، إلى أننا آثرنا استعمال اصطلاح "الربيع العربي"، باعتباره بات معروفاً ومتداوَلاً كـ"اسم عَلَم" يُطلق على ثورات الشعوب في هذه المنطقة من العالم منذ اندلاعها واحدة في إثر أخرى. بيد أن ذلك لا يعني التَّسليم بالاصطلاح كما هو من دون مراجعته مراجعة نقديّة، إذ لدينا بعض التحفّظ عليه، كونه يُغفِل

قوميَّات أخرى، ثارت ضد أنظمة الحكم العربية المستبدَّة، من مثل القومية الكرديّة في سوريا.

****

حاولنا التفكير في "الربيع العربي"، باعتباره ثورات، لا انتفاضات. إذ تبدو الانتفاضة كأنها مختصّة بالسطح، بينما تذهب الثورة عميقاً صوب الجذر، وما قد يُفهم من الانتفاضة على أنه مرحلة، أو تحديد عصيّ على الاتساع، يبدِّده ما قد يُفَهم من الثورة، انطلاقاً من رؤيا متفائلة معقولة لا يشوِّشها الراهن، وتثق بقدرة، أو قدرات الشعوب على إحداث تغييرات جذرية، تستشرف مستقبلاً مضيئاً. إذ الثورة نار شاملة، ونخطئ إن اعتقدنا أنها مجرَّد مرحلة، فهي تتَّسع لكل شيء، وتطال كل شيء، وهي مصير فردي واجتماعي، وإنساني.

****

لا نتحدث في هذه المقدمة عن ثورات "الربيع العربي" عموماً، ولا نتناول في الموضوعين الأولين من المبحث الأول من الكتاب، ثورات "الربيع العربي" بشيء من العمومية أيضاً، وهو المبحث الذي نحاول فيه مقاربة الثورات نفسها، مقاربة لغوية من خلال محاولة تفكيك لغة الثورة، كشعار "الشعب يريد إسقاط النظام" الذي رفعته الشعوب الثائرة كافة، أو التأمل في مفهومٍ جديد لـ"الشارع"؛

إلا لكي ندخل من خلال العمومية تلك إلى الثورة السورية على سبيل التحديد، نحاول التعمّق فيها، ونقارب بعضاً من حيثياتها من وجهة نظر فكرية فلسفية أحياناً، وسيكولوجية أحياناً أخرى، وتأملية...؛ انطلاقاً من كوننا من أبناء سوريا، وكنّا من المنخرطين في الثورة، في معنى ما. الاعتصام والتظاهر السِّلميّ في الشارع مثالان على هذا الانخراط، فقد عشنا إلى حد ما، تجربة حيّة أنتجت بعض ما نطرحه هنا من أفكار وتأملات.

****

نودّ أخيراً، تقديم اعتذارنا سلفاً من القارئة والقارىء، في شأن عدم التفصيل في وقائع مذكورة في الكتاب، والاكتفاء بالإشارة إليها كأمثلة. لكن نظن في الآن عينه، أنها وقائع معروفة ربما، إلى درجة أنه في إمكان أي مهتم الرجوع إليها والبحث عن تفاصيلها، خصوصاً أن المعلومات عنها متاحة، فهذا الكتاب ليس توثيقاً، ولا وصفاً، ولا تأريخاً في المعنى الدقيق للمفردة، بل هو في المقام الأول، ربما يكون بمثابة تأمّل في المعنى وتفكّر فيه، ومحاولة لإدراك المغزى.

علا شيب الدين

المبحث الأول

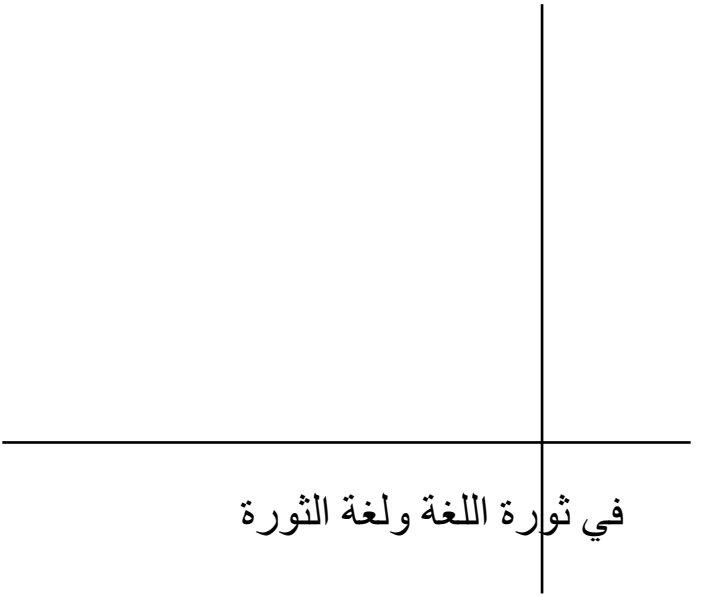

في ثورة اللغة ولغة الثورة

الشعب يريد إسقاط النظام

يشبِّه غوستاف لوبون، الجمهور النفسيّ، المحكوم بقوى اللاشعور الطّاغية، بالإنسان المنوَّم مغناطيسيّاً. فبما أن "حياة الدماغ تصبح مشلولة لدى الإنسان المنوَّم، فإنه يصبح عبداً لكل فعالياته اللاواعية، ويصبح منوِّمه قادراً على توجيهه الوجهة التي يشاء بعد أن غدت الشخصية الواعية مغمىً عليها، وأصبحت إرادة الفهم والتمييز ملغاة"[2]. يبدو كلام لوبون كأنه تأمّل لما قبل يقظة جمهور، فمع ثورات الشعوب في العالم العربي على لاشعورها، لم تعد الشعوب مُنوَّمة، و"القائد أو الزّعيم المنوِّم لم يعد خارقاً العادة ولا مرفوعاً إلى درجة العبادة"، مادام "الجمهور" قد دخل تجربة الوعي، وأدرك أنه شعب يريد، وما عبارة "الشعب يريد.." سوى ضمير "الأنا" تصريحاً وتلميحاً.

إن إضاءة اللاشعور، حيث العتمة والمكبوت، عبر الإرادة الشعبيّة، بيّنت أن "الحياة الواعية للنفس البشريّة لا تشكّل إلا جزءاً ضئيلاً جداً بالقياس إلى حياتها اللاواعية"[3]، وعلى صعيد الحياة الواعية، فإن "عالِم الرياضيات يتفوّق ذكاء بما لا يُقاس على

2 سيغموند فرويد، علم نفس الجماهير وتحليل الأنا، ترجمة وتقديم جورج طرابيشي، رابطة العقلانيين العرب، دارالطليعة، بيروت، التقديم ص13.
3 الكلام لغوستاف لوبون، سيكيولوجية الجماهير، التقديم ص11-12.

الإسكافيّ صانع الأحذية، ولكن على صعيد الحياة اللاواعية، ولا سيّما ما يتعلّق منها بالعاطفة والوجدان والغرائز والعقائد الإيمانيّة الموروثة، فإن "البشر الأكثر عظَمة وتفوّقاً لا يتجاوزون إلا نادراً مستوى الناس العاديين"[4]. من هنا ربما تتأتّى أهمية ثورات الشعوب في العالم العربي، التي يبدو اندلاعها كان مستحيلاً لو لم ينفتح باب اللاشعور على مصراعيه، خصوصاً أن الفرد في الجَمْع يجد نفسه في شروط تتيح له أن يفكّ أسْر ميوله اللاشعوريّة المقموعة، فأن تتّجه الإرادة الشعبيّة في اتجاه إسقاط النظام؛ معناه مغادرة اللاشعور العتمة، عبر اجتماع إرادات عزمت على أن تكون حرّة وانتهى الأمر.

****

تجلّت المفارَقة من خلال تبديد العتمة تلك بـ"الكلمة" (اللّوغوس)، فإن كنّا لا نشكّ في أهمية ما حدث على أرض الواقع، واقع العالم العربي، فإننا لا نشكّ في أن ما حدث على أرض العقل - إن جاز التعبير - أهم. وبما أن الكلمة كانت في البدء، (في البدء كان الكلمة)، إذ بالكلام يصير الإنسان إنساناً في معنى ما، فالكلمة كائنة في الوسط أيضاً، وربما ستكون في النهاية. الكلمة من حيث هي عزيمة خلق وإبداع. فهي إذ تفصح عن إرادة شعبيّة، كمجموعة إرادات كانت مكبَّلة وحرَّرت نفسها بنفسها، تنتقل بالشعب، من حيث هو شِعَاب، أو

4 الكلام لغوستاف لوبون، المرجع السابق نفسه، التقديم ص11-12.

"فروع"، إلى مركز ضدّ مركز، وبنية ضدّ بنية. إنه مركز يبدّد المركز وبنية تخلخل البنية من الداخل عبر إرادة الإسقاط، أي إسقاط النظام. فالبناء الذي كان شاهقاً، صار أدنى، والعلوّ المركّب الصّلب المتكتّل، صار ذائباً سائلاً، والسّرّ الذي طالما انطوى عليه البناء زمناً طويلاً، صار علناً. ربما يكون ذلك لحظة أولى في زمن تنوير عربي جديد مُقبِل.

****

تحت الهدم الذي انتهجته الإرادة الشعبيّة، بنية، أو يمكن القول (بنية هَدْمٍ مخفيّة)، تؤسّس لهَدْمٍ يُسقِط (بينة خارجيّة قديمة)، فيعود الهَدْمُ إلى تحته، محاولاً إبراز بنية جديدة عبر تقويض البنية الخارجيّة القديمة. في معنى آخر، عبر تقويض نظام معرفيّ متأصِّل، فما يعدّه الناس خطأ وما يعدّونه صواباً، ما يعدّونه حقيقة وما يعدّونه وهماً، يتغيّر كليّاً، بمثل الاعتباطيّة التي تتغيَّر فيها أنماط الخطاب والنُّظم المعرفيّة التي هي الأصل في ذلك كلّه.

هكذا؛ تبدو الشعوب العربيّة كأنها اكتشفت لغة جديدة، أو طوّرت نموذجاً لغويّاً يؤسّس لجدليّة في التفكير، عبر هدم بنية قديمة باتت الحاجة ملحّة إلى هدمها. قد يحقّ لنا وصف ثورات العالم العربي بأنها ثورات لغويّة بشكل أو بآخر، بدءاً من عالم افتراضيّ محوره الكلمة، وليس انتهاء بشعار "الشعب يريد إسقاط النظام" التي

طالما زمجرت به الحناجر من قلب الشارع النابض بالحدث. أطلّت اللغة كطاقة هائلة في مدلولاتها ومحمولاتها، وفي قدرتها على خطّ أبجديّة ذهنيّة جديدة تتّسم بالتفكيكيّة، من حيث كون الذهن جزءاً من العالم، ومن حيث كون النّفس انعكاساً للعالم والإنسان.

ولئن كان "الجوهر" ميتافيزيقا وثباتاً يأبى حيويّة الأعراض وحركتها؛ سنرى أن عبارة "الشعب يريد إسقاط النظام" خالية من الجوهريّة الميتافيزيقيّة، كونها ضاجّة بالمعنى الحيّ، فهي إذ تنطلق من مفردة "الشعب" كدالّ لا ينفصل عن مَدْلولاته المفعمة بالنّبض والكثرة، تؤكّد الصّيرورة كوجود وعدم في آن واحد.

****

ثمّة لدى الذهنيّة العربية الجديدة، التي خطّت أبجديّتها الأوليّة لغة غير اعتياديّة تحتفي بالمتعدِّد والمتجدِّد والمتبدِّد أيضاً، مَيْل غير اعتيادي إلى تفتيت كتلة المفرد المتّسق. تبعاً لذلك سيغدو "المُعتَقد"، أي الرأي السائد في الأمور، عُرضة لهزّات تقوّض أركانه الرّاسخة، مفارَقة أو مغامَرة أو مخاطَرة، فاتحةً الطريق أمام كلّ تجاوز. اللّغة غير الاعتياديّة تلك، لا تطمح. فالطموح غاية، والغاية نقطة تتجمَّد عندها الحياة، بما تنطوي عليه من تجاهل لتفاصيل أخرى غير الغاية نفسها، فتشوّه معنى الحياة المديدة والعالم الفسيح، ثم إن الطموح من

حيث هـو غايــة تنــأى بنفســها عن غايــات أخــرى، عــبر التمركــز والتمحور حول الذات يقود إلى اللاتسامح.

****

حين يزمجر الشعب مُريداً إسقاط النظـام لا يفضـح الخطـأ فحسـب، بـل يـنزع عنـه سـمة "الطـبيعيّ" أيضـاً، السّـمة الـتي طالمـا بـرّرت "الأنظمة" من خلالها الخطأ الكارثيّ. يخبرنا رولان بـارت بـأنّ ثمـة "تعميـة" حاصـلة، وهي نـوع من الخـداع الـذي يمارسـه البعض في خطاباتهم السلطويّة التآمريّة كأن يُقال: "طـبيعيّ" أن تحصـل أخطـاء. الغـرض اللاأخلاقي هنـا، هـو إعطـاء الظـواهر التاريخيّـة أو الثقافيّـة مظهر الظواهر الطبيعيّة، والرّدّ الوحيد على التَّعميـة هـو فضـحها. إن كَوْن الشعب ينطلق من الإرادة المعقولة، يؤكّد إنسانيّته الحرّة المنعتقة مما هو طبيعي، غرائزي، مفروض من قوّة غير القوّة الإنسـانيّة، وإن فضح الشعب للخطأ الذي أُسبِغت عليه الطبيعيّة كتبرير من قبَل أنظمة انفصلت عن الواقع واغتربت في وهم الأبديّة، هـو وسـيلة من وسـائل التّنوير الاجتماعيّ والسياسيّ.

****

ليست اللّغة مجـرّد إشـارة إلى حـالات شـعوريّة، بـل هي أيضـاً تشكيل للعقل؛ لذا قد تبدو ثورة الشعب المتجلّية في إرادته المتّجهة إلى إسقاط النظام، ثورة لغويّة، لا تظهر اللّغة من خلالهـا وسـيلة فحسـب،

بـل هي أيضـاً عزيمـة هـدْم وخلْـق. هكـذا؛ تهـتزّ قواعـد لعبـة الـدّال والمَدْلول، فاللغة هنا تقوم بفعل "التّحرير" من القيود المفروضة، قيود الوسيلة الآليّة التي وُضِعَت فيها. إنه نوع من "الكَدْح اللّغوي" يرحل بعيداً إلى مـا وراء الحـرف فيقلّص المسـافة بين الـدّال والمَـدْلول، بين الرّمـز والمعـنى، بين الصّـوت والشـيء، وبين الـذّات والموضـوع، فتتبدّى حيويّة اللغة.

****

برزت الإرادة الشعبية قوّة لهـا قـدرة لا حـدّ لهـا على الإزاحـة، فما ضجّت به الشوارع العربية يمكن وصفه بـ"طقس لغـويّ"، مـزّق عباءة اللغة "العاديّة". إنه نثر ينثر، ليعيد ترتيب الأشياء محرِّراً إيّاهـا من كـلّ حَسْمٍ وحتميّـة. هـو طقس يبـدأ بالشـعب ولا ينتهي؛ لأن اللغـة الحيّة اللامتناهية، لغة شعوب، بينمـا لغـة الأنظمـة متناهيـة ميّتـة. لغـة الشعوب حياة مترعة بالتناقضات وبتعايش المعاني المختلفـة، مفتوحـة على احتمالات لا حصر لها، تبدِّد وهم السّكون والتّكرار.

إنّ العقل المُثقـل بنصّ سـلطويّ، وثبَ ينحتُ لغـة خارجـة على النَّص، تكسـر قيـد المنصـوص عليـه والمُبْـرَم، فينحـلّ كـلّ "خطـاب" رادمـاً الهـوّة الـتي ينشـئها التّميـيز بين الـدّال والمَـدْلول. نَحَتَ العقـل المتحـرّر للتّـو لغـة ليسـت مبنيّـة من حَرْفيّـة دينيّـة ولا سياسـيّة ولا

اجتماعيّة ولا ثقافيّة معتادة ومكرورة، بل هي لغة حرّة من كلّ جذر وقاعدة، من كلّ اتساق ونسَق.

القطع اللّغويّ مع الجذر، يعني، في معنى ما، التّمدّد والتّماهي مع السطح، عبر مغادرة الموروث والتاريخ لصالح الجغرافيا. جغرافيا تتخطّى الحدود في اتساع يرقى إلى مستوى الكونيّة.

****

قد لا تشمل الرّغبة اللّغوية في التحرّر من المنطق التقليديّ، الموروث والتاريخ فقط، فهي قد تمتد لتطال المنطق التقليديّ، في المعنى الأرسطيّ، حيث الضّرورة التي تفرض الانتقال من مقدّمات محدّدة للانتهاء إلى نتائج محدّدة، تنسجم وتلك المقدّمات وتتساوَق وإيّاها. هكذا؛ تنهض اللّغة الجديدة المتبدّية في الإرادة الشعبيّة وفي إسقاط النظام، تنهض متمرِّدة على المنطق الصّوري التقليديّ، من حيث هي لغة ترفض كلّ معرفة سابقة ومتوقَّعة في آنٍ واحد. إنها لغة وسط، والوسط هنا لا يعني حدّاً أوسط وظيفته الرّبط بين المقدّمات، ولا يَظهر في النتيجة في إطار المنطق الصوريّ التقليديّ؛ إنما هو اللّحظة الحاضرة، الواقع بحركة وحركيّة لا تنْضبان. إنه وسط لا يكترث لسبب ولا لنتيجة. هكذا؛ تتفتّح حريّة الإنسان من حيث هو كائن لا يخضع للتوقُّع، ولا يمكن حصره بسبب ونتيجة.

وبما أن الإنسان كائن لا مُتَوَقّع، فهو إذ يصنع التاريخ، يستمدّ التاريخ من صانعه، أي الإنسان، سِمَة اللامُتَوَقَّع تلك، بحيث يمكن لنا أن نتصوّر التاريخ على أنه انفصال مثلما اعتدنا على أن نتصوّره اتصالاً، فالقفز في التاريخ يبدو وارداً، وما إقدام محمد البوعزيزي على إضرام النّار في جسده إلا "طَفْرَة" لا تاريخ لها يسبقها ولا تَوَقُّع لما بعدها. وإن افترضنا جدلاً أننا نعرف أسبابها الحقيقيّة؛ فلا يمكن القول إننا من الممكن أن نتوقع نتائجها. من هنا يمكن لنا وصف اللّغة الجديدة المتجلّية في عبارة "الشعب يريد إسقاط النظام" بأنها عفويّة لامُتَوَقَّعة، فهي لا تكشف عن فضاء لم يكن في البال فحسب؛ بل هي أيضاً تحرّض على التفكير فيما ليس مَفَكَّرَاً فيه، عبر خاصيّة "الانبثاق"، وهذه لا تخضع لقواعد المنطق التقليديّ المضيء أو المُعْلَن، كونها ضوءاً غير مُكْتَشَف يقطن العتمة. إنها الإبداع وقد تجلّى، لافتاً الانتباه إلى جزء مُهمَل من الدّماغ، هو النّصف الأيمن الذي طالما هُمِّش دوماً لصالح النصف الأيسر، نصف المنطق المُعتاد والمألوف.

****

يا ترى ما الذي يمنع من إطلاق رمز كرسي (ك ر س ي)، مثلاً، على سطح بأربع أرجل قد نأكل عليه أو نكتب، اعتدنا أن نرمز إليه بطاولة (ط ا و ل ة)؟. ما الذي يمنع من نصبِ الفاعل في اللغة العربية ورفع المفعول به؟. من قال إن قدَر المفعول بهم ألا يُرفَعوا؟!.

لماذا لا يتمرّد الساكن فيتحرّك حين يُفرض عليه ألا يتحرّك؟!. ولماذا لا نمنح ما لا محلّ له من الإعراب إعراباً؟!. تلك تساؤلات قد تنبِّهنا إلى عبثيَّة اللغة ربما، أو إلى إمكان التلاعب فيها، وقد تنبِّهنا إلى أن الخطأ المعرفيّ، ناجم عن القسْر اللّغوي الذي يكمن في إلصاق رمز معيّن بشيء معيَّن، مع إغلاق الطريق أمام أيّ محاولة للخروج على هذا القسر. لذا فإن من شأن عبارة كـ"الشعب يريد إسقاط النظام" أن تدفع باللّغة إلى تجاوز اللّغة ذاتها، عبر نزع سمة "الاعتياد" عنها، فالولادة النّاجمة عن التّفكيك الحاصل من عبارة من شأنها إسقاط ما هو مبنيّ، منبثقة من الداخل، داخل البنية نفسها، فيكون الخارج من الداخل، والتّقويض يكون من الأدنى إلى الأعلى، وتنطلق الأنا المتمرِّدة من حجر الأساس.

ربما لم يعد الإنسان في العالم العربي مع عبارة "الشعب يريد.."، كائناً مُثقفاً، مبنيّاً كما بنته الثقافة السّلطويّة، وكما يروق لهذه الثقافة أن تبنيه، فعبارة "الشعب يريد.." إذ تُقرَن بـ"إسقاط النظام"، تفتّت الثقافة كبناء، وتعلن عبوديّة الإنسان المُثقَّف (المَبْني)، المفعول به دوماً، والمُجَمَّد في صورة نمطيّة شيئيّة ساكنة، فتحرّره من هذه العبوديّة.

مفهوم الشارع

بما أن اللغة ليست مجرّد قواعد وكلمات، بل هي انعكاس للحضارة والثقافة، وللرّوح البشرية، وبما أن المفاهيم موضوعات للغة، وأدوات للفكر وتشكيل للعقل في آن واحد؛ فإن ثورات "الربيع العربي"، لم تضعضع الكثير ممّا في الواقع فحسب؛ بل خلخلت ربما بعضاً ممّا في الذهن أيضاً، وقدَّمت الدليل على وهم المفاهيم المحسومة، المطلقة، الصالحة لكلّ زمان ومكان، وسلطويتها.

قد يكون "الشارع" هو المفهوم الأهم الذي حرَّضت الثورات نفسها، العقل على ضرورة إعادة قراءته ومراجعته، في ضوئها، ما دام للمفهوم، أي مفهوم، دلالات زمانيّة ومكانيّة. فقد كشفت الثورات ما يثوي تحت ذاك المفهوم من مغالطات، إذ ارتبط مفهوم الشارع في أذهان الناس ردحاً طويلاً باللاأخلاق، إلى حدّ ما، وأُترِع بمعاني الرعاعيّة والعواميّة وازدراء الآداب العامة ومبادىء الحق والأخلاق، أو جرى تقليصه إلى مجرّد امتداد يرتاده اللصوص ومدمنو المخدرات والمتسوّلون والحثالة. لطالما كان الهاجس الأكبر للمربّين، آباء كانوا أو أمهات أو رجال دين، أساتذة أو ساسة، هو تحذير الناس، باعتبارهم "قاصرين"، من الشارع وثقافته. فما على الشخص إلا أن يخطئ أي خطأ، مهما كان في منتهى الهامشيّة

والصغر، حتى يُشتَم ويُهان ويُعتبر "ابن شارع". غير أنّ الثورات في العالم العربي، ولّدت مفهوماً جديداً للشارع المعتاد، فمن الشارع نفسه انطلقت صيحات مطالبة بأنبل القيم الإنسانية وأشدّها عمقاً، وعبره حصل الإصرار على إسقاط الشرّ الطاغي والفساد المستشري الذي طالما استفحل في البلاد العربية منذ عقود. ضجّ الشارع بالناس الثائرين على الظلم والقهر والتهميش والإقصاء، وعلى الاستبداد والديكتاتورية. إنّه الشارع في مفهومه الجديد إذاً، بوّابة التغيير والانعتاق.

****

جاء في «لسان العرب» أنّ الشَّارِع: "هو الطريقُ الأَعظم الذي يَشْرَعُ فيه الناس عامّة، وهو على هذا المعنى ذُو شَرْعٍ من الخَلْق يَشْرَعُون فيه، وكلُّ دانٍ من شيء، فهو شارِعٌ، والدارُ الشارِعةُ التي قد دنت من الطريق وقَرُبَتْ من الناس". وفي «الصِّحاح في اللغة» جاء الشَريعَةُ: "مَشْرَعَةُ الماءِ، وهو موردُ الشاربةِ". قد تخطر على بالنا، أثناء التوغل في عمق المعاني تلك، تساؤلات من قبيل: لماذا لم يعلِّمنا أهلونا ومدرّسونا، وغير هؤلاء ممن تولّوا مهمّة تربيتنا، كيف نجيد مكابدتها وترجمتها سلوكاً وممارسة، فيما أمعنوا في ترهيبنا من الشارع ومن مغبّة الخروج إليه حتى، فكيف بالانتماء؟! لماذا أصرّوا على أنّ البيت مغلق النوافذ والأبواب أفضل، وأنّ القصْر أجمل وأعظم، وأنّ تنظير المدرسة أهم من تجربة الشارع؟! لماذا والشارع

بكلّ ذلك الصّخب المهم، جرى تشويهه ونسف كل ما ينتمي إليه؟!.
كان الشارع دوماً، بالنسبة إلى السلطة، هو الـ"خارج" في المعنى الذميم للكلمة، مقارَنة بـ "الداخل" (البيت)، ما أدى إلى ضمور فكرة الفضاء العام، كون الشارع مظهر من مظاهر الفضاء العام كالساحة والحديقة العامة، والدولة. هكذا استحوذت السلطة على الفضاء العام واحتكرته، من خلال ذمّه بطريقة تُبعد الناس عنه وتقصيهم. انطلاقاً من الدلالات اللغوية المعجميَّة نفسها، يمكن القول: إن ثقافة السلطة قد طمَرَت المعاني الأصليَّة للشارع، كالشروع أو البدء أو المباشَرة والمبادَرة، والشريعة أو القانون والنظام والتشريع. لقد طمرت السلطة المعاني تلك، لكي تتمكَّن من قتل الروح الفردي المبادِر، الطامح، العازِم والتوَّاق، وكسر إرادة من شأنها الخروج على نَصِّها، أي نَص السلطة، وعلى موقفها من كل شيء، وبالتالي التبعيَّة التامة لها. ولكي تتمكَّن كذلك من إشاعة الالتباس والغموض والكذب الملازِم لـ أو اللازم عن التواري، والاختباء والاختفاء في "الداخل" (البيت)، عبر تهميش وذم "الخارج" (الشارع)، باعتباره وضوحاً وانكشافاً وجلاء.

حقاً إنّ الشارع قد ينطوي على ما ليس بمحمود، شأنه في ذلك شأن كلّ الأمكنة في كل الأزمنة. لكن الثورات كشفت عن جانب آخر له، كان غائباً عفواً أو مغيَّباً، قصدلً وقسراً. استعرت الثورات لتعيد الاعتبار إلى شارع مهمَل منذ زمن بعيد، معلنة بدقة لماذا كانت السلطة، بأشكالها ومتاهاتها ودهاليزها كافة، لا تريد للشارع أن يحتلّ

مكانة جيّدة في عقول من تربّيهم. لقد أدركنا، مع ثورات الشعوب في العالم العربي، لماذا كان الشارع يُقلِق الحكّام أكثر ما يُقلِق، ويرتعد أولئك خوفاً من أي صوت يتسلَّل منه. كان الشارع يرعبهم على الرغم من صمته المطبق، وكان خطراً أعظم يمسّ وجودهم "المقدَّس الأبدي". عرفنا ذلك كله، وما قد نعرفه لاحقاً قد يكون أخطر.

****

ما عاد الشارع شارعاً. ما عادت المعاني الملصقة به هي ذاتها. لقد فُهم الآن، أي في زمن "الربيع العربي"، كواقع، أو كحدث اقترن بقيم الحق والخير والجمال والعدل والحرية. إنّه الشارع الذي منه تفتّحت ورود شباب ثائر على الظلم والتعسّف واستباحة الكرامة الإنسانية. الشارع "الآن" هو منبع حرية وانعتاق، شارع أحرار لا حثالة. صار له الكلمة الفصل في تغيير مسار التاريخ، وصار من شيم المرء الشريف الشجاع الانتماء إليه. انقلبت الأمور رأساً على عقب، ولم يعد قول: "ابن شارع" شتيمة، إلا في ذهن السلطة، كل سلطة، مثل أنظمة الحكم العربية التي طالما اعتبرت الهاتفين للحرية من الشارع "حثالة، جراثيم، جرذاناً، مندسِّين، مخرِّبين، متآمرين، خونة، عصابات مسلّحة، متمرّدين، تكفيريين، "قاعديين"، شُذّاذ آفاق وإرهابيين".

****

اللافت للانتباه هو ذلك، الشعور بالرَّهبة أو بالقصور- والتقصير أمام الشارع. شعورٌ دفع ببعض القوى السياسية التقليديّة المعارِضة، سواء كانت شخصيات مستقلّة أم أحزاباً، إلى "الانضمام"، في معنى ما، إلى الشارع المنتفِض الذي استحال معارَضة جديدة مختلفة، وبارعة في فاعليتها نظرياً وعملياً، وكذا الأمر بالنسبة إلى المثقف الحر. تفوَّق الشارع على المكتب مثلاً، فمَن يدافع عن الحرية عبر بحث أو مقال أو عبر مقابلة إعلاميّة، عقابه أقل وطأة ربما من عقاب ذاك الذي يهتف للحرية من قلب شارع، أدنى ما يُقال فيه إنه معمَّد بالرصاص الحيّ. حتى أنّ ثمة حذراً شديداً صار من الواجب أن يطغى على لغة من يريد الانضمام إلى الشارع أو إعلان تأييده، إذ ينبغي أن تكون لغة تكرِّس فكرة اللّحاق بالشارع، لا ادّعاء تمثيله أو الوصاية عليه. مردّ ذلك، على الأغلب، إلى القدرات العظيمة التي أبداها الشارع في التغيير، وإلى التضحيات النبيلة الشجاعة، والثمن الباهظ الذي قدّمه الثائرون من قلب الشارع، فكل ثائر إما صار شهيداً أو معتقلاً أو مفقوداً، وإما مشروعاً لذلك كله، في كل مرَّة يخرج فيها إلى الشارع متظاهراً ثائراً، خصوصاً في سوريا. أليس الشارع الثائر هو مَن أسقط الطغاة واحداً تلو الآخر؟! أليس الشارع نفسه مَن دفع طاغية تونس زين العابدين بن علي إلى الهروب، ووضع طاغية مصر محمد حسني مبارك في قفص الاتهام ممدّداً على سرير، بعد خلعهِ، وهو نفسه من دارت حرب طاحنة امتدت شهوراً بينه وبين

طاغيتـه معمـر القـذافي، إلى أن لقي الأخـير مصـرعه، وهـو من قـاد طاغيته علي عبد الله صالح إلى حد الاحتراق، ثم خلعـه وإرغامـه على مغـادرة السـلطة؟! وهـو مـا قـد يحـدَّد مصـير حكّـام آخـرين في هـذه المنطقة؟

صـار للشـارع كلمتـه وصـوته ومفهومـه، مـا عـادت حقـوق الإنسان وقيم الحداثة والتنوير والديموقراطيـة تطـلّ من أبـراج عاجيّـة هنا وهناك، لأنّ الوعي بات يدرك أنّ هذه هي مسار تـاريخي يصـنعه كلّ فرد يمضي فيه، وأنّها فعل شاق وإصرار على السَّير قـدُماً، مهمـا كـانت الطريـق موحِشـة وعـرة. فالديموقراطيـة طريـق، تجربـة حيـة ومكابدة، تدريب للذات وتهذيب لها.

مفهوم الانشقاق

في موازاة القراءة السياسية لفعل الانشقاق، أي القراءة الآنيّة التي تأخذ في الاعتبار الغاية من الانشقاق أو نوايا المنشق وأسباب انشقاقه ودوافعه ومراميه ونتائجه؛ يبدو أن في الإمكان التأمّل في "الانشقاق" كمفهوم. يبدو أيضاً، أن في الإمكان الانتباه إلى أن تعبير" انشقاق" الذي من شأنه الانعتاق من النظام أو الانسلاخ عنه، فردياً أكان أم جماعياً أم شعبياً(ثورة)، أكثر انسجاماً ربما، مع ثورات "الربيع العربي"، من تعبير "انفصال" الذي قد يبدو إيقاعه، في المستوى اللغوي، أقلّ حدّة، على الرغم من أن كلتا الكلمتين تفيدان المعنى ذاته سياسياً. فوقْع كلمة انشقاق على الأذن المستمعة، ثم على الذهن، ربما يثير حماسة خاصة، ودافعاً إلى انفلاق حقيقيّ قد يكون ثاوياً مثلاً، تحت قافٍ تتوسط الكلمة وقاف تُنهيها، أو خلف سخطٍ ونزَق تشير الكلمة إليهما في مبناها، ومعناها الذي طالما تُرجم على الأرض.

يبدو الانشقاق في سوريا، على سبيل التخصيص، كأنه تحوُّلٌ بطيء صائر وصاعد، نما في الذهنيّة السورية مذ بدأ مُلك الأسد الأب وحكمه الديكتاتوري، الاستبدادي، العسكري، الأمني، إلى أن "شقَّ" طريقه بوضوح وجلاء في الثورة على الأسد الابن ونظامه التي

اندلعت في العام 2011. يصبح الانشقاق هنا، بمثابة نضوج، وثمرة معرفة حقيقية، ومعاينة يومية شاقة لنظام أُريدَ الانشقاق منه وعنه. عبر فعل الانشقاق نفسه، تحرّكَ تاريخ السوريين الثائرين، كأنه أعلن بداية أو نهضة، وغدت المعرفة بالذات أكثر وضوحاً وحكمة وصدقاً.

من شأن الاستبداد الذي طالما ساد وتجذَّر، صبِّ التنوع والحيوية والخصوبة والكثرة والتعدد في قالب واحد، وتجفيف هذه كلها حتى تغدو في نهاية المطاف (كتلة) صلبة عصيّة على الحركة. ضمن هذه الكتلة غُيِّب الإنسان الفرد، وضاعت كل فاعلية حرة من شأنها العمل الذي يسهم في صناعة التاريخ، فأمسى الإنسان الفرد خارج التاريخ والزمن كحركة. وبما أن الاستبداد محكوم بالمطلق، بالأبدية والسديمية، حيث لا تغيير، لا تطور، لا صعود، لا هبوط، لا إيقاع، لا حركة، لا دينامية... كأنه العدم؛ فإن الانشقاق باعتباره فعلاً حركيّاً، خلخل السكون، هزّه رجّه رضّه وشلّعه، فحرّك التاريخ معلناً بدايته، وإذ يبدأ التاريخ، يبدأ القانون والتشريع والتنظيمات السياسية والمدنية، فالروح الفاعل الذي طالما كان مطموراً في لجّة العماء(الكتلة)، قد انبلج عبر الانشقاق، لينير، ويميِّز، ويشكّل. سوريا التي حُكِمت عقوداً طويلة من خلال ديكتاتور هو واحد أوليّ تجلّى في واحد ثانٍ، وثالث، ورابع...؛ إلى أن أمست "سورية الأسد"، بدت كأنها كانت في صيرورة شاقة اندلع منها أخيراً فعلٌ مختلف وخلاّق،

فجّـرَ الواحـد. إنــه الانشـقاق إذاً، ذاك الفعـل المختلـف المتمـرد على الواحد المتكتِّل، ومفتِّت الكتلة.

****

إن الخلخلة الكبرى الناجمة عن الانشقاق عن "النظام الكتلـة"، من شأنها تفجير الإبداع أيضاً، أي الخلق المنبثق من التمايز والتناقض، إذ لا إنتـاج من التماثـل المطلـق الـذي يمهـر نظـام الاسـتبداد المتكتـل. المـراقب المــتأمل لطبيعــة الوجـود الإنســاني قـد يستشـفّ أن جـلّ الإنتاجــات الإنســانية الأخلاقيــة والجماليــة والعلميــة، والحضــارية عمومـاً، قـد وُلـدت من صـميم الصـراع والتنـاقض والاختلاف، ومن المواجهـة بين الإرادات، والتطلّـع إلى إثبـات الوجـود ومنحـه معنـاه ومغزاه، في قبالة وجودٍ آخر أيضاً له معناه ومغزاه. إضافة إلى ذلـك، فقد بيَّنت التجربة أن دولـة الحـق والقـانون المأمولـة لن تتجسـد سـوى بانتصار قوى النور والحرية على قـوى الظلام والعبوديـة. مـا النظـام الأسدي إذاً، سوى كتلة لا متمايزة، لا متشكّلة، يلفّهـا السـكون المطلـق حيث الكل ممزوج في الكل في حـلٍّ من العمـاء، وإذ يحـدث الانشـقاق عن الكتلــة هـذه، تزهـر الحيـاة السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية والفكرية والروحية، وتدبّ الحياة في أوصال بشر لطالما كانوا طـوال عقود كأنهم أصنام أو آلات لا تفكر، لا تعقل، لا تشعر، لا تريد، ويبدأ بعدئـذ التمـرّد على اخـتزالٍ حـوّل الإنســان الفـرد إلى مجـرد كـائن بيولوجي فاقد المعنى في الحياة.

يطرق الانشقاق "النظام الكتلة" فيشظّيه؛ وينقل العقل من عالم المشابهات والتوافقات، إلى عالم التناقض والتعارض، عالم المخاطرة والمغامرة المتحرِّر من التدجين والتّسييس والتأطير. هكذا؛ يكون الانشقاق، في معنى ما، نزوحاً عن القديم المترهّل وما ينطوي عليه من أزمات عميقة ما عاد العيش في ظلها ممكناً. إنه نزوح تتفتّح منه ومعه قوى شبابية حيوية ذات فاعلية وحركة، قوى قد تثبت تفوّقها على أسلافها، كونها الجديد الذي لا تستطيع القوى القديمة المترهّلة أن تقضي عليه وتعيد الأمور إلى نصابها الكسول الخامل ذي السكون الكئيب القاتل. لقد "انشقّ" الشعب السوري، "شاقاً" لنفسه طريقاً. غدا الانشقاق بمثابة سيل جارف يواجه مستنقع نظام متكتل. وعليه، دخل الطرفان، أي الشعب الثائر المتحرك و"النظام الكتلة"، في صراع وجود، صراع إرادات متنافرة متخارجة. بدا الشعب مع هذا التخارج، توّاقاً إلى إخراج البلاد من حال السلب والعماء، بعد الإجهاز على"النظام الكتلة" عبر "شقّه".

على أن أهمّ ما يعزّزه الانشقاق من الناحية الأخلاقية والقيمية، هو الاعتراف بالخطأ والرذيلة، توقاً إلى الصحيح والفضيلة، كونه دليلاً على حجم الانحطاط الأخلاقي الذي اعترى "النظام الكتلة"، وإذ يعلن المرء انشقاقه عنه، يعلن في الآن عينه، الثورة على ذاته أيضاً، مريداً بذلك تنظيفها، سعياً وراء تفتّحها من جديد على عالم آخر تزدهر فيه الأخلاق الضرورية لأن يحيا البشر في ظلها كبشر.

مفهوم الجامع

في كلّ مرّة كان الناس يخرجون فيها من الجوامع محتجّين في بدايات الثورة السورية، كانت ثمة سمة تُضاف إلى ما قبلها، فيتعمّق تصوّر جديد لـ"الجامع"، وقد حال تجذُّر التصوّر القديم له في ذهن "العَلمانيّين الطائفيين" الذين تبيّن أن بعضهم يعاني أزمة مغالاة وتشدُّد، دون إمكان استيعابهم أي تصوّر جديد للجامع. استنكروا خروجَ بعض التظاهرات منه، مثلما استنكر أيضاً بعض رجال الدين من مثل محمد سعيد رمضان البوطي الذي طالما تحدث عن أن "الذين يريدون أن يوظفوا المسجد للخروج لا تعرف جباههم السجود". لكن هل كان لزاماً على المتظاهرين أن يتجشّموا عناء إقناع أولئك بأنّ الجامع اليوم هو بؤرة تحرير روحيّ وجسديّ يهيئ المرء للخروج منه محتجّاً معترِضاً لا ذليلاً؟ وبأنّ الجامع سهّل خروج التظاهرات إلى الشوارع بعدما مكَّن الناس من التجمّع؛ لأنه في "مملكة الرعب الأمني" يصعب اجتماع حتى ثلاثة أو أربعة أشخاص؟ وبأن بعضاً من اليساريين والدروز والمسيحيين وغيرهم، ومن مختلف المناهِل الثقافيّة والإيديولوجية، كانوا يذهبون إلى الجوامع بقصد التظاهر؟ وبأنهم ببساطة شديدة "مسلمون"؟ يبدو أنه ما كان هناك وقت لإضاعته في "الإقناع"، ولا كانت المجازفة في أي

التفاتـة إلى الخلـف من شـأنها عرقلـة جريـان سـيل الثـورة الجـارف الهادر، واردة أو مطروحة.

بيد أن السلطة الأسدية، كانت أدهى من ذاك "العَلمانيّ المتطـرف المسكين"، فقد كانت تـدرك أن الجـامع مـا عـاد مؤسسـة أمنيّـة لـديها، وأنـه صـار حـرّاً من خطبهـا وخطاباتهـا، ومن عظـات رجـال الـدين "المعيَّنين" عندها. إذ الجسد الذي طالما كان راكعـاً في الصـلاة، كـان على ما يبدو يأخذ جرعـة معنويّـة تؤهِّلـه للخـروج إلى الشـارع حـرَّاً، منتصب القامة، مرفوع الرأس. حتى أن الأصـحّ، الحـديث عن النـاس الخـارجين من الجوامـع كـ"جماعـات ثوريّـة" لا كـ"حشـود". هكـذا؛ سارعت السلطة المذكورة إلى تقـويض انتصـاب الجسـد، عـبر إجبـار النـاس على السـجود لصـورة بشـار الأسـد كسيِّد أعظم، أو أب خـالق فـاطر، أو إلـه. على هـذا، يمكن فهم دلالـة الشـعار الثـوريّ: "مـا رح نركع/ غير لله ما رح نركع"، الـذي طالمـا مثّـل رداً سياسـياً وأخلاقيّـاً على سلطة تريد تركيع الناس، وإجهاض ثورة تعتبرها كُفراً وتجديفاً.

عمدت السلطة الأسـدية إلى التعـاطي مـع الجـامع، عـبر الخيـار العسـكريّ/ الأمـنيّ نفسـه الـذي اختارتـه لــ"تـأديب" المتظـاهرين السلميِّين. بمعنى أنهـا تعـاطت مـع الجـامع الـذي هـو مـادة صـمَّاء من حجر وإسمنت، كأنـه كـائن بشـريّ يعقـل ويفكِّر ويشـعر، يثـور عليهـا ويهدِّد وجودها. هكذا؛ يصبح تعبيرنا، "الجامع الثائر"، ابتكـاراً لغويّـاً

يعكس تعامل السلطة مع الجامع كثائر "سنّي، أصوليّ، إرهابيّ، وقتله فرضٌ وواجب"- ما يجدر ذكره هنا، أن جنود السلطة وشبّيحتها الطائفيين، لم يكتفوا بقتل الناس في المناطق الثائرة وارتكاب أبشع المجازر في حق الأطفال والنساء والشباب والشيوخ؛ بل راحوا ينهبون ممتلكاتهم وأثاث بيوتهم من ثلاّجات وغسالات وغير ذلك، ثم يبيعونها في مناطق أخرى، بسوق خاص أطلقوا عليه اسم "سوق السنّة" بأسعار- ربما تقلّ عن ربع قيمتها الأصلية، في إشارة رمزية إلى أن "السنّة" مجرّد سلع، وأن ثمنهم زهيد رخيص!.

استهدفت قوات النظام الأسدي جوامع أثرية عمرها أكثر من ألف عام، ناهيك بالكنائس، فهل يختلف النظام السوري في تدميره الجوامع والمقدسات الإسلامية وغير الإسلامية، عن أولئك الذين هدموا الأضرحة في تمبكتو بشمال مالي، أو الذين حطّموا تماثيل بوذا في أفغانستان؟!

-"الجامع الثائر" من منظور سيكولوجي

على إثر تظاهرات سلمية دامت شهوراً طويلة. تظاهرات وصل عدد المشاركين فيها في جمعة "أطفال الحرية" في 3حزيران2011، على سبيل المثال، حوالي نصف مليون متظاهر ومتظاهرة في ساحة العاصي بمدينة حماة؛ اقتحمت دبابات "الجيش العربي السوري" المدينة في شهر آب/ رمضان 2011. ما يصعب ربما على كل سوريّة وسوري نسيانه، هو مَشاهد قصف الجوامع، ولاسيّما مآذنها، كقصف مآذن جوامع السرجاوي، والصحن، والرحمة، والحسنيات... وغيرها الكثير مما وثّق قصْفَها ناشطون بواسطة كاميرات هواتفهم المحمولة.

يُحيل قصف المآذن على سؤال أساسيّ: لماذا تعمّد النظام قصف المآذن آنذاك، وما الدلالة السيكولوجية لذلك؟ إن المئذنة المتجهة صوب السماء، قد توحي بالتوق والانشداد إلى شيء ما عالٍ ورفيع، والرغبة في الصعود إليه، وهذا ما لا يريده نظام استبداديّ، سعى دوماً إلى الاقتصاص من كل ما من شأنه ارتقاء الإنسان. هكذا، فإن قصف المئذنة قد يعني كذلك قصف الشموخ والطموح والجموح لدى الثائر. ثم إن مئذنة الجامع فيها مكبِّرات للصوت، وهي مصدر الصوت العالي، والرأي الذي يمكن سماعه، وهذا ما لا يطيقه نظامٌ

لطالما تعيَّش على كمّ الأفواه، وقمع الرأي من خلال "تربيـة أطفالـه"، أي الشـعب، على التكلّم همسـاً، والعـزوف عن التعبـير إلا ضـمن مـا يشـرعنه النظـام ويسـمح بـه. وحيث إن المئذنـة سـابقاً كـانت مكبِّرة لصـوته هـو، أي النظـام، فهي في زمن الثـورة، بـاتت مكبِّرة لصـوت آخر. صوت ثائر يريد الانعتاق من صوت النظام الواحد الأحد. ذلك كله، وأكثر، قد يجيب عن سؤال السيكولوجيا المطروح آنفاً، ويدفع تالياً آليّة اللغة بكليّتها إلى الحركة لتعميق مفهوم جديد للجـامع، يسـاهم في صوغ لغة جديدة من شـأنها إعـادة تشـكيل الـذهن، ومـا يحملـه من تصوّرات ومفاهيم ما عادت تنسجم مع الراهن، لأنه: "يمكن لكلمة أن تكون فجراً/ وأكثر من هذا أن تكـون ملجـأ أمينـاً"، كمـا يقـول إدمونـد فاندر كامن في هذا البيت من الشعر.

"ـــالجامع الثائر" من منظور مفاهيمي

يبدو الجامع في مفهومه المرتبط بالثورة، كأنه بات متّصلاً بالجسد بمقدار اتصاله بالروح، وربما لم يعد مكاناً للتعبّد يتغرّب فيه الشخص عن حياته اليوميّة وهمومه السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لصالح السماء؛ لذا، ربما يكون هناك ما يسمح بالحديث عن "جدل الداخل والخارج"، فالدخول إلى الجامع وقد تحرَّر من "المأسسة"، بعد خرقِ السطوة الاستبداديّة/ الأمنيّة التي لوّثت جوانب الحياة الإنسانيّة كافة في سوريا، بما فيها الجانب الدينيّ، صار يعني تفتّحاً للروح، وإطلالة المرء على نفسه وعلى العالم، فتغدو مهمّة الجامع، مهمة أنطولوجيّة يصبح المرء معها ممتلئاً بإيمان حقيقيّ صادق، بعدما كان مجرَّد إطار خاوٍ، ويعاني أزمة روحيّة. إذ ثقافة الاستبداد هي ثقافة " أُطُر"، وشعارات فارغة، مثلما هي ثقافة دين مسيَّس، وإيمان مسيَّس يعتقل الروح. في داخل "الجامع الثائِر" سوف يتمّ تحضير القاع الحميم لدى الداخل إليه، ما يعني عودة المرء إلى ذاك السلام الداخليّ الذي يُحيي تواصل المؤمن مع ربِّه على أساسٍ من الحبّ ينتفي فيه الخوف، كما تنتفي فيه المصلحة والنفعيّة التي تشوّه العلاقة الإيمانيّة الروحانيّة الخالصة مع الله. لعلّ الشعار الذي ردَّده المتظاهرون السوريون مراراً "هي لله هي لله/ لا للسلطة ولا للجاه"، هو شعار تبدّت فيه تلك الروحيّة المنعتقة من النفعيّة، كونه شعاراً يُفصِح عن جانب مشبع

بروح صوفيّة لديهم، فيغدون معه أشبه بالمتصوِّفة الذين وصفهم ذو النون المصري بقوله: "هم قوم آثروا الله على كل شيء، فآثرهم الله على كل شيء".

****

يبدأ الجدل مع "الداخل" عند "خروج" الناس من "الجامع الثائر"؛ فالإيمان الخالص الذي كان عليه المرء في داخل الجامع، سيستحيل نضالاً من أجل حياة حرّة كريمة بعد خروجه منه، وسيبدأ الناس في تظاهرات يهتفون فيها للعدالة الاجتماعيّة، وللحرية والكرامة، منددِّين بالفساد والإفساد، والاستبداد والاستعباد. ما يعني أن "الجدل بين دخول الجامع والخروج منه"، هو حوار منتِج بين الروح والجسد، وبين العاطفة والعقل، وبين الإيمان والبرهان. فـ"الجامع الثائر"- هنا هزّ الوعي بالشكل الذي دفع الناس إلى تحويل ما كانوا عليه في داخل الجامع من "لطافة روحيّة" إلى "كثافة جسديّة" بعد الخروج منه. يشرح هذا الكلام ما ذكرناه آنفاً حول اتصال الجامع بالجسد، في مفهومه المرتبط بالثورة، بمقدار اتصاله بالروح، إذ يجعل الاغتراب بين الجسد والروح ينكمش ويتقلَّص. وعلى هذا يكون "الجامع الثائر" ممرّاً لتأسيس "إنسانيّة عيانيّة"، لأنه "جَمَع" بين الروح والجسد، وبين الحياة الروحانيّة التأمليّة الخالصة والحياة العمليّة. لذا تبدو مفردة "جَامِع" أكثر انسجاماً ربما مع ثورة الحرية والكرامة من مفردة "مسجد"

اللغة بين نظام جائر وشعب ثائر

- عن إخماد النار بالنار وزلزلة الأبد بالأبد

1

"لا تُوقِف السلطة إلا سلطة مماثلة"، جملة كان غرض مونتسكيو منها سياسياً، يتماهى والغرض نفسه في عموم كتابه (روح القوانين 1734-- 1748)، إذ يميل الإنسان – إن مُنِحَ سلطة مطلقة – إلى أن يسيء استخدامها، ومن ثم وجب فصل السلطات الثلاث (التنفيذية، التشريعية، والقضائية) بعضها عن بعض، حتى تتوافر الحرية للأمة. الجملة نفسها، قد تفسح المجال لقراءتها في اتجاهات ومجالات عدة ومتعدِّدة، فقراءتها في "عالَم اللغة" مثلاً، قد تفضي إلى كشفٍ كان غائباً عن الأذهان. أنْ تكون اللغة "عالَماً"، يعني أنها واسعة وشاسعة إلى الدرجة التي يصعب عندها اختزالها إلى مجرد وظيفة نقل تقوم بدور الوصل والتواصل، أو إلى مجرد أداة للتعبير عن الأفكار والتصوّرات، كونها الكائن الحيّ الذي يولد، يموت، ينمو، يتطوّر، ينبثق، يعيد تشكيل الذهن، يتجلى، يعقل، يفكّر، يشعر، يحدس، يستدلّ، يغامر، يثور، ينتصر، يَهزم ويُهزم، يدمِّر ويدمَّر. هكذا، فإن اللغة المتسلِّطة، سياسية كانت، أم دينية، أم اجتماعية ثقافية، أم فكرية،

تبدو كأنها تمضي، عبر تسلُّطها، إلى حتفها، وتسير صوب تدمير ذاتها من خلال تأجيج لغة مضادّة، مماثِلة لها في القوة والسلطة، توقفها عن حد تسلّطها وربما تدمّرها، وهذا ما يمكن تسميته "انتحاراً لغوياً" قد تُقدِم عليه السلطة. انتحار على مستوى اللغة، يسبق موتها الواقعيّ المحتَّم بفعل الثورة الشعبية عليها.

2

إنْ أردنا أن نفهم في زمن "الربيع العربي"، كيف تدمِّر اللغة ذاتها، عبر تأجيج لغة ثائرة عليها، فقد يكون السبيل إلى ذلك، هو التفكُّر مليّاً في شعارات الشعوب الثائرة باعتبارها شعارات مثَّلت لغة مقابِلة، في قوتها وسلطانها، للغة الأنظمة الحاكمة المتسلِّطة. في هذا المعنى ربما تكون الثورة السورية، على وجه الخصوص، ثورة لغة بامتياز، إضافة إلى كونها ثورة جسد انعَتَق. فمن بئر بضع كلمات خطَّها أطفال من درعا في جنوب البلاد، على جدران مدرستهم، "الشعب يريد إسقاط النظام"، فاضت ثورة شعبية طالت شرق البلاد وغربها، وجنوبها وشمالها. للمرة الأولى، بعد عقود غربة واغتراب، وجد السوريّ نفسه متحدّثاً بلغته الخاصة وبمنطقه الخاص، من قلب الشارع، كفضاء عام في دولة سُلِبَت منه حتى أمسى فيها غريب الديار، ليبدأ بعدها رحلة تبديد لغة السلطة أو لغة العائلة التي حكمته بحديد اللغة ونارها. إنها اللغة "الرسمية/ الأمنية" التي لم يكن ليتعرّف

المجتمع السوري فيها إلى أحلامه بل إلى مناهجه. فهي اللغة المتعجرفة، التامة الانغلاق، اللئيمة الحاقدة، المتآمرة، الباعثة على العبوس والتجهّم والخوف، والمحمَّلة إيديولوجيا طوباوية أثقلت كاهل العقل والنفس والوجدان بكل أنواع الفصام والشروخ والتناقض المريض. كان لا بدَّ، في مقابل لغة السلطة تلك، من لغة توازيها قوة وتحدِّياً. إنها لغة الثورة، لغة "الشعب يريد...". فالنار، على ما يبدو، لا تطفئها إلا النار، ففي حين جابهت السلطة الأسدية الثائرين عليها بلغة حرْق ودماء، كتعبير "شبّيحة[5]" السلطة وجنودها ورجال أمنها: "الأسد أو نحرق البلد"، "يا بشار لا تِهْتَمْ عِنْدَكْ شعب بيشرب دم"، فإن الذكاء اللغوي الثوري واجهها بنيران لغةٍ من شأنها الإنارة لا الحرق، فأن يكون "الشعب يريد إسقاط النظام" لغة مقابِلة للغة الحرق والدم، معناه أن ثمة مَن يريد الحرية والعدالة والكرامة، عبر إسقاط مَن يريد حرق البلد وإراقة الدماء فيه. بدت لغة السلطة كأنها تدمِّر ذاتها، عبر تشبُّعها بمفردات من شأنها الإضرام وشرب الدماء.

---

5 **الشَبِّيحَة: مصطلح وُلِدَ قبل اندلاع الثورة. يُروى أنه أُطلقِ على عصابات التهريب التابعة لأحد أفراد عائلة الأسد في اللاذقية. جاءت التسمية من كونهم مشهورين في قيادة سيارات مرسيدس من النوع الذي يُسمّى في العامّية "الشبَح". بعد اشتعال الثورة، تحوّل أولئك وغيرهم إلى ميليشيات حكومية مسلّحة ومأجورة، هدفها الرئيسيّ قمع التظاهرات الشعبية المدنية السلمية، المناوئة للنظام ورئيسه. أصبح السوريون يطلقون اصطلاح "شبّيح" على كل شخص يبطش أو يتكلم بلسان النظام وعائلة الأسد أو يدافع عنهم ويتبنّى مواقفهم من كل شيء.**

مفردات عملت على توليد لغة مضادة من شأنها تحدِّيها والعزم على إسقاطها. ما حدَثَ على الصعيد اللغوي، انتقل إلى الأرض، فاستحال الحرق والدم فعلاً، بعدما كانا لغة. في المقابل، استحال سقوط النظام وتهاويه فعلاً تدرّجيَّاً، بعدما كان لغةً.

3

مثلما ساهمت لغة السلطة في تشكيل لغة ثائرة عليها، فإن لغة الثورة ساهمت أيضاً في تشكيل لغة سلطة متأثِّرة بالثورة، فتطايرت قدرات اللغة بحيث أصبحت الكلمة تُنتِج وتَستَهلِك. لكن الفارق بين الحالين قد توضحه استعارة قوات النظام بعض كلمات الثورة، أو جُمَلها، أو أسلوب طرحها ولحنها وإيقاعها، كما يبدو، مثلاً، في الشطر الأول من عبارة: "الشعب يريد/ تربايـة من جديد" التي كتبها جنود الأسد على الجدران في منطقتَي كفرسوسة وداريا الثائرتَين مثلاً، في دمشق وريفها بعد الانتهاء من المجازر. "الباسلة". تشي العبارة بالطريقة التي طالما فكّرت السلطة من خلالها في "شعبها"، أي اعتبار الناس، أطفالاً غير مؤدَّبين تلزمهم تربية، ووصاية دائمة عليهم، وهي نظرة تتطابق، على كل حال، مع نظرة المستعمِر للشعوب الأصليّة، الذي يعمل على "تَذْويت[6]" الشعوب المستَعْمَرة بأنْ يسمّيهم همجاً، أطفالاً،

6 **مفهوم التَّذْويت (Subjectification)) من المفاهيم الأساسية فيما سُمِّي بالدِّراسات ما بعد الكولونيالية، وقد نَظَرَ له لوي ألتوسير حيث اعتبر أنّ استدخال السلطة في الذات يعني ألا يغدو أعضاء المجتمع الأفراد "ذواتاً" قبل أن "تستدعيهم" قوى المجتمع الحاكمة أو ما يدعوه ألتوسير (بأجهزة الدولة الإيديولوجية)، فالشخص لا يُولَد "ذاتاً" بل المجتمع هو الذي يحوِّل الشخص إلى "ذات"، هكذا، فإنّ مفهوم التَّذْويت عند ألتوسير يشتمل على كلّ من دَفْعِ الشخص**

برّيين، غير متحضّرين، غير عقلانيّين. إذ تُظهِر العبارة السابقة، بوضوح تام، التعالي الأريستوقراطي حيال كل ما هو "شعبيّ". بيد أنها تشير، في الآن عينه، إلى تأثُّر السلطة بالثورة، سواء وَعَتْ ذلك أم لم تعِ، ويُرجِّح عدم الوعي. فالجملة نفسها تبيِّن أن الثورة باتت من القوة بحيث فرضت على السلطة لغتها، وحضورها اللغوي. هذا من جهة. وتُفصِح، من جهة أخرى، عن تناقض السلطة، وضعفها، وتفسّخها، حين يستعمل جنودها لغة الثورة، كون العبارة تعترف، في الشق الأول منها، بإرادة الشعب الذي صار "يريد" (الشعب يريد...)، ويظهر في الشق الثاني (ترباية من جديد)، نَهَم السلطة إلى تركيع الشعب، وترجيعه إلى ما كان عليه قبل أن "يريد"، وعبر هذا التناقض بين شقّي الجملة نفسها، تكون لغة السلطة قد دمَّرت ذاتها.

غير أن الشعب، اعتبر أن السلطة التي تحكمه منذ عقود، ليست سوى استعماراً أو احتلالاً، وقد عبَّر عن ذلك بلغته الخاصة: "سوريا لِينَا وما هِي لَبيت الأسد"، وهي لغة ثائرة على لغة جعلت من سوريا، "سورية الأسد"، ما يعني، إمعان لغة السلطة في تدمير ذاتها، عبر تشكيل لغة مضادة تخلخلُها، كلمة بكلمة، وعبارة بعبارة، وأسلوباً

إلى إدراكٍ واعٍ ومكتمل، ومُسَيْطَر عليه في آنٍ واحد، فيغدو الشخص في كلا المعنيين "موضوعاً". وهكذا أيضاً، يُذَوَّت المُسْتَعْمِر الشعوب الأصليّة بأنْ يسمّيهم همجاً، برّيين، غير متحضّرين، غير عقلانيّين...إلخ وبهذا يغدون خاضعين للمُسْتَعْمِر بوصفهم "ذواتاً" همجيّة، وهذا هو بالضبط ما فعله المستعمرون الأوروبيّون، كسلطة خارجية، حين كرَّسوا كلَّ جهودهم كي يبقى المحليّون في الأماكن التي استعمروها "أطفالاً" بالمقارنة مع حكّامهم الأوروبيّين العقلانيّين، الرّاشدين. من دراسة دوغلاس روبنسون (الترجمة والإمبراطورية: الدراسات ما بعد الكولونيالية، دراسات الترجمة) المنشورة في مجلة "نزوى"، العدد الخامس والأربعون.

بأسلوب، ونهجاً بنهج، ونظرة بنظرة، وفكرة بفكرة.

كانت للكلمات المستعمَلة في كتابة تاريخ جديد، يكتبه بين الشعار والتظاهر، شعبٌ طامحٌ إلى استعادة دولته وتحريرها من قبضة المُحتَل "سوريا لِينا.."، كانت لها ذاكرة أخرى تغوص في عمق الدلالات الجديدة بطريقة عجيبة. فما كان عَرَضاً أصبح جوهراً، وغدت "الكتابة الثورية"، كأنها مصالحة بين الحرية والذكرى. إنها تلك الحرية المتذكِّرة التي لا تكون حرية إلا في حركة الاختيار الشعبي. وعليه، فإن لغة "الله سوريا حرية وبَس" و"ما مِنْحِبَّكْ"، قد تفتّحت من وسط الدمار الذي ألحقته بنفسها لغة "الله سورية بشار وبَس" و"مِنْحِبَّكْ"ـ لقد ضعضعت لغة الثورة، لغة السلطة، التي اختصرت الوطن بـ"شخص"، ووضعته في موازاة ماهيَّة روحيَّة كليَّة، أي في موازاة "الله"، وبدت اللغة الثائرة كأنها قد لغَّمَت اللغة، حين أحلَّت "الحرية" مكان "شخص" (بشار)، ما يعني تحطيم الغاية العلائقيّة في اللغة، ليحلَّ محلّها تفجُّر الكلمات.

وحيث إن اللسان واللغة هما نتاج طبيعيّ للزمان وللشخص البيولوجيّ، فإن الهوية الشكلية للثائر السوري المتمثلة في لغته، أو في "الكتابة الثورية لتاريخ جديد"، توطّدت بعيداً من المعايير اللغوية للسلطة وثوابتها ومطلقاتها. بذلك، حدث أخطر أنواع القطيعة مع السلطة، أي القطيعة اللغوية. وبدأ الفرز بين الحقيقي والزائف في اللغة، كما لو أن الفعل الثوري الواضح الجليّ، لم يكن ليولّد إبداعاً

يكرّسه المجتمع السوري، إلا عندما نجح في تبديد الترسّب اللغوي لديمومةٍ ظلّت حتى لحظة اندلاع الثورة السورية من دون دلالة.

4

لكي نفهم دلالة شعار "قائِدْنا للأبد/ سيِّدْنا محمّد"، يبدو أنه علينا أن نفهم كيف يُستنتَج ما يؤسّس الأنطولوجيا على السيكولوجيا، ويمضي من واحدتهما إلى الأخرى بمساعدة مَلَكَة سيكولوجية وأنطولوجية، ذاتية وموضوعية في آنٍ واحد، تتبدّى في الثائر من دون أن تتبع له حصراً. فاللجوء إلى لغة أنطولوجية (وجوديّة)، تجلّت في تعبيرات "أبدية غيبية دينيّة روحيَّة"، كان بمثابة رد فعل أسَّسَ أنطولوجيا اللغة على حال الثائر السيكولوجية (النفسية)، الساخطة على لغة "الأبدية" في السلطة، أي اللغة التي جعلت من الرئيس، "قائداً أبدياً". فقد وُرِّثت "الأبدية في اللغة" من الأب (حافظ الأسد) الذي فرض وجوده، كوجود أبدي، إلى الابن (بشار) ليكمل من بعده "مسيرة الأبدية"، حتى أن تسمية الحفيد (حافظ)، بدت كأنها من أدوات "سياسة الأبد" تلك.

إن في استبدال قائد "أبدي"، حيّ ذهنياً (الأسد الأب)، وحيّ واقعياً (الأسد الابن)، بقائد "أبدي"، ميّت واقعيّاً، وحيّ ذهنيّاً (النبي محمد)، دلالة مفادها: إن "لغة الأبد"، لا تبدِّدها ربما إلا "لغة أبدٍ" مماثِلة. على أنه يتعيَّن، من هذا المنظور، التمييز بدقة بين طرح

الشعار نفسه على أساس دينيّ بحت، وطرحه على أساس سيكولوجي نفسي. إذ المجتمع السوري معتدل في تديّنه، وتاريخه لا يشكّل تربة خصبة للتطرّف الديني. لذا ينبغي، عند محاولة تفسير الشعار، عدم تجاهل زمنه، فهو لم يُطرَح إلا بعد مرور أشهر طويلة على اندلاع الثورة، بعدما أوغلت السلطة في القتل، وأمعنت في المجازر والتدمير، والتعنيف على أساس طائفي. ما يعني أن لغة شعار "قائدنا للأبد/ سيدنا محمد" ليست داخلة في تكوين الثورة وماهيتها، بل نجمت عن ضغط انفعالي. فمن طبيعة الإنسان، حين يمرّ بظروف عصيبة وبتجارب مأسوية، اللجوء إلى شخصية رمزية يعتبرها قدوة، ويستمدّ منها القوة، والصبر الذي قد يعينه على الخلاص من المأساة أو حتى احتمالها، فاللجوء إلى شخصية مثل شخصية النبي محمد، يُعتبر بمثابة حاجة إلى "الامتلاء" في مواجهة "الخواء" اللازم عن الرعب. في أوقات المِحَن، غالباً ما ينتعش المخيال الديني الذي قد يكون عوناً وهَدْياً يساهم ربما في التخفيف من هول الهول.

5

يمكن، استناداً إلى التحليل اللغوي ذاته، تفسير شعارات أخرى من مثل: "حرية للأبد/ غَصِبْ عَنَّكْ يا أسد". إذ في الشعار نفسه ووجهَتْ "العبودية الأبدية لشخص"، بـ"نزوع أبدي إلى الحرية". أي أن لغة السلطة، ساهمت في تشكيل لغة مقابِلة، مماثِلة، ثائرة عليها، مزلزِلة

أبديتها العبدة بأبدية حرة. بذلك تكون لغة السلطة قد دمَّرت ذاتَها بذاتها.

1

حين يزمجر الشعب مريداً إسقاط النظام لا يفضح الخطأ فحسب، بل ينزع عنه سمة "الطبيعيّ" أيضاً، السّمة التي طالما برّر النظام الأسدي من خلالها الخطأ الكارثيّ. يخبرنا رولان بارت بأنّ ثمة "تعمية" حاصلة، وهي نوع من الخداع يمارسه البعض في خطبهم السلطوية التآمرية، كأن يُقال: "طبيعيّ" أن تحصل أخطاء، والغرض اللاأخلاقي هنا، هو إعطاء الظواهر التاريخية أو الثقافية مظهر الظواهر الطبيعية، والردّ الوحيد على التعمَية، هو فضحها[7]. و"الفضح" أو "التعرية" ربما تكون الدور الأهم الذي مارسته اللغة في الثورة السورية، فقد عرّت "الطبيعية" التي أسبغها النظام السوري على "أخطائه" في محاولة منه لتبريرها، واحتواء غضب الشارع وامتصاصه، والتفلّت تالياً من المسؤولية، والتهرّب من الملاحقة والمحاسبة، على اعتبار أن ما حصل من جرائم هو مجرّد "أخطاء طبيعية"، وهذا ما رمى إليه بشار الأسد حين صرّح في 18 أيار 2011 بكلام قدّمه على أنه إقرار بأن "قوات الأمن ارتكبت بعض

---

7 **يمكن مراجعة الموضوع الأول في هذا الفصل (الشعب يريد إسقاط النظام). وتجدر الإشارة إلى أن هناك شعارات وهتافات أخرى في الثورة السورية سوف يتم التطرق إليها في موضوعات لاحقة. من مثل:(يلعن روحك يا حافظ)، (واحد واحد واحد/الشعب السوري واحد)، (الموت ولا المذلة)، (عالجنة رايحين/ شهداء بالملايين)، (هي لله هي لله/لا للسلطة ولا للجاه)، (مارح نركع/غير لله ما رح نركع)، (يا الله ما إلنا غيرك يا الله).**

الأخطـاء في تعاملهـا مـع المحتجّين، وأن ذلـك مـردّه إلى ضـعف التـدريب". لكن الشـعب الثـائر قالهـا صـراحة: "إللي بيقتـل شـعبو خـاين"، وكـانت اللغـة في هـذا الشـعار، وسـيلة من وسـائل التنـوير الاجتمـاعي والسياسـي؛ كونهـا بيّنت أنـه لا يجـوز منطقيـاً، وواقعيـاً، وأخلاقيـاً وإنسانيـاً أن يكون "الخطأ" توصيفاً للجرائم الـتي ارتُكِبَت في حق الشعب الثائر، والتي ترقى إلى جـرائم ضـد الإنسـانية. وقـد بَـدَت اللغة المتجلّية في عبارةٍ تخوِّن مَن يقتل شعبه، كأنها تطـال كـل أنـواع القتل وأزمنته. فقتل السلطة الأسدية لشعبها ليس حديث العهد، ولم يبدأ مع اندلاع الثـورة الشـعبية في أواسـط آذار 2011، بـل هـو قـديم قِـدَمَ تبوِّئها مقاليد الحكم المطلق في سوريا، إذ كان هنـاك قتـلٌ يـوميّ طـال العقـل، والنفس، والأخلاق، والقيم، والجمـال، وكـل مـا يمكن أن يمنح الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية معنى. هكذا، فإن لغة شـعار "إللي بيقتل شعبو خاين" مارَسَتْ أدواراً عدّة في آنٍ واحد، فهي أخـذت على عاتقها أولاً: القيام بدور تـذكيريّ يعـود بالأذهـان إلى الماضـي القمعي للسلطة الأسـدية، خصوصـاً أن الـذاكرة لا تـزال نشـطة في مـا يخصّ الجرائم التي ارتكبتهـا السـلطة نفسـها في حـق السـوريين في محافظـة حمـاة مثلاً، في زمن الأسـد الأب في بـدايات الثمانينـات من القـرن المنصـرم. وثانيـاً: لعبت دوراً احترازيـاً يأخـذ في الاعتبـار مسـتقبل البلاد، ويتخذ من الماضـي درسـاً للتعلّم منـه. فمـا كـان في السـابق يتم تصنيفه على أنه "خطأ طبيعيّ"، لن يكـون كـذلك في المسـتقبل. وكـل

تجـاوز للقـانون في سـوريا الثـورة والحريـة سـوف تتم محاسـبته ومعاقبته، ولن يكون مجرّد "خطأ طبيعي".

2

لقد شكّل لغةَ الثورة، عناءٌ مزمنٌ من الكـذب والضـعة المتسـتّرة وراء كبرياء من عاثوا بالبلاد فساداً ولصوصية، وازدراء المواطن والفـزع منـه إن كـان فاضـلاً ومتنـوّراً، مـع الاسـتهزاء الـدائم من الفضـيلة ومعتنقيها. وشكّلها شعورٌ عارم بالسخط على أن يكون "أكابر" الدولة فاقـدي الأمانـة، وذوو الصـلاح أصـاغرها، ومنبوذيهـا ومهمَّشـيها. وشكَّلها إحساس بالنقمة تعاظمَ طوال عقود، حيال خيانـة النظـام ممثَّلاً بالعائلة الحاكمـة/المالكـة. النظـام ورئيسـه الـذي نسَـبَ إلى نفسـه دور البطل المقاوِم الممانِع، وخَـدَعَ شـعبه، وحـاكَ المـؤامرات، وتخلّى عن الوعود، وباع الأرض والعرض. إن ذلك الواقع هو الـذي سـاهم ربمـا في تشكيل لغة من مثل: "إبن الحرام باع الجولان"، وفي هـذا الشـعار مارسـت اللغـة دور التعريـة بجـدارة، بعـدما بيَّنت أن نضـال الشـعب السوري الثائر قد أنتج أنماط اللغة الأكثر صفاء، حتى بدا كأنـه حَـدَث لفظيّ صرف يجتثُّ التجربـة الوجوديـة من جـذورها. من المعلـوم أن "ابن الحرام"، هو ابن علاقة جنسيّة غير شرعية، ما يعني أن الشـعب الثائر لا يعتبر رئيسلً باع الأرض ابنـاً شـرعياً للبلاد، على اعتبـار أن ابن البلد لا يبيع الأرض. عدا ذلك، فإن لغة الشـعار الـتي أشـارت إلى

الرئيس كـ"ابن حرام" تنطوي على رسائل مفادها: إن رئاسة الابن الذي لم يأتِ إلى السلطة بانتخابات شعبية "شرعية"، إنما ورث حكم "الجمهورية" السورية عن أبيه، هي رئاسة "غير شرعية"، ومثلها رئاسة الأب الذي وصل إلى السلطة بانقلاب عسكري. على هذا، فإن قَتْل الشعب، وبيع الأرض، ليسا "خطأين طبيعيَّين"، بل هما "جريمة" و"خيانة" بكل ما تنطوي عليه المفردتان من معانٍ.

3

إن الكلمة الثائرة باعتبارها حرية قد لا تدوم سوى لحظة، لكن هذه اللحظة من أكثر لحظات التاريخ جلاء، خصوصاً أنها قد تحرّض على التفكّر في بعض المفاهيم، وتعيد بعضها إلى نصابه، وتساهم في نحت بعضها الآخر. مفهوم "الخطأ" هو أحد المفاهيم الذي أعادته اللغة الثائرة إلى نصابه، خصوصاً أنه ينطوي على إيجابيات تتّصل بكونه مؤسِّساً للصح ويسبقه زمنياً، وهذا ما عناه فيلسوف الخطأ (غاستون باشلار 1884-1962) حين اعتبر أن "ماضي العلم هو دائماً عبارة عن أخطاء العلم". كلّنا على دراية بالمحتوى القمعي الدائم لكلمة نظام System، فكيف لنظام من مثل النظام الأسدي أن يسمح بخطأ من شأنه التحريض على التفكّر، والتأسيس للعلم والصح بالمعنى الذي ذهب إليه باشلار؟!. إذ النظام الأسدي أشاع الخوف من كل إشكاليَّة، وعلى الأخص إن كانت إشكالية ثورية من شأنها الانهيار

النهائي للأوهام. في هذا المعنى، كان النظام على الدوام يسمح بارتكاب الجريمة بمختلف أنواعها، ولا يسمح بالخطأ. وما وَصْفه لجرائمه وجرائم أجهزته بأنها "خطأ"، إلا مراوغة لغوية. لعل ذاك المرسوم[8]، الذي منح حصانة لعناصر الأمن والاستخبارات من كل محاسبة أو ملاحقة قانونية، دليل دامغ على تشجيع النظام على الجريمة، وتجريمه للخطأ المثير للإشكاليّات المهمّة التي قد تنقل الناس من مران الفكر الذي يعرف، إلى مران الإرادة التي تفعل. عبر اللغة التي كانت ملحمة ثورية عرّت النظام الأسدي، ومفاهيمه، وحذلقاته اللفظية، يكون الشعب السوري الثائر قد أكّد إذاً: أن مَن يبيع الأرض ويدمّر البلاد، ويقتل شعبه، هو "خاين" و"إبن حرام" لا مخطئ، وتنبغي محاكمته كمجرم حرب ومرتكب جرائم ضد الإنسانية.

الحرب واللغة

8 **المرسوم التشريعي رقم (64) لعام 2008 المتضمّن مَنْحَ الحصانة لكافة العاملين في إدارات أمن الدولة المختلفة من الملاحقة القضائية.**

رُشِقت الثورة السورية، منذ اندلاعها، بالمصطلحات والتسميات، وتغيرت وجهات النظر الخارجية فيها، والطابع التوزيعي للخصائص والصفات والنعوت بحسب الظروف والأهداف المرحلية. تارة هي "حرب أهلية"، طوراً "حرب طائفية" أو "مؤامرة كونية"، وحين يُعترف بها كثورة سرعان ما تصير "ثورة إسلامية"، ومراراً هي "صراع ونزاع"، ومراراً أخرى هي "أزمة"، وربما هي كل شيء، إلا أن تكون "ثورة شعبية" بالنسبة إلى مَن يمقتها ويخشاها.

ـ لوثة لغوية

1

في معمعة التصنيفات يشعر المرء كأنه بات يعيش وسط لوثة لغوية لا تنتهي، ما قد يدفعه إلى تحليل لغوي، الأصل فيه أن يرى الذهنية المضمرة خلف اللغة البادية، لتحريرها من التكييفات السياسية أولاً، ثم الإصغاء جيداً حتى إلى همس الثائر السوري الذي غطّاه ضجيج الثرثرة، فيكتشف الحقيقة التي تحجبها تلفيقات العقل الوهمية، التي ليست سوى أقنعة تختفي وراءها أهداف ومصالح تبدو اللغة معها أنها الحقيقة، في حين أنها تستر الحقيقة.

الثورة في سوريا تشبه الحياة، ربما يمثِّل الاستمرار قانونها الأسمى. وما دام الاستمرار قانونها، فاللغة، من حيث هي شكل، تدخل مع الثورة في علاقة تجعل منها أساساً (أرضيّة). الفارق بين الشكل والأساس يتمثل في كون استمرار الأساس يُكسبه صفة البساطة، بينما بروز الشكل وعدم استمراره يكسبه نوعاً من التعقيد. هكذا نفهم سر الضجيج اللغوي الإعلامي والمنبري المستمر منذ اندلاع الثورة. ضجيج مقصود يرمي إلى اللعب باللغة والعبث بالمصطلحات، وتعقيد البساطة من خلال الشكل، نظراً لما لهذا الأمر من فاعلية مهمة في التشويش. أعني التشويش على الأساس. فالأساس، أي الثورة، بسيطة، فيما التعقيد كل التعقيد يأتي من الشكل، أي اللغة المسيَّسة العابثة في توصيف ذاك الأساس وتفنيده، خصوصاً أن الأساس لا حدود له، فيما الكلمات محدودة، وكل تعديل على الكلمات المحدودة

يغيّر من طبيعتها ويجعلها أكثر تشويشاً على الأساس. المفارقة، أن لا محدودية الأساس من شأنها إنهاك اللغة، ما يتطلب إنشاء لغة جديدة تكون قادرة على اللحاق باللامحدودية تلك، وهنا تكمن الصعوبة وربما الاستحالة. إن ظهور الشكل من شأنه اختفاء الأساس (الثورة)، ويبدو أنه هنا بيت القصيد، أن تكون اللغة والكلمات، كشكل، مشوِّشة بحيث تعمل على إخفاء الأساس، أي الثورة، وتركيز الانتباه على الشكل، أي اللغة، لكي تختفي الثورة من المجال الإدراكي. وهذا هو أحد أشكال التآمر على ثورة الشعب السوري.

2

لو أردنا أن نطرق باب التحليل النفسي مستعينين بفرويد، فربما خلصنا إلى أن "الأنا" الثورية السورية وليدة التاريخ القريب، والقلقة باستمرار كونها غير مستقرة بعد، تتحكم فيها "الأنا العليا"، أي العائلة الأسدية المالكة/ الحاكمة ونظامها، التي تمثل التاريخ البعيد، تاريخ الحياة القطيعية التي عاشها السوريون في ظل الأنا العليا تلك. واستناداً إلى هذا التحليل ربما يمكن تفسير تعاطي زعماء المال والسياسة والغلبة حول العالم مع هذه الأنا الحديثة العهد كـ"قاصر"، إذ من غير الوارد الإقرار بثورتها ونضجها ومعرفتها بماذا تريد. وعليه، فهي إما في حال "حرب أهلية" أو "حرب طائفية" أو "صراع"، أو هي فعلاً "عصابة مسلّحة إرهابية وتكفيرية" تماهياً مع

نعت النظام الأسدي وحلفائه لها، أما أن تكون ثائرة؟ ومن أجل الحرية والكرامة والديموقراطية والعدالة؟ فهذا ما لا يمكن تصديقه أو فهمه واستيعابه، كونها أصلاً، بالنسبة إلى كل مَن لا يؤمن بالشعوب وبحقها في تقرير مصائرها، لا تستحق ذلك كله وهو غير لائق بها. وليس أدل على ذلك من كلام الموفَد العربي والدولي إلى سوريا، الأخضر الإبراهيمي، حين قال: "إما حل سياسي وإما الجحيم". كان كلامه عبارة عن خيارين لا ثالث لهما، يبدوان أقرب ما يكون إلى منطق إما وجود وإما لا وجود والثالث مرفوع. أي، إما وجود مع النظام ورأسه والقبول باستمرار العيش في ظل الاستبداد والديكتاتورية، وإما لا وجود يتبدى في دولة فاشلة، ضرب الإبراهيمي الصومال كمثال عليها "الصومالة". إنه "تفكير" سياسي مؤسَّس على ثنائية تتحكم في العالم، تفكير مشطور إلى حدّين مسبوقين بـ"إمّا" التي تأخذ طابع الأمر والنهي والجزم، والتهديد والوعيد، وتتعاطى مع الواقع كثابت، متجاهلة تحولاته وصيروراته. وما استعارة لغة دينية بحتة من مثل مفردة "الجحيم" واستعمالها في موضوع سياسي بحت، إلا دلالة دامغة على بؤس اللغة السياسية وقذارة ما يُطرح على أنه سياسة وسِلم.

3

هكذا، سُمح للرئيس ونظامه، كعصابة، باستخدام كل الوسائل لتدمير الأنا الثائرة المذكورة آنفاً بكل أنواع الأسلحة. في السياق ذاته يندرج نفاق الكلام المكرور المبتذل عن "العنف"، وعن ضرورة وقفه في سوريا. النفاق ليس مقصوراً على لاجدّية وقف العنف فحسب، بل يطال الوصف نفسه أيضاً. فما جرى على الأرض السورية ولايزال، ليس عنفاً، إنما حرب تدمير وإبادة شاملة وممنهجة لسوريا أرضاً وشعباً، تاريخاً وحضارة، على يد العصابة الأسدية الحاكمة وحلفائها الإقليميين والدوليين. بيد أن ما لم يفهمه نظام العصابة ومتزعّمو المجتمع الدولي، أن الثورة ذاتها تفسِّر الأنا الثائرة وتتضمّنها، تحتوي عليها وتبسطها. فالتضمن والتفسير، الاحتواء والبسط، نابعان من الثورة وفي الثورة، وهما تعبير عنها، والتعبير هنا ليس موضوع تعريف ولا برهنة، ولا يمكنه أن يكون كذلك. إن صفات الثورة تعبِّر عن الذات، ذات الثورة، وجوهر الثورة يعبِّر عن نفسه في تلك الصفات في وحدة كلية شاملة. فالثورة، من حيث هي ثورة شعبية، من صفاتها مشاركة طوائف وأديان وإثنيات متعددة، وأعمار وأجناس وطبقات وشرائح اجتماعية مختلفة فيها، كان هدفها واحداً، هو إسقاط النظام القائم، وبناء دولة ديموقراطية مدنية، وفي هذا تتسق الثورة السورية مع الثورات في بلدان "الربيع العربي" الذي وصفه بشار الأسد بـ"فقاعات صابون"!

إن كـان في الإمكـان البرهـان على أن مجمـوع زوايـا المثلث = قائمتين، فمن الواضح أن هذه القاعدة ليست كنبتة تنمو من تلقاء ذاتها، وحال الثورة أقرب ما تكون إلى حال النبتة. تالياً، فإن وجهـات النظـر المأخوذة من الخارج، أي خارج الثورة، لا يُعتدّ بهـا ولا تُعتـبر كـذلك موضـوعية وحياديـة. إذ ليس كـل مـا هـو خـارج الشـيء موضـوعياً بالنسبة إليه بالضرورة. ففي الثورة، الشيء هو الـذي يعبِّر عن نفسـه، ويفسِّـر نفسـه. الثـورة إذاً ليسـت موضـوع برهـان، بـل هي تصـنع البرهان وتجعل منه التجلّي المباشر للأنا الثائرة. هكذا يُستبعد كـل مـا ينتمي إلى التصوّر المغلوط عفواً أو قصداً لكل من هو خارج الثـورة. ويبدو أنه كلما زادت الأنا الثـائرة واقعيـة، زادت ضـرورة الاعـتراف لها بصفات، وكلما زاد الاعتراف للأنا الثائرة بصفات زادت ضرورة منحها الوجود. وعلى هذا استمرت الثـورة السـورية، عـبر استمرار إرادة الأنا الثائرة وصمودها وتحدّيها حتى تثبت نفسها وتؤكـدها أكـثر فأكثر. مـا من كلام معبِّر عمـا نـذهب إليـه هنـا، أوضـح من كلام ذلـك المحارب الذي ما انفكت إحدى القنوات الفضـائية تعيـد عـرض مشـهد يحمل فيه قنبلة فارغة ألقتها قوات النظام الأسدي، بعدما أنهت مهمتهـا التفجيريـة في الـبيوت والنـاس، قـائلاً: "إننـا صـامدون، إذا بترمينـا بنووي مو بهدول، بدنا نسقطك.. بدنا نسقطك".

الدال إذ ينصهر في مدلوله

1- ملح على جرح

تتذكر كاتبة هذه السطور جيداً، منذ سنين مضت، أنها مراراً سمعت الجدة تحذِّر من وضع "الملح على الجرح"، وتشكو ضيق العيش معبِّرة عن ذلك بعبارة "لقمة مغمَّسة بالدم". لم تكن تلك التعبيرات خاصة بالجدة وحدها، إذ هي لغة شعبية عكست ثقافة وروحاً ضاقت ذرعاً بواقع الفقر والعوز والحرمان، والظلم والقهر. في أحد الفيديوات المسرَّبة لـ"شبّيحة" صوَّروها لأنفسهم وهم يمارسون ساديتهم المنفلتة من كل عقال، يظهر "شبيح" وهو يعذِّب أحد المدنيين عبر وضع كمية من الملح على جرح في ظهره. كان الشاب ممدَّداً على بطنه، مقيَّد اليدين، معصوب العينين، وحوله مخلوقات خاوية المعنى مسمّاة "شبيحة"، تقاسمت أدوار التعذيب بعناية، تولّى أحدها مهمة وضع الملح على الجرح. جرح عميق كان ينزف دماً، وينزّ قيحاً وأشياء أخرى في وسط الظهر، وراح "الشبّيح" يفرك الملح ذهاباً وإياباً على جرح الشاب. كلاهما كان صامتاً، ووحدها لغة الملح والجرح كانت حاضرة تملأ المكان بضجيج الأنين والألم.

ما كنّا نعطي بالنا لحكمة الجدّات يوم كنَّ يحذّرننا من وضع الملح على الجرح، ظناً منا أنها لعبة لغة ليس إلا. اليوم، ما علينا إلا أن ننتبه جيداً إلى ذلك المصير اللغوي المحتوم. فنحن في عمق حرب منحلَّة في لغة، مثلما نحن في عمق لغة منحلَّة في حرب. إننا أمام "انصهار لغوي" كان مجرد كتلة ذهنية صهرتها نيران العصابة الأسدية الحاكمة. فالعلاقة بين الدال والمدلول هنا اختفت لينصهر كلٌّ منهما في الآخر، فيصير الدال والمدلول واحداً. فنكتشف أن ما اعتقدناه كلاماً نظرياً غير قابل للتحقق واقعاً كان وهماً. وأن أسرار الملح وألغازه لا تُكتشف عبر اللسان وحده، إذ للجرح أيضاً، على ما يبدو، شأن مهم في الكشف ذاته

2- لقمة مغمّسة بالدم

مرة أخرى، تصدمنا اللغة كدال وقد انصهر في مدلوله. واستحال حدثاً واقعياً صرفاً، مغادراً عالم اللغة الصرفة. إذ "اللقمة المغمَّسة بالدم" التي طالما اعتبرناها مجرد مبالغة لغوية توصِّف حال الشقاء وضيق العيش والإنهاك اليومي، استحالت واقعاً صرفاً في بستان القصر بحلب، وفي حلفايا بحماة، وفي تلبيسة بحمص، وفي الحجر الأسود بدمشق، وفي البصيرة بدير الزور، وفي الزبداني بريف دمشق. ففي كل تلك المناطق وغيرها، كان هناك فرن ارتسم أمامه

طابور- من أطفال ونساء وشباب ومسنّين تم قصفه. في غمرة انتظار الخبز، رمى الطاغية حقده قنابل وبراميل ومتفجرات، فتناثروا قطعاً وأشلاء، أما أرغفة الخبز، فقد تغمَّست بالدم! مَنْ مات من أولئك، مات، ولكن مَنْ ظلّ منهم حيّاً يتضوّر- جوعاً، لم يعد أمامه ربما سوى التقاط رغيف الخبز المضمَّخ بدم مَن كان للتو حياً يحمل في يده أرغفته. كخيار أخير موجِع، قد يلتقط الحي رغيف الميت المغمّس بدمه، ويلتهمه إسكاتاً لصيحات المعدة الخاوية، وأملاً في استمرار- الحياة والثورة، وإعلاء لصيحات الحرية.

3- "ما حدا بموت من الجوع"؟!

لكن الطفلة رنا عبيد ماتت جوعاً يوم 23 أيلول 2013 في مدينة معضمية الشام بدمشق، شأنها شأن آخرين لقوا المصير- ذاته في المستشفيات الميدانية بحسب مصادر- طبية من داخل المدينة. تحدثت المصادر- نفسها عن أطفال يعانون الوهن والهزال، وعن ناس يأكلون أوراق الشجر، وعن عمليات جراحية تُجرى بطرائق بدائية جداً بسبب انعدام اللوازم الطبية والأدوية نتيجة الحصار- المفروض على المدينة منذ أشهر طويلة جداً، حيث يمنع نظام الممانعة دخول المواد الغذائية والدوائية وكل ما من شأنه استمرار- الحياة. معضمية الشام شأنها في الحصار، شأن الغوطة الغربية كلها، مثل داريا، وشأن

الغوطة الشرقية، وشأن الأحياء الجنوبية للعاصمة وبلداتها، مثل مخيم اليرموك، القدم، العسالي، الحجر الأسود، عقربا، السيدة زينب، البويضة، يلدا، ببيلا، بيت سحم، الذيابية، الحسينية، حجيرة البلد، وسبينة وغيرها.

يتحدث الناشطون في المناطق المحاصرة تلك، عن تفاصيل كثيرة موجعة، منها: قيام عناصر النظام بضرب النساء على الحواجز ونزع المواد الغذائية منهن وإلقائها على الأرض ودعس أرغفة الخبز بأرجلهم. يحصل أحياناً أن يُعتقل مَن يُكتشف في حوزته خبز أو يُعدم ميدانياً على الحاجز! لكن ما هو أشد توحشاً من ذلك، كان في اليوم الحادي عشر من الشهر الجاري، عندما اقتحمت الذيابية، ميليشيات "حزب الله" ولواء "أبو الفضل العباس" الطائفية الإرهابية، بمساعدة النظام الطائفي الإرهابي الذي استمر في القصف، وارتكبوا فيها مجزرة راح ضحيتها العشرات، قضوا إما رمياً بالرصاص وإما ذبحاً بالسكاكين، إضافة إلى اعتقال الكثيرين بينهم نساء وأطفال، وإحراق البيوت ونهب الممتلكات. حصل الاقتحام بعد أشهر طويلة جداً فتك خلالها الجوع بأهالي المنطقة المحاصرة. ثمة كلام صادم، تم تداوله لأحد الناجين من المجزرة، يقول: "كنّا ندوس على جثث أبنائنا وأقاربنا وجيراننا بينما كنا نحاول الهرب من الذيابية". يُذكر أن الذيابية كانت من أولى المناطق التي انتفضت ضد النظام وشاركت في التظاهرات وحطمت صنم حافظ الأسد.

إذاً: "ما حدا بموت من الجوع"، مقولة تنتمي إلى المقولات التي طالما ظنناها لعبة لغة ليس إلا، أو دالاً لا يمكن أن يستحيل إلى مدلوله، بدَّدتها الحرب التي صهرت فيها العصابة الحاكمة اللغة الصلبة المتكتلة، في المعنى، فتلاشت العلاقة بين الدال والمدلول، وانصهر أحدهما في الآخر، ليظهر بوضوح أننا في عمق حرب منحلَّة في لغة، مثلما نحن أمام لغة منحلّة في حرب. إننا في مواجهة ذاك المصير اللغوي المحتوم!

4- تقبيل البوط العسكريّ

إن ظاهرة تقبيل البوط العسكري، لدى بعض مؤيدي الأسد ونظامه، داخل سوريا وخارجها، في الميدان وعلى الشاشات، فضلاً عن وضعه على الرأس، وإقامة نُصُبٍ تذكاريّة له، على إثر اندلاع ثورة ضد العسكر والحكم العسكري في المقام الأول، وتحطيم أصنام الديكتاتور العسكري حافظ الأسد، في مدن وبلدات سورية مختلفة؛ إن الظاهرة تلك، لُأمر مثير للذهول، مستفزّ ومحرّض على السؤال والدرس والبحث في شأنه. البحث السيكولوجيّ على سبيل التخصيص.

في القُبلة، بالنسبة إلى المشتغلين في التحليل النفسي، هناك حنينٌ إلى الماضي. عندما يكبر الشخص، بالنسبة إلى فرويد مثلاً، وهو مؤسس التحليل النفسي، يروحُ يحنّ إلى ماضٍ كان يمصّ فيه حلمة

ثدي الأم حين كان وليداً، فيحوّل المصّ إلى تقبيل. يبدو هنا أن ثمة حنيناً ربما لدى المؤيد، إلى ماضٍ كان الحكم العسكري فيه مهيمناً بالمطلق، وكان الحكم هذا مرموزاً إليه بالبوط العسكري، بالنسبة إلى المؤيد، هو السبيل الأوحد لتأمين الغذاء والحياة على غرار ثدي الأم بالنسبة إلى الوليد. كم هي كثيرة القصص التي قرأناها أو سمعناها، تروي كيف أن هذا الشخص أو ذاك مات وهو يُرفَس ببوط عسكري في المعتقَل، بالتزامن وصياح مفاده: «تعادون الرئيس! وَلَكْ الرئيس هوّي اللّي شبّعْنا(كن) الخبز».(هناك مثال مرعب في هذا الخصوص، يرويه وتفاصيل أخرى، بلغة وأسلوب مؤلمَين مشلِّعَين، مصطفى خليفة في روايته «القوقعة»). يزعجني أن أعمدَ إلى المقاربة السيكولوجية هذه، لما فيها من «خلط» ربما، بين قمة الجمال وحضيض القبح، غير أنّ للضرورة السيكولوجية، أحكاماً قد يلوي «إزعاجَها» الآتي: يُحكى أن الشعراء الإغريق كانوا يسمّون القُبلة «مفتاح الجنّة». ترى ماذا يمكن أن تُسمّى قُبلة البوط العسكري؟ لا شكّ أنها كما اعتقدَ الصينيون، أن القُبلة عموماً، «عمل وحشيّ يذكّر بآكلي لحوم البشر». قد تكون المقاربة هذه، أكثر ملاءمة لفعل تقبيل البوط العسكريّ، على مستوى الشكل، فهي تنأى بالأم وثديها ووليدها عن قبحٍ من هذا الطراز. هنا أيضاً ثمة تقهقر، في فعل تقبيل البوط العسكري. ثمة رغبة في عَودٍ إلى ماضٍ غابر كان اللحم البشريّ فيه يؤكَل. ترى هل ما جرى ولايزال في «سوريا الأسد وداعش»،

واشتقاقاتهما محلّياً وإقليمياً ودولياً، بعيداً من الإرث البشري الرهيب هذا؟!

من منظور سياسيّ آنيّ، قد يشير تقبيل البوط العسكري، إلى الانحياز التام إلى حُكم العسكر، في قبالة حكم المتشددين دينياً. تالياً، محاولة كسب الرأي العام في هذا الخصوص، على الرغم من أن الرأي العام هنا يصعب كسبه، إذ تقبيل الأرجُل، على سبيل التبسيط، غير مقبول في الثقافة العامة، ومثير للاشمئزاز، فما بالك بتقبيل البوط؟!.

إن فعل تقبيل البوط العسكري، يقتل جلّ المعاني الإنسانية في ذاتها: الصداقة. العشق. الأمومة. الأبوة. البنوة. الأخوة. الجيرة. الحب. المصالحة بعد خصومة...إلى آخر ما هنالك من روابط إنسانية وعائلية حميمة، يرتبط كلٌّ منها بشكل معيّن من أشكال القُبلات. لماذا تقتل؟ لأن «الشفاه العاقلة. المُحِبة. العاشقة» لا تنحدر إلى مستوى تقبيل ما هو خاوٍ من الروح، من النبض، قد يوازي في ما ينطوي عليه من «عبودية مختارة» وغير مختارة، من تشوّه عميق في الذات المازوشية الممهورة بالتوتر والقلق والخوف، ممارسةَ الفرد الإنساني، الجنس مع حيوان!.

يحتاج التقبيل لكي يحقق الغاية الأنطولوجية منه، إلى عوامل تمنحه خصوصية جمالية وأخلاقية، من مثل: النظافة. الارتياح. الثقة

بالآخر. الشّمّ. الصحة والسلامة، وغيرها. فهل هذا كلّه متوفر في علاقة التقبيل مع البوط؟! كنّا في السابق، حين نسمع رجاءً من قبيل: «بوسلك صرمايتك، بس كذا أو كذا»، نظنّه مجرّد لعبة لُغوية ليس إلا، أو دالاً يستحيل أن يصير مدلولاً. أمّا وقد شاهدنا بأُمّ الأعين كيف أنّ الأحذيةَ تُقبَّل؛ فإننا نكون قد صرنا في زمن انصهار الدال في المدلول، بامتياز!.

على النقيض من مَشاهد الركوع للطاغية، وتقبيل البوط العسكري، تبدو مشاهد كثيرة، صُوِّر فيها الثائرون وهم راكعون يقبّلون الأرض بعد انتصار ما على هذه الأرض السوريّة أو تلك، مقبولة ومستحبّة، مادامت الشفاه هنا في حِلٍّ من ملامسة روح «الأرض الأم». التقبيل هنا، يصبح بمثابة صلاة، عناق روحي من شأنه تكريم الأرض، والإنسان بوصفه معمِّرها لا مدمِّرها.

المبحث الثاني

في علاقة الثورة السورية ببعض الثيمات

كانت ثورات"ربيع الشعوب" في أوروبا عام 1848، قد تأجَّجت لإلغاء الرّق نهائياً؛ وما اشتعال"الربيع العربي" عام2011، إلا طموح وجموح من أجل إطفاء جذوة الاستبداد نهائياً، فمثل دفقِ الحياة في ربيع ثائر، أعلنت شعوب هذه المنطقة من العالم مواصلتها النضال الإنساني ضد العبودية في أشكالها كافة. اندلعت الثورة السورية كأي واحدة من ثورات الربيع نفسه، إذ لم يعش السوريون على مرّ عقود طويلة حياة شعب حقيقيّ، بل جُعِلوا دوماً كتلة سديميَّة مهمَّشة، بل مغيَّبة ومستعبَدة. ويمكن القول إن السوري عاش عقوداً تقارب حال "العبودية التعايشية" وتحاكيها. وهذه تأسّست قبل الفكر الحضاري والتشريعات والقوانين بملايين السنين، تقوم على قاعدة طبيعيّة وحاجاتيّة وغريزيّة تضع السيد والعبد أمام علاقة تبادليّة. في "كتاب في الواجبات" كتب شيشرون يقول: "نطلب منهم الخدمة لنؤمّن لهم الضروري"ـ ما يعني أن الجوع هو الذي يدفع العبد إلى خدمة سيده، وبما أن الجوع يزوّد بالخدم، انتقلت البشرية من "قانون" قتل الإنسان والتهامه إلى أَسْرِه واستعباده. يقف العقل في هذا العصر حائراً مندهشاً أمام استمرار حال العبودية تلك!. استمرارـ متوارٍ خلف قوانين وتشريعات زائفة؛ فسوريا حُكِمَت عقوداً طويلة بذاك النزوع الغريزي إلى السيطرة. نزوع ممعن في سياسة التجويع والتركيع. ولم تكن حياة المرء فيها إلا حياة عبد يحكمه سيد مطلق ومالك أوحد

ونهائي للدولة والشعب. من هنا ربما يمكن استيعاب لماذا عُوقِبَ الشعب السوري الثائر بأشد وأقسى أنواع العقاب، إذ لماذا، وكيف لعبدٍ أن يتمرّد على سيده؟!

فلمّا كان الرقيق في الهند قديماً يُعاقب بأقصى أنواع العقاب إذا أخطأ أقل خطأ بحق سيده، ومن هذه العقوبات انتزاع الألسن وصبّ الزيت المغلي في الأفواه أو دسّ الخناجر المحمية فيها؛ فإن السيد الأسدي في سوريا الثورة، ثورة الحرية والكرامة، عاقب المحتجِّين ضده وضد نظامه الجائر، بالرقص وبالغناء والكلمة الثائرة، عاقبهم بانتزاع الحناجر. لعل المثال الأبرز على ذلك، كان المغنِّي الثائر (ابراهيم القاشوش[9]) الذي هزَّ أركان الطاغية بأغنية شكَّلت علامة فارقة. إنها أغنية "يلاّ إرحل يا بشار" التي كان ثمنها استئصال حنجرته، ثم رميه في نهر العاصي جثة هامدة. عقاب السيِّد طال أجساد الأطفال أيضاً، ليس قتلاً فقط، وليس اعتداء جنسيّاً فقط، بل بتراً للأعضاء التناسليَّة أيضاً، الطفل(حمزة الخطيب[10]) مثال على ذلك. ناهيك بانتزاع الأظافر، كالذي تعرَّضت له مجموعة من الأطفال

---

9 ابراهيم القاشوش (1977– 2011): شاب من مدينة حماة، نشط إبان التظاهرات الشعبيَّة السلميّة، في قيادة التظاهرات، وتأليف الشعارات المناوئة للنظام ورئيسه بشار الأسد وشقيقه ماهر وحزب البعث، وإنشادها أمام المتظاهرين في ساحة العاصي. لُقِّب بـ"بلبل الثورة".

10 حمزة الخطيب (1997-2011): طفل من بلدة "الجيزة" في محافظة درعا بجنوب سوريا. تم اعتقاله عند حاجز للأمن، قرب مساكن صيدا في 29نيسان/أبريل 2011. عندما كان قادماً مع عدد كبير من المتظاهرين إلى درعا المدينة من أجل فكّ الحصار عنها. بعد مدة تم تسليم جثته إلى أهله، وبدت عليها آثار التعذيب الوحشيّ والرصاص الذي تعرّض إليه، حيث تلقّى رصاصة في ذراعه اليمنى وأخرى في ذراعه اليسرى وثالثة في صدره وكُسرت رقبته، ومُثّل بجثته، وقُطع عضوه التناسلي.

في درعا(مهد الثورة السورية)، كتبوا على جدران مدرستهم عبارات الحرية، فاعتُقِلوا وعُذِّبوا، وانتُزعَت أظفارهم، وكانوا بذلك شرارة ساهمت في إشعال الثورة[11].

وحيث إن الرقيق كان عند الرومان متعة مملوكة، يحقّ لسيده معاقبته بالسّحل تحت حجر الرّحى؛ فإن السوري الثائر، قد سُحِل تحت دبابة السيد الأسدي، وما جرى حين اقتحم جيشه مدينة حماة في شهر رمضان/آب لعام 2011 مثال على ذلك. وما السياسة التي اعتمدها الرومان في قمع ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس التي وصفها التاريخ بـ"أم الثورات الإنسانية" حيث صُلب العبيد المقبوض عليهم، وتُركت أجسادهم متعفّنة أشهر عدة، تطميناً لأشراف روما وإرهاباً لجميع العبيد؛ ما تلك السياسية إلا واحدة من سياسات السيد الأسدي في قمع الثورة السورية ضد استبداده واستعباده "المتطوِّر والحديث"، حيث الترويع الممنهج لإرهاب كل من يفكِّر مجرد التفكير في أن يطالب بالحد الأدنى من الحقوق. والتمثيل بجثث المحتجِّين من مثل: قطع الرؤوس وبتر الأطراف وغيره مثال واحد على ذلك.

بيد أن وضع المؤيِّد للسيِّد، لم يكن أفضل حالاً من وضع الثائر عليه، فكلاهما في نظره مجرَّد عبدَيْن عليهما الموالاة والطاعة

---

11 **سنتحدث بشيء من التفصيل عن هؤلاء الأطفال، أسماؤهم مثلاً وغير ذلك في المبحث الثالث، موضوع "15آذار18آذار".**

المطلقة. فلمّا كان صحيحاً أن السيِّد الأسدي لم يحترم حرية مَن خـرج متظاهراً ضده، فالصحيح أيضاً أنه لا يحترم مَن خرج، أو أُجبِـر على الخروج في مسيرات مؤيِّدة له. فالمؤيِّد ليس إلا أداة من أدوات الزينـة تُستخدّم في تعظيمه كسيِّد أعظم، ووارث البلاد والعبـاد عن أبيـه. من المعلوم أن الرقيق عند الفراعنة كان أيضاً علامة من علامات العظَمة أو الزينة لقصور الملوك وبيوت الكهّان والأسياد.

****

يُرجَّحُ أن إنسان نياندرتال، قد انقرض منذ خمسين ألف سنة. كان يسكن الكهوف، ويستعمل النار بعد أن هاجم البرد والصقيع الأرض، وكـانت أدواتـه من الأخشـاب والحجـارة. لكن العمـل أدخـل الإنسـان البدائي في علاقة تأثير متبادل مع الطبيعة، فيه امتلك قوة الهدم والبناء في الطبيعة وفي ذاته معاً، وبذلك، حوّل الطبيعـة من حالتهـا الوحشـية إلى حالتهـا المؤنسَـنة، وانتقـل هـو من الطـور الحيـواني إلى الطـور الإنسـاني، من مستوى الانفعـال بقـوى الطبيعـة العميـاء إلى مستوى الفعل فيها، فخلق الحضارة. المفارَقة هنا، أن التاريخ مـع الأسـد الابن "قائـد مسيرة التطـوير والتحـديث"، قـد تقـدَّم إلى الـوراء! فلمـا كـان البـدائي قـد انتقـل بفعـل التطـور والعمـل من طـور العيش في الكهـف والترحال، إلى الاستقرار والزراعـة والعيش في الكـوخ (البيت)، مـا أدى إلى تحوُّل عام في نمط الحياة، تحولت معـه الرهـوط الاجتماعيـة

المتنقلة المفكَّكة التي تحيا حياة مضطربة، إلى جماعات مستقرة هجرت البحث الفردي عن الغذاء واعتمدت على الاقتصاد التعاوني؛ فإن السوريين بعد عقد من انطلاقة القرن الحادي والعشرين الميلادي، قد اتخذوا من الكهوف في سفوح الجبال ملجأ. حصل ذلك في ريف محافظة إدلب – مثلاً- بشمال البلاد، هرباً من قصف "الدكتور" الديكتاتور لبيوتهم، فصار هاجسهم الأساس الحصول على الغذاء اليومي أولاً، والمحافظة على الحياة والاستمرار فيها تالياً، عبر أدوات بدائية مثل: الحطب والخشب والحجارة، فصارت حياتهم تشبه طبيعة الحياة الوحشية التي فرضت على البدائي أن ينشط من أجل الحياة. الفارق بين البدائي والسوري "المعاصِر"- في سكنى الكهوف، ربما يكمن في أن الأول كان يصوِّر- على جدران كهفه رسوماً لحيوانات مفترِسة، كانت ربما بنت المصادفة والتسلية العابثة اللاواعية. فيما الثاني، قد يصوِّر- على جدران كهفه رسوما لسكاكين ذبح، وطائرات ودبابات ومدافع "مفترِسة"، مع معرفته حق المعرفة أن رسومه ليست بنت المصادفة أو التسلية، وأنه في داخل الكهف نفسه، ثمة تحوُّل جذري في كيانه الروحي يتأمل المستقبل والحياة المُقبِلة. إذ العودة إلى البدائية هنا، ربما من شأنها أن تساهم في جعل السوري خالقاً نفسه ومحيطه من جديد، بعد أن كان مخلوقاً مدجَّناً.

****

بما أن التضايف يحكم منطقيّاً العلاقة بين السيد والعبد، إذ لا يُفهم وجود أحدهما إلا من خلال وجود الآخر؛ فإن ما يطبع هذه العلاقة هو غياب الإنسان في حدّيها؛ فلا الكمال المطلق (السيد)، ولا النقص المطلق (العبد) ينطويان على الإنسان من حيث هو كائن ناقص مفتوح على ارتقاء لا متناه، ومن حيث هو وجود معنوي وحر مختار في هذا العالم. هكذا يسقط الوهم الذي يصوّر السيّد على أنه وجود حر؛ لأن الحر هو من يقيم علاقة ندِّيّة مع آخر هو حر أيضاً، أما السيد فهو من يستمد وجوده من العبد، وإذا ما غاب العبد غاب السيّد تلقائيّاً. وبما أن خلوّ العلاقة بين السيد والعبد من الإنسان قد يشكل المحرِّض الأهم للانعتاق منها؛ فإن انتفاض السوري توقاً وشوقاً إلى الإنسان، يعني اندثار سيده تلقائيّاً.

إن انعتاق السوري، قد يعني أولاً هدم بنيان قمعيّ زَجْرِيّ، وبنية "تفكير" أمنيّة/ استخباراتية، تمييزيّة، متعجرفة، متعالية، وإقصائيّة أفسدت المجتمع وخرّبت الإنسان السوري، والبدء تالياً في بناء دولة، يحكمها القانون لا غريزة السيطرة، وتنتعش فيها مؤسسات تُعلي من شأن الإنسان، من حيث اعتراف الجميع بالجميع على قاعدة المواطَنة.

الثورة والحرية

هل الحريّة مطلبُ الثورة أم روحُها؟. يبدو أن هذا السؤال ليس إلا واحداً من جملة أسئلة وعِرة وشائِكة تنبثق عن ثورة كالثورة التونسية أو المصرية أو اليمنيّة أو الليبيّة أو السورية..؛ ويبدو أننا نحتاج، للإجابة عنه، إلى استيعاب كل واحدة من هذه الثورات بصفتها ثورة اندلعت في مُناخ "ربيع عربي"، تجلّت فيه الحرية لدى الشعوب الثائرة ممارسة أو فعلاً خلاقاً. فعلٌ انعتق، إلى حدٍّ كبير، من ربقة الأحكام المسبقة، وربما خلا من شوائب الأيديولوجيا وبراثن التفكير المغلق، كونه فعلاً لم تقده قوى أو أحزاب وجِهات منظَّمة؛ ما جعل الثورات تتميّز بعفوية صادقة، وقد تكون هذه العفوية هي نفسها الحرية، بعدما غادرت عالم المفارَقة اللامنظور. ثم انبثقت فعلاً منظوراً له كثافة الواقع. إذ الحرية، في أصلها خفّة؛ وهي حين تصير "فعلاً" يمنحها الفعل نوعاً من الثقل، يمكّنها من التحريك والتأثير، على الأرض، من خلال الفاعلية الإنسانية، الفرديّة والجَمعيّة.

على الأرض السورية، التي شكّلتنا، وما فتئت تفعل ذلك، ما كان ليقوم للثورة قوام لو لم تكن الحرية قوامها ومبدأها، فهي داخلية، مباطِنة للثورة ومحايثة لها، مثلما هي استعداد دائم، ثابت، متوافق مع ذاته، ويُعلي من امتياز الإنسان. الحرية هنا ليست مشتقّة من نزوع يطلقه تصوُّر، وليست موضوعاً خارجيّاً تشرئبّ إليه الثورة؛ بل هي

ذلك الجوهر الذي منه تستمدُّ الثورة وجودها وقيمتها، من حيث هي، أي الحرية، الدَّافع الدّفين لتعلّق السوريّ بذاته الثائرة، ومن حيث هي منبع شجاعته، واستعداد داخليّ يحضّ على فعل خارجيّ هو غاية لن تتجسّد إلا في موقف داخليّ للإرادة؛ مادامت الحرية لا تبارح، حتى في مبدئها، مجال الإنسان الفاعل، ولا تنشدُ أيّ خير خارج نطاق الاستعداد الإراديّ، ومادام الثائر السوريّ قد أسلس قياده لجموحها الذي لا كابح له. ما يعني أخيراً ردم الهوّة بين الحياة التأمّلية والحياة العمليّة، ليُستنتَج أن الحرية لا يمكن أن تكون ترَفاً.

****

إضافة إلى ذلك، الحرية في الثورة السورية ليست استدلالاً مجرّداً وجافاً، ولا شأن لها بالمصطلحات والشعارات الزائفة، وهي لا تتّسم حتى بذلك الاطِّراد، والتدرّج أو المرحليّة، بل تبدو كأنها انبثاق. انبثاق يندفع كسيل جارف، وتبدو قوّتها الحقيقيّة في انسيابيّتها غير الطّامحة لا للإقناع ولا للإفحام، كونها تندفع اندفاعاً يلجم كلّ تعثّر أو توقّف أو تمهّل، ويجرف عنوة كل ما من شأنه إعاقة المضيّ قدُماً، كما يردع الفكر عن الشّرود خارج الثورة. هكذا؛ تنجلي حقيقة "الحرية في الثورة"، لا من حيث كونها جزءاً من كل؛ بل من حيث هي كلّ يتوزّع على الكلّ وفي الكل، وتدخل في بنية الثورة ومنظومتها وتتحكّم في العلاقات بين عناصر هذه المنظومة وتنظّم ذاتها بذاتها. مثلما تنجلي أيضاً حقيقة "الثورة في الحرية" من حيث هي وحدة مُثلى،

مستكفية بذاتها وكليّة القدرة. وعلى هذا؛ فإنّ الاعتقاد بأنّ الحريــة مطلب للثورة، اعتقاد واهِم وباطل.

****

أن تكـون الحريــة مبـدأ داخليـاً، لا غايــة خارجيــة أو مطلبــاً موضـوعياً؛ يعـني أن هـذا المبـدأ يحـرِّر المـرء من التبعيّـة للمواقـف والظـروف الخارجيّـة المتقلّبـة، الـتي قـد تـؤثِّر سـلباً على معنويّاتـه وعزيمتـه. كـان في مقـدور الظّـروف والمواقـف المحلّيـة والإقليميّـة والدوليّــة العصــيبة والمتواطِئــة والرَّاغبــة في إجهــاض ثــورة الديموقراطية في سوريا، أن تنال من عزيمة الثائرين والثائرات لـو لم تكن الحرية مبـدأ ثـورتهم؛ لـذا لم يكن في مكنـة الرَّذيلـة والضَّـلال أن يشقّا لنفسيْهما منفذاً إليها طالما أنها داخليّة ومباطِنة للثورة. ولئن كانت الثـورة والحريـة متمـاهيتيْن؛ فقـد تـوفّرت كـلّ الأسـباب الـتي تحـرِّر المخيّلـة وتمرّنهـا، وبهـذا الضَّـرب من مـران المخيِّلـة الـتي غُـذِّيَت بهواجس النَّصر، اصطنع الثائر السوريّ لنفسه أفراحاً مستديمة جعلته يصـبر على مآسـي الـرَّاهن. في المقابـل، فـإنَّ التـوجّس من الآلام أو الخوف والرّعب أصبح المحرِّض الأسـاس لإشـعال مخيّلـة من شـأنها تعميق الشّعور بالنَّصـر. إنـه الشـعور بالوضـوح وبالرّضـى الـرّوحي المصاحِب لحدس روحيّ متبصِّر حثّ الثوار في سوريا على مواصلة النِّضال والمقاوَمة ضدَّ آلة القتـل الهمجيّـة المتوحِّشـة؛ وبـذلك لا يعـود الموت أعظم الشُّرور؛ بل يغـدو، من حيث يـدري الثـائر أو لا يـدري،

جسراً يعبر من خلاله إلى الحياة الفذّة. فالحرية هنا مثل إيمان يقينيّ على أساسه نهضت الثورة السورية، بعد أن خلع الثوّار قيمة مطلقة على كلّ ما يربط وشائج الفرد بالحرية وجعلوا من هذه الرَّابطة شرطاً لا غنى عنه للثورة.

****

عبر انحلالها في الحرية، أفسحت الثورة السورية المجال لتفجير الطّاقات الشعبيّة، وجعلت من السَّاحات والشوارع مسرحاً لحشود ثوّار يمارسون طقوس الحرية. فبعد كل مأساة تنقبض فيها الأنفس الحرّة في الحزن؛ يعود الغارقون في تعاسة تامّة لتنبسط أنفسهم فرحاً على قرع الطّبول وإنشاد الفرح في تحدٍّ صارخ لذوي الأنفس المتصدِّعة والعاجزة عن مكابدة الحرية. وفي حين نرى أن كل ما هو خارج الثورة قد اتّخذ طابع التشاؤم والوهن المتاخِم للامبالاة؛ بدا الثائر السوريّ كأن جسمه أصبح عصيّاً على أوصاب تهتصره، ونفسه لا يبلبلها تعاطف هشّ ورخو، والقدَر لا يمكن له أن يبدّد آماله أو يبيدها، فحتى نوائب القدَر تبدو كأنها متحدّاة من جانبه. وقد اتّشحت الثورة بغزير الصّور عن البطولات والشجاعة. يبدو أن "الانفعال" الثوريّ النَّاجم عن انقباض النّفس في الحزن وانبساطها في الفرح هو "عقل"، وحُكم، إن شئنا استعمال لغة الفيلسوف الرّواقي كريزيبوس، لكنه "عقل لا عقليّ"، متمرِّد على العقل. أي أنّ "الانفعال" الثوريّ

هنـا هـو "عقـل" جديـد أساسـه الحريـة، يتمـرِّد على"عقـل" قـديم، أمنيّ/سلطويّ، مُحَمَّل بمنطق الفساد والاستبداد والاستعباد.

****

ثمة نقطة حقيقة منّا بالإلحاح، فلما كانت الحرية تتأدّى، بحكم طابعها المرن والحيويّ، إلى نفي كل ما يناقضها من قمع وعنف وتصلّب وتشدّد؛ فإنك على خطأ عظيم من أمرك حين تقول: إن الحرية مطلب الثوّار، أو كما درج في وسائل الإعلام مثلاً، حين يُقال: "خرج المتظاهرون يطالبون بالحرية وبإسقاط النظام". فإذا كان صحيحاً وصف إسقاط النظام بالمطلب، هل يصحّ الوصف نفسه في شأن الحرية؟ وكيف يمكن للحرية أن تُطلب ممَن اندلعت الثورة ضدّه، ومَن يختزن في داخله كلّ نقائض الحرية؟! هذا من جهة. ولمّا كانت سوريا - من جهة أخرى- قد حُكِمت بعلاقة "سيّد وعبد[12]" منذ زمن بعيد؛ فإنه لا يصحّ منطقيّاً، وتاريخيّاً، وواقعيّاً أن تُطلب الحرية من أسياد حكموا البلاد والعباد بالحديد والنار (عائلة الأسد). عدا ذلك، فالسيِّد والعبد كلاهما يستقي وجوده من وجود الآخر، وحين يختفي أحد طرفيّ هذه الثنائيّة، يختفي الطرف الآخر تلقائيّاً لأن العلاقة التي تجمعهما هي علاقة تضايُف، إذ لا يُفهم أحدهما إلا من خلال الآخر. لذا يجدر بالعبد (الشعب السوري) وقد وعى عبوديّته أن يثور على

12 يمكن في هذا الصدد مراجعة موضوع "الثورة والعبودية".

سيّده لا أن يطلب منه حرية غير موجودة لديه أصلاً. ثم إن الحريـة لا تُعطى ولا توهَب منّةً من أحد لأنها نسغ الحياة الإنسانية، وبمـا أنهـا لا تُعطى؛ فإنـــه لا يمكن طلبهـــا كموضـــوع خـــارجيّ يـــدلف على الإنسان/الفرد من خارج وجوده. الحرية إذاً: روح الثورة لا مطلبها.

الثورة والجسد

يصل بنا الأمر إلى أننا لا نعرف ما يستطيعه الجسد؛ إننا نتكلم عن الوعي، عن الروح، نثرثر حول ذلك كله، غير أننا لا نعرف علامَ يقدر الجسد، أي قوى هي قواه وماذا تهيئ؟

(سبينوزا)

كان إقدام محمد البوعزيزي على إضرام النار في جسده احتجاجاً على واقع ظالم ومشوَّه؛ مفارَقة شكَّلت منعطفاً تاريخيّاً أسّه احتراق جسد، فاحتراق الجسد كان الممر الذي تسلَّلت عبره روح البوعزيزي لتحلّ في أجساد أخرى؛ بعدما تواترت هذه الروح التي أطلقت عنان التمرّد لنفسها من شخصٍ فرد إلى أمّة؛ ومن بلد عربي (تونس) إلى بلدان عربية أخرى، مُعلِنة رفض واقع الاستبداد والاستعباد، مكلّلة بحُلمٍ طالما طال انتظار تحقّقه. إنه الحُلم بـ"مدينة الديموقراطيّة". ولا غرو، مادام الجسد المشتعل كان أسّ "الربيع العربي"؛ أن يكون تعنيف الجسد والتعذيب حتى الموت، شرارة أجَّجت الثورة في مصر بتاريخ 25 يناير 2011، فوفاة الشاب(خالد سعيد[13]) تحت التعذيب على أيدي رجال الأمن، أثارت سخطاً عارماً

13 **خالد سعيد (1982-2010): شاب مصري توفي تحت التعذيب. فبعدما رفض أسلوب التفتيش الذي اتّبعه رجال الأمن والاستخبارات وترهيبهم الناس، حين اقتحموا محل إنترنت عام كان موجوداً فيه، قاموا بضربه حتى الموت، هذا ما روته أخت الشاب (زهرة سعيد). لُقِّب الشاب بعد موته بـ" شهيد الطوارىء، وضحية التعذيب، وشهيد الاسكندرية". كان موته شرارة، حشدت الشباب في مصر ودفعتهم للخروج إلى الشوارع احتجاجاً على ظلم الأجهزة**

دفع الشباب للخروج إلى الشوارع محتجّين غاضبين. ولاغرو، أن يكون الجسد الطريّ الذي ذاق مرارة الآلام والعذابات، شرارة فجَّرت الثورة السورية أيضاً، والمقصود هنا مجموعة من الأطفال في درعا بجنوب سوريا. وإذ نتفكَّر مليّاً في الثورة السورية، نجدنا مرغَمين على مشاركة سبينوزا في سؤاله حول مقدرات الجسد، وقواه، وما يُتوقع منه، وما قد ينجم عنه، بالاستهجان نفسه! مادام الجسد قد حضر في الثورة السورية حضوراً صاخباً قلّ نظيره في التاريخ. إذ الثورة مخضَّبة بالدماء والأشلاء. وقد انتُهك فيها الجسد الإنساني على نحو يرهق الضمير الإنساني الحي ويعذِّبه.

****

لكن على الرغم من رعب المأساة وهولها، فقد عمّدت حضور الجسد في الثورة السورية، صورة أخرى للجسد، بدت كأنها تتحدَّى صورته السابقة، وقد حضرت في الثورة بقوة موازية لصورة الجسد المعذّب، المعنّف، المقتحَم، المقتول، والممثَّل به. تجلّت الصورة الأخرى للجسد في الرقص والديناميّة، دفعت المرء إلى الشعور بأنه أمام تراجيديا، جزء منها مأسويّ، يفنى في نهايته الجسد الثائر، لكنه يعود إلى الحياة من جديد في جزء آخر يمثِّل نوعاً من تحدٍّ صارخ لفنائه. ما يعني أن الثورة هي ثورة جسد على جسد، مثلما هي ثورة

الأمنية والتعسُّف وانتهاك حقوق الإنسان. أُنشئت له صفحة على موقع التواصل الاجتماعي "فايس بوك" سُميت "كلنا خالد سعيد".

عقل على عقل. فلمّا كان صحيحاً أن العقل الثوري الجديد أسّه الحرية، ويتمرّد على عقل قديم، أمنيّ/سلطويّ؛ فالصحيح أيضاً أن الجسد الجديد الثائر جسد حر راقص، وتلقائيّته غير مألوفة في التعبير، ويتمرّد على جسد نقيض يأتمر بالغرائز العدوانية المحضة، وهذا الأخير موسوم بالعقم، ويمثله "شبيحة" السلطة الأسدية، وأجهزة الأمن وقوات الجيش الموالية للسلطة التي احتكمت في قمعها الثورة إلى الغرائز المنفلتة من كل عقال.

****

كانت لغة الجسد الثائر، الحر، الراقص هي الأجدر، على ما يبدو، في مقارعة اللغة التقليديّة، أي، لغة العقل المحمَّل منطق "الواحد"، منطق الاختزال الذي يختصر الحياة، والكثرة، والتنوّع. إنه منطق تثبيت العقل واعتقال النهوض الفكري الذي مارس سلطته على الجسد باعتباره خصوبة ونبضاً وتعدّداً؛ فلغة الجسد في الثورة، حرّرت الفرد من المفهوم المحنَّط، ومن العقل السلطوي الذي لا ينتج إلا نفسه، حتى أنه بلي من فرط الاستعمال والتكرار. فالديكتاتوريات كلّها تُشتَقّ من واحد أوليّ يتجلّى هو نفسه في واحد ثانٍ وثالث ورابع؛ وفي نهاية المطاف يكون الواحد الأوليّ هو السائد فحسب. لكن الجسد الثائر يبدو كأنه انقلب على هذه القاعدة، فتجسّد بعدما كان مغيَّباً، وعتق نفسه من المفهوم المطلق، ومن الواحد، واتصل مباشرة بالواقع، أي بمكانه الطبيعيّ، الماديّ، الحسيّ، الحركيّ، النابض

بالتفاصـــــــــــــــيل وبالأحـــــــــــــــــداث والمتغيِّرات.

****

مشـهد التظـاهرات السـلميّة المدنيـة في المـدن والبلـدات السـورية المختلفـة، التظـاهرات العـامرة بصـفوف بشـرية منظَّمـة يحييهـا قـرع الطبول والأغاني والتصفيق والرقص والدَّبكات الشعبية، كان النموذج الأهم ربما، الذي دلّل على ولادة جسد جديد في وضعيّة غـير معتـادة، يمكن المرء أن يقرأ من خلالها ولادة مفـاهيم وقيم وسـلوكيَّات جديـدة. فالتكـاتف والـترافق والتشـابك بالأيـدي وغيرهـا من الوضـعيات الـتي اتخـذ منهـا ثـوار الحريـة والكرامـة في سـوريا وضـعيّة لأجسـادهم المتعاضدة، بدت كأنها تمرّد على وضـعيّة قديمـة قُسِـر عليهـا الجسـد خلال عقـود من سـواد الاسـتبداد بثقافتـه العسـكرية المجنِّدة للمجتمـع. وبوضعيته الثورية الرشيقة والأنيقة أفصح الجسد عن معـاني التعـاون والتآزر، كما أفصح عن عمق الشعور بوحدة المصير الإنسانيّ.

إن هذه الوضـعيّة الجديـدة للجسـد تعـاكِس وضـعيّة الجسـد الـذي تَعسْـكَر طـوال عقـود، وتُناقِضـها. فقـد كـان الجسـد مقموعـاً، تختفي حيويّته خلف وقارٍ متحجِّر اتّسم به عصر الاستبداد الـذي حكم سـوريا نحـو نصـف قـرن من الـزمن. وإن عقـد مقارنـة بسـيطة بين وضـعية الجسـد الحـر في مشـهد الثـوار المتكـاتفين والمـترافقين والمتشـابكين بالأيدي، وقد تفتّحت أجسادهم للرقص منطلقـةً متقـافزة، في الشـوارع والأحيـاء والسـاحات؛ وبين المشـهد التقليـديّ القـديم لأجسـاد تلامـذة

المدارس المجنَّدة كأنها كتل صلبة تتحرّك وفق إيعازات لها طابع عسكريّ صارم وحاد. إن عقد مقارنة من هذا الطراز، يبيِّن الفرق بين الجسد الحر والجسد المستعبَد، بين التشكيلات الحرة المنفتحة على الحوار، وبين الاستجابات الآلية للإيعازات والشعارات. إذ يقف التلامذة المعسكَرون أرتالاً بعضهم خلف بعض في وضعيّة الترادف التي تحول دون تلاقي الوجوه والعيون، في إشارة رمزيّة تدلّ على انقطاع علاقات التواصل. فالتواصل بين الوجوه، والتقاء الأعين بالأعين، هو من سمات الحوار والتخاطب السليم بين البشر، إن أرادوا العيش في مجتمع يحكمه السلم واعتراف الجميع بالجميع على قاعدة المواطنة؛ غير أن قيم المواطنة هذه لم تكن لتروق للقائمين على نظام أسدي استبدادي مبنيّ على كره الآخر، وعلى الجهد الحثيث لقطع العلاقة بين الناس وسط تعاظم مدّ الرذائل في المجتمع السوريّ المحكوم بآحاد مشتقّة من الواحد الأوليّ؛ بعدما استحال كل "واحد" طفيليّاً ينتضي عصا السلطة ويعظ الناس بنصِّها "المقدس".

****

حكمَ الجسدَ في سوريا تصوُّر إيديولوجيّ مثقل بمسلّمات الرأي الواحد، والموقف الواحد، والسلوك الواحد، والحزب الواحد. فقُتِلت الحياة السياسية، وأثّر التصوّر الإيديولوجيّ في التعامل المسلكيّ مع الجسد. بيد أن الثورة السورية نفضت "تعاليم" البعث الطوباويّة حول الأمة العربية الواحدة ذات الرسالة الخالدة، وفكّكت مزاعم الصمود

والتصدي، والمقاومة والممانعة، لتنفث الحياة والنبض في الجسد. ما دفع بالجسد لأن يحضر بكثافته الوجودية والسياسية والجمالية والثورية؛ وحلّ الجسد الحر محلّ الجسد الصنم. رافق تلقائيّة الجسد الحر، تفتّح الفردية المنسجمة والمتصالحة مع الجماعة، والمتّفقة مع غاياتها. إذ الجسد هنا ما عاد مادة صمّاء، إنما بات صانعاً المفاهيم من خلال جبروته مقدرته في توليد أحداث تاريخية كبرى. هكذا، ما عادت المفاهيم والشعارات والقيم تسقط على الناس من الغيب. وما كان لأركان سلطة متجذِّرة، وراسخة بكل صنوف القهر والعنف أن تُضَعْضَع، لو لم يكن الجسد المحتجّ حاضراً بالترافق مع الكلمة الثائرة في الشارع. وكيف لثورة أن تقوم، إن لم تكن في أصلها قدَماً تطأ الأرض بخطى واثقة مزلزِلة؟! إذ التجربة التي يخوضها الجسد هي الثورة الحقيقيّة التي من شأنها إسقاط ما لا يسقط بالتنظير. ومن الفعل والاختبار والتجربة، تنبع نظرية ثورية تحرّر العقل مما حمله من وباء وهباء. هكذا كشفت الثورة السورية عن عسف الفصل الذي حرص النظام الأسدي على تكريسه بين الجزء والكل، بين الجسد والروح، بين الفكر والسلوك. أي بين العالم الحسي الفيزيقي والعالم الروحيّ العقليّ

مع الجسد الذي أصبح حراً، يغدو للمقولة التي تتحدّث عن العقل السليم في الجسم السليم معنى، إذ الجسم السليم يعني هنا، الجسم

الحـر؛ كـون حريـة الجسـد تلعب دوراً في تطهـير مـا في الـذهن من لوثات مثل "المؤامرة" وغيرها.

الثورة والعجرفة

1

في الحادي والعشرين من نيسان 2013، وقعت في "جديدة الفضل" بريف دمشق، مجزرة راح ضحيتها المئات، بينهم أطفال ونساء، قُتِلوا حرقاً أو ذبحاً بالسكاكين، على مدى أربعة أيام، بعدما اقتحمت جديدة الفضل قوات من الحرس الجمهوري، بالاشتراك مع "شبّيحة". ما يزيد على هول المجزرة هولاً، احتفاء بعض الموالين حينذاك بالمجزرة، وإقامة "مهرجانات" تحيّي القوات "الباسلة" على "انتصارها" على "الإرهابيين[14]".

---

14 **أعلن النظام الأسدي ورئيسه حرباً إعلامية من جهة، وميدانية قتالية من جهة أخرى، منذ أن تفجَّر احتجاج السوريين، الشعبي، السلمي، المُطالِب بالديموقراطية، في أواسط آذار 2011. اختصت الحرب الإعلامية بوصف الثائرين بأوصاف مهولة. "الإرهابيون" أحد تلك الأوصاف، ومن غاياته تشريع ما ليس بمشروع. فقتْل شعب أعزل، يجهر بمطالب مشروعة، غير مشروع، لذا كان لا بد من الالتفاف على اللامشروعية تلك عبر لعبة اللغة، ما دامت مشروعية قتْل الإرهابي مستمدة من لا مشروعية الإرهاب نفسه. كما أن عدم الاعتراف بهوية مَن تُشَن الحرب ضده، وبالفعل الثوري الخاص به، من شأنه أيضاً الالتفاف على كل ملاحقة أو مساءلة قانونية ممكنة، مسايرة للقاعدة المعروفة "الاعتراف سيد الأدلة".**

جاء التضليل في قبالة وضوح تام من جهة السوريين الثائرين، الذين طالما أعلنوا على الملأ، هوية الخصم، أي النظام ورئيسه. في الوضوح نفسه، هناك دلالة ربما على مشروعية الثورة على سلطة غاصبة، لا شرعية، لم ينتخبوها. لذا، لم يكن الثائرون في حاجة إلى التفاف لغوي كالذي عمدت إليه السلطة الأسدية التي لم تكن لتجرؤ على الاعتراف بأن حربها ضد شعبها، بل كانت مضطرة إلى تسويغ لغوي إعلامي يساهم في تشويه الثورة وصرْف الأنظار عنها، وفي تضليل الرأي العام. هكذا، خلقت السلطة "عدوّاً شرعياً"، اسمه "الإرهاب"، تضمن بقاءها من خلال قتاله.

كانت صور فتيات وهنّ يدبكن ويرقصن على وقع المجزرة، مثيرة ربما لأسئلة كثيرة، وعرة ومحيِّرة، منها: كيف ولماذا تمّحي الشفقة من قلوب البعض إلى هذا الحدّ المرعب؟! اللافت في ما يخص الفتيات اللواتي رقصن ودبكن، واتّشحن باللون الأصفر الخاص بـ"حزب الله"، أنهن كن من الطراز ذاته، الذي دائماً ما كان يتم اختياره بشكل مدروس ومحسوب في كل المسيرات التي كانت "تُسَيَّر" لتأييد الأسد، وفي كل "مناسبات الحرب" التي طالما شُنَّت على الثائرين السوريين. كلهن سافرات الرأس (بقصد الإيهام بأنهن أقليات خائفات، مستهدَفات من أكثرية سنّية أصولية وتكفيرية)، وكلهن لابسات السبور، واضِعات الوشوم أحياناً، مرتديات "تشيرتات" مرسوماً عليها صور بشار الأسد أو كلمة "منحبّك"، متزيّنات بحلى تحمل صور الأسد أيضاً، والعلَم ذا الخط الأحمر، مبالِغات في تعظيمهن القائد والجيش والأمن والشرطة، مستعمِلات أسلوب "النكاية" و"الشماتة". والسخرية المؤذية، ومنتبهات جيداً إلى ضرورة بقاء الابتسامة الماكرة على وجوههن، بغية إثارة مشاعر الغيظ والحسد في نفوس الخصوم. التفاصيل تلك وغيرها الكثير، من الواضح أنها تدلل ليس على طائفية النظام وحسب، بل أيضاً على جوهره المتعجرف، ووجوده المتسلط القائم على الازدراء الممنهج والتعالي الممنهج والعنصرية الممنهجة.

****

وحيث إنه بالمقارنة تُعرَف الأشياء بوضوح أكثر، فما على المرء إلا مقارنة التظاهرات المناوئة للنظام، بالمسيرات المؤيدة له، وحينها قد يتعرَّف إلى عالم العجرفة في أوضح صوره . في التظاهرات، هناك بشر ثائرون، غاضبون، عفويون، غير معنيين بالصورة التي يجب إظهارها إلى الآخرين، كونهم منهمكين في سخطهم الصادق، وقلقهم وترقّبهم مباغتة الرصاص الحي لصدروهم في كل لحظة. هم في غالبيتهم الساحقة، من البسطاء والفقراء والمهمّشين، خرجوا من الأرياف محتجّين بلباس متواضع، أو تقليدي محلّي، وبأشكال غير مهندسة. فحوى شعاراتهم، العدالة الاجتماعية، المساواة، الحرية والكرامة.

على النقيض من ذلك، تمهر المسيرات المؤيدة شعارات تفوح منها رائحة العنصرية، في وسط مناخ إقصائيّ وإلغائيّ يُعتبَر الموالي لآل الأسد فيه، وطنياً مخلصاً، والمعارض عميلاً وخائناً، قتله فرْض وواجب، كما يُعتبَر المؤيدون "راقين وعلمانيين"، بينما يُنظَر إلى الثائرين المتظاهرين كـ"حثالة ورعاع، وتكفيريين، وإرهابيين". قد لا يخفى على المراقب الجيد للمسيرات المؤيدة، ذاك الجهد المبذول في الاعتناء بمظهر المؤيدين، من مثل ارتداء لباس موحَّد من "تشيرتات" بيضاء مطبوع عليها صورة الأسد مع كلمة "منحبّك"، ناهيك بحمْل أعداد هائلة من الأعلام ذات الخط الأحمر، تتوسطها

صورة بشار الأسد، كرمز لـ"سورية الأسد"، وكإشارة رمزية مفادها: أن علَم السوريين هو هذا العلَم، وأن الشرعية لعلَم "الدولة" هذا، لا للعلم ذي الخط الأخضر الذي يحمله خارجون على "الدولة" و"القانون"! يحدث ذلك، بالترافق مع إحساس مدروس يحاولون إيصاله للمعارضين والموالين والحياديين والصامتين، لمَن في الداخل ولمَن في الخارج، للسوريين ولغير السوريين، على حد سواء، بأنهم الشرعيون، في قبالة لا شرعية التظاهرات المحتجة، وبأنهم أهل البلد، ومحميون من جيش السلطة وأمنها وشبّيحتها، وبأنهم الأقوى والأبقى. يُستشَفّ ذلك من خلال لغة الجسد الخاصة بهم مثلاً، أو من ملامح الوجوه، ونماذج المؤيدين من ذوي التركيز على الهندام "المودرن"، الذي من شأنه إبرازهم كـ"مدينيين" و"حداثويين" في مواجهة "متخلفين" و"همَج"، حتى أن دلالة النظارات الشمسية تختلف بين التأييد والمعارَضة، ففي المسيرات المؤيدة قد تكون مؤشراً إلى العجرفة والاستكبار، تماهياً مع صور أفراد العائلة المالكة الحاكمة التي طالما اقتحمت كل شيء، وترسَّخت بفظاظة في وعي الناس ولا وعيهم، خصوصاً تلك التي قُصِد فيها اتخاذ وضعية معينة، يضع فيها حافظ الأسد وابنه الوارث وأخوه نظّارات شمسية سوداء، مدروسة سيكولوجياً بحيث تخيف المتلقي من شدة غموض شخصياتها، وتكرِّس في داخله شعور الوضاعة والاحتقار لنفسه، كما تذكّر بالمناخ الأمني المسيطر على البلد في آن واحد، بينما يكون

للنظـارة الشمسـية في التظـاهرات المحتجـة دلالـة أخـرى، فهي مثلاً وسيلة لستر الوجه، تترجم الخوف من الانكشاف على رجال الأمن.

****

في السياق ذاته تندرج الصور- التي طالما راجت بعدما ورث الأسد الابن "الجمهورية"، أي تلك التي يظهر فيها مع زوجته وأطفاله بشكل يقصد الإيحاء بأنهم "عائلـة سـبور، سـعيدة، عصـرية ومتفهِّمـة للشعب (العبيد)، ومتجاوزة نظام الأب "القديم"، وبـأن أطفـال العائلـة "ملائكة" ينبغي لأطفال سوريا الاقتداء بهم والتعلم منهم، والسير على طريق "خدمتهم"، إضـافة إلى التركـيز على إظهـار السـيدة "الأولى" كسـيدة "أنيقـة"، "منفتحـة على أي "جديـد" ويجب على نسـاء سـوريا النظر إلى أنفسهن من خلالها وإعدام وجودهن الأنثـوي في حضـرتها وحضورها "الأبدي الفاتن"! وغير ذلـك الكثـير ممـا يصـعب حصـره في هذه السطور-

****

ينسـحب مـا ذُكِـر آنفـاً على "الجيش الحـر" و"الجيش النظـامي"- أيضاً، فالنظرة إلى "الجيش الحر" نبعت من ذهنية العجرفـة ذاتهـا، إذ عدم توافر اللباس الجيد والخاص لدى مقاتلي "الجيش السوري الحر" من مثـل الخـوذة، أو السـترة الواقيـة من الرصـاص، وإهمـال بعض المقاتلين لمظهرهم الخـارجي، كـأن يُـترَك الشَّـعر والـذقن بلا حلاقـة،

نتيجة العيش في ظروف غير عادية، وفي أماكن ليست ملائمة للاعتناء بالشكل، وعدم توافر الأدوات اللازمة لذلك. إضافة إلى عدم وجود التقنيات والمعدات المهمة بين أيديهم، ونقص الأسلحة العادية، وانعدام الأسلحة النوعية و"المتطورة" لديهم كالطائرات وغيرها. ذلك كله، كان من شأنه تعميق النظرة الدونية لهذا الجيش، واعتباره مجرد جيش من "الإرهابيين والمشردين والمتسولين". مع أن حقيقة الأمر غير ذلك البتة، إذ نحن أمام عالمَين متنابذَين: نظام جائر، وشعب ثائر. الأول، مرتزق بمعنى الكلمة، لا شرعي، لا وطني بكل المقاييس، وما انخراط حلفائه الغزاة الطائفيين القادمين من إيران والعراق "مليشيات أبو الفضل العباس وغيرها" ولبنان"حزب الله"، في القتال إلى جانبه، إلا دليل دامغ على ذلك . أما الثاني، فهو شجاع، صاحب قضية شعبية وطنية عادلة، وحيد لا يُسانَد في ثورته ولا يُدعَم، ويقاتل بروح مفعمة بالإيمان بأشياء كثيرة، منها الحرية.

وقد كان مخزياً، أن من ادّعوا "صداقة" الشعب السوري، تعاطوا مع "الجيش السوري الحر" بذهنية أعداء الثورة الواضحين ذاتها، فهم لم يعترفوا بهذا الجيش المهمَّش، في المعنى الحقيقي للاعتراف، ولم يهتموا بأمر تسليحه، بينما مدّ الروس مثلاً، حليفهم النظام الأسدي بكل أنواع الأسلحة، متذرعين بعقود قديمة مبرمة. وكان كلما لوَّح "أصدقاء" الشعب السوري بتسليح "الجيش السوري الحر"، سارع الروس إلى الرد بأن ذلك مخالف للقوانين والاتفاقات الدولية التي

تقضـــي بـــبيع الســـلاح للأنظمـــة فقــط. بمعــنى، أنـــه لا يجــوز إيلاء "الهامشيين" أي اهتمام أو اعتراف – حـتى لـو كـانوا ممن يقـع عليهم الظلم والجور ، كون "الأنظمة" فقط – حتى لو كانت قاتلة لشعوبها ذات شأن واعتبار.

****

بيــد أن الازدراء المؤســف، كــان من جهــة بعض "المتثــاقفين"، أولئــك المحســوبين على الثــورة، الــذين طالمــا مارســوا دوراً بشــعاً وخطـيراً حيـال الثـائرين المـدنيين والعسـكريين المنشـقّين عن جيش النظام. فهم، كالنظـام ومؤيديـه، تعـاطوا مـع الثـوار عـبر النظـر إليهم كـ"متخلفين" و"قاصرين" يلزمهم توجيـه ورعايـة ووصــاية، والنظـر إلى أنفسهم كـ"عقلاء" و"حكماء" و"متحضّرين". الخطير، في الـدور الذي لعبه أولئك، أنهم ساهموا في تعميق تهميش المهمشـين، وتأصـيل ازدرائهم، وهذا مـا لن يمـر مـرور الكـرام ربمـا، إذ المهمَّش مـا كـان ليثور لو لم يكن احتقاره دافعاً مهمّاً إلى ذلك، وهو حتماً سوف يواصل ثورتـه على كـل مَن يحـاول تهميشـه مجـدَّداً، وقـد يتخـذ ذلـك منحى انتقامياً، خصوصاً لدى البعض من حاملي السلاح! لذا وجبَ الحذر.

2

مـا ذُكِـر عن بعض مظـاهر العجرفـة، إنْ هـو إلا تفصـيل صـغير من

تاريخ طويل، عاشه السوريون طوال عقود حكم آل الأسد الذي تمثل العجرفة أحد مرتكزاته، وقد لا نجانب الصواب إن قلنا إن "العجرفة" واحد من أهم الأسباب وأشدها عمقاً ربما، أفضى إلى اندلاع الثورة، لأنه قد لا يكون هناك سوري ذو إحساس عال بذاته، لم تترك تفاصيل العجرفة، والافتقار التام إلى الطيبة والمحبة والتسامح الذي دمَّر حياة السوريين وقضى على أحلامهم، أثرها البالغ في نفسه وروحه ووجدانه.

إن العجرفة كانت على ما يبدو، تؤسِّس للحظة انعطافية في تاريخ السوريين. لحظة القطيعة مع زمن القطيع. لحظة الثورة. فذاكرة الثائرين مكتظة ومترعة، ليس بتفاصيل الخوف والقمع والبؤس والإنهاك اليومي واللهاث تلو اللهاث في اتجاه الخواء والهباء فحسب، بل بالعجرفة أيضاً، وقد لا يكون في مقدور أحد من أولئك الثائرين أن ينسى ذاك اللؤم المدروس، من أجل تحقير الإنسان وتقزيمه، بل إعدامه. لؤم لم يقتصر على تحقير يُمارَس على "الفرد" من خارجه، أي من السلطة وممثليها في كل زاوية من زوايا سوريا (المزرعة)، بل تعدَّاه إلى تدريب كل "فرد" على تحقير ذاته بذاته من الداخل، في صميم وجوده.

****

لـذاكرة العجرفـة تلـك وظيفتـان: إحـداهما مختصـة بـ"التـذكير" بماضٍ لطالما كانت السلطة فيـه تقتـات من تبخيس النـاس، والأخـرى "تحريضـية" من شـأنها منْـع كـل محاولـة للتفكـير في الـتراجع عن الثـورة، لأن ذلـك سيفضـي في نظـر الثـائرين، إلى واقـع انتقـاميّ، استعباديّ أقسى مما كان قبل اندلاع الثورة. واقـع يصـير الموت معـه أرحم بلا أدنى شك، وعلى ضـوء هـذا الكلام، يصـبح شـعار "الموت ولا المذلة"، أكثر وضوحاً ودلالة.

هكـذا، قـد يجـد مَن لديـه فضـول لمعرفـة سـبب اسـتمرار الثـورة السورية، في مـا يُطـرح هـا هنـا، إجابـة معينـة ربمـا تسـاعده في فـكّ الشيفرة الخاصة بلغز استمرار الثورة، على الرغم من كـل مـا حصـل ويحصل من كوارث تفوق كل تصور، ومع أنها ثورة على هـذا القـدر العظيم من الوحـدة واليتم. ففي "مملكـة التبخيس"، حيث تمّ "تـأميم" العجرفـة، أي احتكارهـا على يـد "دولـة الأسـد"، ومنْحهـا السـمة "الرسمية"، كانت تتم إدارة صراعية للفضاء الخـاص بالنـاس، وكـان "التحديث والتطـوير" و"الرفاهيـة" الموعـودة، محض عنجهيـة تعلـو ولا يُعلَى عليها، ولّـدت الملايين من المهمّشين والمنبـوذين والخـائبين والعاطلين. لذا، كانت الثـورة ملجـأ للمسـحوقين وملاذاً للمستضـعَفين، ومرجعية يستعصم بها المظلومون. فالثورة بالنسبة إلى مَن قـرّر رفْـع "صخرة سيزيف"، وشَـعرَ بأنـه هـو الـذي يسـتحق الحيـاة لا "نُخبـه" القياديـة، هي الصـح الوحيـد في حياتـه. ومِثـل ريحٍ عظيمـة تهبّ

باستمرار من أجل أن يـذوي جـذر الخـراب في البلاد (العائلـة المالكـة الحاكمة.(الثورة السورية، بالنسبة إلى الثائر الحقيقي، بمثابـة ومضـة مدمِّرة لا قضية محاباة. فيها فهِم ذاته وكشفَ المستور، وخرَق النظـام والعادة والمحدود، وبات كأنه يحيا غبطة روحيـة حقيقيـة. إذ حـتى في عمق المأساة الحاصلة، هو مغتبط، فمع أنه لم يحقق جل ما يصبو إليه بعد، إلا أنه لوى ذراع العجرفة على الأقل، وحطّم أنفها.

الثورة والوطنية

ألوف التماثيل لحافظ الأسد، حُطِّمت أو أُسقِطت. كان أولها تمثاله في مدينة القامشلي 2004، وأضخمها ذاك الذي أُسقط بتاريخ 4آذار 2013بمحافظة الرقة. مشهد هذا الأخير في أثناء تهاويه، ربما يذكّر بمشهد تهاوي تمثال الطاغية صدام حسين في بغداد، مع فارق جوهري يكمن في أن الأول أسقطته أياد سوريّة، بينما الثاني أُسقط بأياد أميركية إبان غزو العراق عام 2003. كل التماثيل في المدن والبلدات السورية المختلفة، شأنها شأن تمثال الرقة، حُطِّمت أو أُسقِطت بأياد وطنية، في الوضح، وتحت قرص الشمس الناري. لم يوثّق لحظة تحطّم أي تمثال أو سقوطه سيّاحٌ في أعناقهم كاميرات مدلاة، بل ناشطون سوريون حملوا أرواحهم على الأكفّ، وآثروا توثيق أحداث الثورة لحظة بلحظة، بواسطة كاميرات هواتف جوالة، وكان الدم المراق كياقوتة لا تقدَّر بثمن، ثمناً لإسقاط كل تمثال، وفداء لوطنية هي الحلم والثراء وفانوس خلاص وحرية.

التظاهرات الشعبية الحاشدة، المدنية السلمية، حتماً لم تكن في بلاد السند والهند، ولا كان أهلوها كائنات فضائية، بل هم أبناء درعا وبناتها مثلاً (مهد ثورة الحرية والكرامة)، وحمص (عاصمة الثورة)، وكفرنبل (ضمير الثورة). ليسوا عصابات مسلحة، ولا إرهابيين

وتكفيريين، ولم يثوروا على المبايعة الأبدية لآل الأسد، من أجل مبايعة "القاعدة"، وقد لاقت –على سبيل المثال- مبايعة "جبهة النصرة"، زعيم التنظيم المذكور أيمن الظواهري بتاريخ 10 نيسان 2013، رفضاً قاطعاً، ورُفعت في التظاهرات لافتات تؤكد أن "الشعب السوري لا يبايع إلا الشعب السوري"، ثمة لافتة زرقاء اللون، رفعها أحرار بستان القصر والكلاسة في حلب في إحدى التظاهرات، تقول بوضوح:"الشعب السوري هو الذي يحدد شكل دولته ومستقبلها"، كما وقّع السوريون – وكنت أنا كاتبة هذه السطور، من بينهم- على بيانات ترفض كل التصريحات والبيانات الصادرة عن بعض الجهات الخارجية، التي من شأنها فرض أطروحات على الشعب السوري وتحديد شكل دولته ونظامها السياسي، منها إعلان تنظيم "القاعدة" على لسان أبي بكر البغدادي، تشكيل "الدولة الإسلامية في العراق والشام"(داعش[15]).

15 منحَ النظام البعثي الأسدي، باعتباره أحد أقطاب التطرف والإرهاب، والظلامية والتكفير، التنظيمات الظلامية التكفيرية الأخرى كل مقوّمات وجودها، وهيّأ المناخات التي تسمح بـ"ازدهارها". لكنه حرص على قمعها إذا تجاوزت حدوداً معينة، وهي لا بد من أن تتجاوز كل الحدود، كون التطرف لا يمكن حصره. هكذا، دخل كلٌّ من النظام البعثي الأسدي، والتنظيمات التكفيرية الأخرى في علاقة شديدة التعقيد، إذ ينفع أحدهما الآخر ويضرّه في آن واحد، ينعشه ثم يخنقه في حركة جدليّة مأسويّة.

باسم الدين الإسلامي، ارتكب تنظيم "الدولة الإسلامية في الشام والعراق" (داعش) مثلاً، في المناطق السورية المحرَّرة من نظام الأسد، كالرقة وغيرها، ما يتناقض مع احترام الحريات، وسعى إلى فرض ما لا يتواءم مع التكوين النفسي والعقلي والثقافي والأخلاقي والحضاري لدى المجتمع السوري المعتدل دينياً. مستنداً بذلك النظام البعثي الأسدي الذي كفّر باسم "البعث" الذي فُرض على السوريين طوال عقود، كل معارض له أو ثائر عليه وخوّنه ودمّره أو أفنى وجوده. ساند هذا بدوره ذاك التنظيم وأمثاله، من خلال استمراره في قصف المدنيين في المناطق نفسها بالكيمياني وبالبراميل المتفجّرة وصواريخ سكود وكل أنواع الأسلحة. كلاهما متفق على ضرورة إفشال تجربة الحرية والديموقراطية في المناطق المحرَّرة.

منذ اندلاع الثورة ما انفكّ السوريون الثائرون يهتفون: "خاين، خاين، خاين/ الجيش العربي السوري خاين". لماذا يا ترى؟ لأنه جيش وطني، حماهم وحمى ديارهم وأرضهم وعرضهم، فكافأوه بهذا الهتاف؟! أم لأن هجمة النار الآتية من عراق المالكي وإيران و"حزب الله" لتشارك في حرق السوريين وقتلهم في مدينة القصير بمحافظة حمص وغيرها من المناطق السورية، ليست ارتزاقاً، بل "وطنية" مضاعَفة مضافة إلى "وطنية" القوات "الباسلة"؟!

استراتيجيا الغزاة، التسلل. يطنبون في الحديث عن الأخلاق والوطنية، لكن غالباً ما تثبت صحة استنتاج مؤسس التحليل النفسي، فرويد: "أكثر الناس حديثاً عن الأخلاق، هم أبعد الناس عنها". فمَن يفرط في إلقاء الضوء على موضوع أخلاقي، جيِّد ومقبول لدى الناس، ويسخِّر الطاقات لتثبيته في الوعي، معناه أن ثمة أمراً مناقِضاً للمعلَن، يُراد إخفاؤه والتستُّر عليه. هكذا، كان النظام الأسدي دوماً يسلّط كل "أضوائه" على "فكرة" المقاومة. طويلاً جُنِّد السوريون، وزُجَّ بهم في سجن الطوارئ تحت ذريعة الحرب مع العدو الإسرائيلي الذي "احتُفِظ دوماً بحق الرد على اعتداءاته!"، وطويلاً حُرِموا حتى من أبسط الحقوق تحت اسم "الممانعة" التي منعت كل جميل ونبيل. بيد أن الممانعة "العظيمة" في الضوء، لم تكن في العتمة سوى خيانة "عظمى". استناداً إلى استنتاج فرويد نفسه، فإن قول بشار الأسد في خطابه الأول في بدايات الثورة: "وإننا نؤكد في

سوريا أن السلام الشامل، لن يتحقق إلا بعودة الجولان كاملاً"، إنْ هو إلا رسالة غزَل للإسرائيليين، مفادها: "وإننا نؤكد في سوريا إخلاصنا لكم. الجولان لا نريد استرجاعه كما تعلمون، لكن قفوا إلى جانبنا ضد احتجاج شعبنا علينا، وساندونا من أجل البقاء في السلطة". في المقابل، ما رفْض الزعماء في أميركا وإسرائيل للأسد ونظامه في العلن، إلا قبول مطلق به في الباطن، وقد أثبتت التجربة أنه كان كلما علت أصوات تدعو الأسد إلى "التنحّي"، وتزعم أن "أيامه باتت معدودة"، ازداد التمسك في بقائه، على الأقل حتى ينتهي من تدمير البلد. يتخاصمون على المنابر، لكنهم خلف الستائر يتفاوضون ويخططون ويتفقون وينسّقون. وعليه، لم يكن مصادفة، ارتفاع منسوب التخوين للسوريين الثائرين، كلما ادعى زعماء غربيون دعم ثورتهم – مع أنهم لم يدعموا-، إذ كانوا بذلك يساندون النظام في تأكيد نفسه عبر تصنّع طهارة الوطنية في الضوء، في مقابل ضمان بقائه حارس إسرائيل في العتمة.

كان هتاف الثائرين السوريين: "إبن الحرام باع الجولان[16]"، من أشد الهتافات تعريةً للطهارة المصطنعة، والوطنية الباذخة في ماخور عهر، هكذا يمكن فهم قلق رئيس أركان الجيش الإسرائيلي في تصريحه: "انتهى الهدوء الذي ساد الجولان لمدة أربعين عاماً". أما بالنسبة إلى الثوار في سوريا، فقد قرعوا طبول الحرية والكرامة،

16 يمكن مراجعة المبحث الأول، موضوع "اللغة بين نظام جائر وشعب ثائر"، (اللغة الثائرة والتعرية).

بعدما انتهى السكوت عن "وطنية" مختصة بعقد المجـاملات، وإبـرام العقود والاتفاقات على حساب الوطن والشعب.

ـ وطنية أطفال الحرية

تجمع الأطفال والفلاسفة صفة الدهشة؟ طبعاً. فأطفال درعا هم أولئـك

اللـذين التمـعَ في عقـولهم بريـق سـؤال الوطنيـة المتمخّض عن نظـرة جديدة للوطن، قبل أن يغدو السؤال نفسه هـاجس الملايين وإشـكاليتهم. أطفال الحرية، كانوا مناضلين، كالثائرين البـالغين، مثلهم اضـطهِدوا، بعضهم قُتِل، بعضهم اعتُقِل، بعضـهم اغتُصِـب، بعضـهم أمسـى يـتيم الأب والأم، بعضهم تشرّد، وبعضهم حُرِم اللعب والعلم. إلا أن سـؤال الوطنية ظلّ هاجساً على ما يبدو، يعتور النفوس والعقول، يتنقّل بين طفلـة ضـاجة نعومـةً وأنوثـة في مخيمـات اللجـوء، مـا انفكت إحـدى القنوات الفضائية تعيد كلامها وكلام غيرها: "هون مـا في شـي حلـو، هونيك عنّـا أحلى"، وأخـرى في أحـد الأحيـاء المـدمَّرة تقـول: "بشـار عبيبعتلنا طيارات لتقصف مدارسنا، بس نحنـا جَكَـر ببشـار رح نتعلم بالشوارع، ورح نكبَر ونبني هالوطن"، ومراهق بعدما أصبح عـاجزاً بدنيّاً يقول: "أنا صـرت مُقعد، بَس مُقعد بحريـتي وكرامـتي، الحريـة والكرامة عنـدي ياهـا هلّـق أغلى شـي، ومـا رَح إنـدم على الشـي إللي ســاويتيو لأن ســوريا بتســتحق إدفــع ثمن أغلى". "بَس أفهم، ليش عبيضـربنا؟ يعـني حكم القـوي عالضـعيف؟"، سـؤال وإجابـة دفعـة واحدة، يختم بهما سرده عمـا جـرى له ولعائلتـه في حلب بعد قصـف بيته بصاروخ سكود، (نايف الحلبي)، الصـبي الصـغير الـذي أجـرت معه قناة "أورينت"، مقابلة بتاريخ 27 شباط 2013. ما قصّه الصـبي، برباطة جأش مذهلة، كان مرعباً، فقد قـال مثلاً: "طْلِعتْ لقيتْ ميمـتي

أربع شقف". الصبي، هو أحد نماذج "الإرهابيين" الذين استعرض "الممانعون" "قوتهم" عليهم!

لقد سحب سؤال الوطنية أولئك الأطفال من حياتهم الخاوية المعنى، ليضعهم أمام أحاجي الأنا والآخر والوطن الكبرى، ربما كاستجابة إلى صوت في عمق أعماقهم يقول "إن في الوطن لغزاً كبيراً."

" الطفل أقوى، أوسع، أضمن قاسم مشترك بين كل الأغلبيات"، هكذا يعرّف ميلان كونديرا بالطفل في روايته "الهوية". أطفال سوريا أقوى، أوسع، أضمن قاسم مشترك بين كل أغلبيات السوريين إذا ما أرادوا الإبحار بحثاً عن وطنية مفقودة.

إن قتلة الأطفال الذين يعادون ضروب اللعب واللهو، ويوجّهون جلّ مخزوناتهم من الحقد في اتجاه نسف الطفولة، هم الفارّون من كل أشكال الإنسانية والوطنية والكفاح، أولئك ينبغي سحقهم دوماً، كيف؟ بملاحقتهم ومحاسبتهم حتى لو لم يتبقّ في العمر سوى لحظة، بالثورة المستمرة...؛ فـ"من تحت الركام سيولد طفل ينشد حلماً.. يبني وطناً.. ليزهر ربيع الثائرين"، هذا ما قاله مَن ظلَّ حياً من أطفال بلدة حاس بريف محافظة إدلب، في لافتة تاريخها 22آذار 2013. رفعوها عالياً بعد تسلّقهم ركام بيوتٍ قصفها بشار الأسد قاتل الأطفال

ـ التمثل الأسطوري للوطنية

ذات يـوم، بثّ التلفزيـون السـوري (تلفزيـون النظـام)، خـبر خـروج النـــاس في حي الميـــدان بالعاصـــمة دمشـــق إلى الشـــوارع بهـــدف "الاستسـقاء". بـدا العقـل المـؤطَّر بالسـلطة حينهـا، عـاجزاً عن إيجـاد تفسير علمي، واقعي لظـاهرة التظـاهر الـتي عمّت سـوريا، فعمـد إلى تفسـيرها على أنهـا صـلوات استسـقاء، واسـتجداء إلـه المطـر (حـاكم البلاد)، لكي يبعث الأمطار (الإصلاحات).

سُمِّيَ الموالـون لبشـار الأسـد، "منحبكجيـة". اشـتُقّ المصـطلح من مفردة "مِنْحبَّك"- التي طُبخت بمهـارة في مطـابخ الاسـتخبارات بعـدما أُخـــرِج جيش الطاغيـــة من لبنـــان عـــام 2005. اللافت، أن عقـــل "المنحبكجي"- المستسلم لـ"الحب" المذكور، أثبت أنـه غـير قـادر- على فهم الوطن عبر فصله عن الرئيس "إله المطـر". كـل مـا يحبـه رئيس الـوطن هـو الخصـب والوطنيـة في ذاتهـا، وكـل مـا يمقتـه هـو العقم والخيانة، وكل خارج على نص "الرئيس الـوطن، والـوطن الـرئيس" عميل وخائن!

في إحدى أساطير شـمال الـنروج، يُحكى أن إلهـاً يُدعى تـور كـان يعبر السماء في عربة يجرّها تيْسان، وكان كلما طرق بمطرقته، أثـار العاصفة والصاعقة، وأرسل المطر. وكـان سـكان الشـمال "الفـايكنز"- يعتقدون أن العـالم المـأهول أشـبه بجزيـرة تهـددها باسـتمرار- أخطـار خارجيـة، ويسـمّون الجـزء المـأهول "ميـدغارد"، أي أمبراطوريـة

الوسط. تضم ميدغارد "اسغارد"، أي مقر الآلهة، على أطراف ميدغارد تأتي أمبراطورية "أوتغارد". التي تقع في الخارج، ويسكنها "الجبابرة" الخرافيون الذين يحاولون تدمير العالم. يُطلَق على هذه الشياطين اسم "قوى الفوضى"، وهي التي يتولى الإله ثور مهمة القضاء عليها.

بلغة سورية معاصِرة، مستمَدة من واقع الثورة الشعبية، يمكن القول إن "الشبيحة" الذين طالما اعتبروا الرئيس بمثابة "إله المطر"، جنّدهم "الرئيس الإله" نفسه ليكونوا "مطرقته". المطرقة هنا حتماً ليست لاستدعاء المطر، بل تشكّل سلاحاً ممتازاً في الصراع ضد الثوار الذين يسمّونهم "عصابات مسلحة، وإرهابيين"، أو "قوى الفوضى والجبابرة". بلغة الأسطورة.

يتضح أكثر التمثل الأسطوري لـ"سوريا الأسد" (ميدغارد التي تضم اسغارد) في نعت الثوار بـ"المندسّين والمتآمرين" أي "شياطين الخارج (أوتغارد)"، واتهامهم بأنهم يريدون تدمير أمبراطورية الوسط (سورية الأسد)، ولكي يتمكن "الرئيس الإله" من الانتصار على الثوار "قوى الفوضى أو الجبابرة"، يجب أن يُضحَّى بكبش يُقدَّم إليه، بحيث يصبح الإله أقوى. هكذا، عمد "الشبّيحة" إلى تقديم الأضحية تلو الأخرى من الأطفال والنساء والشباب والمسنّين إلى "الرئيس الإله"، حتى أن الأضحيات باتت ألوفاً مؤلفة. كان تقديم

الأضحيات يتخذ أحياناً شكل المجزرة، وقد تعددت المجازر التي تعتمد طريقة الذبح بالسكاكين، ممهورة بطابع طائفي، مثل مجزرة قرية البيضا بريف بانياس التابعة لمحافظة طرطوس بتاريخ 2أيار 2013، حيث اقتُحمت هذه القرية المسالمة، وتمت تصفية المئات من أهلها. مجزرة مروعة، جاءت ضمن حملة "تطهير- عرقي أو مذهبي"- من شأنها إفراغ المنطقة من سكانها السنّة.

إن التصور المركزي لمقر الآلهة في الأسطورة، هو التصور ذاته المهيمن على رؤية الشبّيحة لـ"سورية الأسد"، كمركز يصارع "هامشاً- خرافة"، أي الشعب الثائر.

****

تصوُّر "الشبّيحة" نفسه، هو جزء من تصوّر أعمّ يطبع النظام العالمي "الحديث"، ويقسِّم العالم بين مركز وهامش، حقيقة وخرافة، آلهة وشياطين. هكذا، فإن مركزية النظام العالمي، لم تعترف بـ"الهامش، الخرافة، الشيطان" في سوريا، ولم تتعاطف معه، أي الشعب الثائر من أجل الحرية، الذي عاش ويلات المذابح والمجازر، لا بل كان في قمة المركزية تلك، مجلس أمن يطرق مراراً بـ"مطرقة" "فيتو"- ذي وجهين، أحدهما معلَن (روسيا والصين)، والآخر- مضمَر (إسرائيل، الغرب والولايات المتحدة على رأسه)، يتعاضد مع مَقر الآلهة (اسغارد) في سوريا، أي النظام ورئيسه.

ـ التمثل الحميمي للوطنية

"في سـوريا المسـتقبل: لن يكـون هنـاك حكم أشـخاص أو عـائلات،

سيكون حكم القانون فقط". تلك كانت لافتة أهالي بلدة داعل بمحافظة درعا خلال إحدى التظاهرات. في اللافتة، إشارة إلى جوهر الثورة السورية وغايتها في آن واحد، أي القطع مع التمثل الأسطوري للوطن والرئيس، وبناء دولة الحق والقانون.

لقد ساهمت الثورة في تبديد الحتمية، وفتّت الثوابت، وأفرزت مفاهيم وطنية غزيرة تمهرها الحركة، وتطرح من الأسئلة أكثر مما تجيب. كل مفهوم ارتبط بثائر، بعدما أثبتت التجربة أن شراع الوطنية الذي يعالَج بجسد الثائر الحقيقي وروحه ودمه وكلمته، وحده الذي يؤمّن حسن اتجاه البلد، فالوطن يحتاج لإدارة ملاّح وطني.

أسئلة ليست عارضة، أثارتها الثورة، من مثل: من نحن؟ لماذا نعيش؟ فالسوري الثائر ما عاد ذاك الذي يعاني تلف "الوطنية" التي كانت تجعل كل الموضوعات الأخرى تافهة، وكانت تعتورها البلادة والكذب، وتبعث على السأم والاكتئاب من حيث هي تقريظ للحياة. فكأن السوري الثائر انتقل من "الوطن ليس لي، لا أبالي"، إلى "أشعر" بالوطن، و"كل ما فيه يمثل بالنسبة إليَّ قيمة كبرى". إن أحداً لا يستطيع إخضاع المشاعر للتجربة أو منعها، فالشعور لا سلطة عليه، وهو بلا ترجمة واقعية خارج الشعور يمكن تلمسها والإحساس فيها كـ"شيء". شعور السوري الثائر في وطنيته جعلها تنتقل من كونها خارجية، لتصبح داخلية، حميمة، وكما الإغواء الماكر تلتصق

بالجسد والروح، بالعقل والعاطفة، وتساهم في تشكيل هوية خصبة خاصة بكل "شاعر" فيها.

الثورة والقيمة الجمالية

في 6 نيسان 2012 رفع ثائرون في عامودا بمحافظة الحسكة شمال شرق سوريا، لافتة تضمّنت مقولة لوركا "ما الإنسان دون الحرية يا ماريانا؟ كيف سأحبّكِ إذا لم أكن حرّاً؟ كيف أهبكِ قلبي إذا لم يكن مُلكي؟". كانت لافتة من بين ألوف اللافتات التي رُفعَت منذ اندلاع الثورة السورية، تكشف، في العمق، علاقة جماليّة عبَّرت عن تواصل روحي وجسدي بين الثائر والثورة؛ طالما أنها علاقة تعقد الصلة بين الواقع بكل قباحاته وبين الجمال، عبر معايشة جمالية بين الذات الثائرة وموضوع هذه الذات، أي الثورة.

بدت الثورة كأنها سعي من أجل انتصار الجمال والروعة على الشرّ والابتذال والقبح. ولعل انضواء التنوّع في الثقافة، والعلم، والدين، والطائفة، والقومية، والمنطقة، والعمر، والجنس، والعمل، والطبقة الاجتماعية داخل وحدة كلية هي ثورة شعبية، كان مصدر جمال الثورة من حيث هو انسجام. فجمالية الانسجام هنا تبدّت في وحدة المتنوِّع والمتناقِض (تيمّناً برؤية هيغل للانسجام). يُضاف إلى ذلك، التناغم بين حركة الفرد/الثائر كجزء كان على مرّ عقود ساكناً راكداً، وحركة الثورة ككلّ. مع انسجام الحركة بين الجزء والكل، غدت العلاقة بين الثائر والثورة حافزاً لإقامة علاقة جمالية بين الفرد وذاته، وبين الفرد ومجتمعه، وبينه وبين مثله الأعلى. إن الجمال هنا، وقد أصبح مع الثورة "حياة"، يكاد يقترب من الجمال في "الفن"، من حيث التوافق والانسجام. إذ الجمال وليد التوافق بين ما ينبغي أن

تكون عليه الأشياء ووجودها الواقعي؛ فالثورة السورية جميلة بمقدار ما أفصحت عن انسجام أحاط بالزخم الشعبي الشائك والمتنوِّع. انسجام تبدّى في وحدة الشعارات والهتافات، ووحدة الأغنيات والألحان والرقص والتصفيق في التظاهرات، ووحدة إيقاع الجسد والروح. وهذا ما وجد تعبيراً عنه بين الشكل والمحتوى في الثورة.

****

تبدّى الجلال في الثورة في ما ولّدته الظاهرات غير العادية، والشجاعة غير المألوفة التي أظهرها الثوّار، من شعورٍ دفع إلى فرح غير عادي ممزوج بعاطفة التقدير العالي والاحترام، وولّد لذّة مركّبة من ألم ومتعة محفوفة بدهشة العقل الروحية. إلى ذلك، فإن جلال الثورة قد فاجأ العالم وهزَّه، كونه ارتبط بشعور الشعب السوري الثائر بقدرة الثورة على خلق واقع جديد يكون وليداً لقواه المبدِعة، ولمحاولته الارتقاء على ذاته، وتأكيد التصميم على الإمساك بمصيره وشروط وجوده في العالم. وقد بدا جلال الثورة أوضح من خلال تقابله مع دناءة نظام يسيطر عليه الجانب الغريزي والفظاعة والتشوّه والعقم وشهوة السلطة والمال. هذا من جهة.

****

من جهة أخرى، ارتبط الجلال في الثورة السورية ارتباطاً وثيقاً بالمأساة وبالموت. إنه الموت المأسويّ الجليل الذي لزم عن ثورة

حرية وكرامة؛ فاقترن بـ"الشهادة" التي جعلته مبجَّلاً من حيث هو موت من أجل حياة، ومن أجل قضية عادلة. ما دفع بالثائرين إلى مقارعة السلطة التي ظنّت أنها بالقتل ستنهي طموح التغيير الجموح؛ ففضّلوا الموت الحر على عيش العبودية، وأنعشوا المخيال الديني الذي ألهب حماستهم الثورية كما بدا ذلك في شعار "عالجنّة رايحين/ شهداء بالملايين" . قد يحقّ لنا تشبيه موت ثائر سوريّ خرج محتجّاً ضد الظلم والطغيان، بتراجيديا جدّية جداً انتهت نهاية محزِنة تجسّدت في الموت الجليل؛ لكنها تراجيديا لم تولِّد لدى الباقين من الثائرين شعوراً بالألم والحزن الحقيقيين فحسب؛ بل كانت دافعاً هزّهم وعمَّق وعيهم ونقَّى عاطفتهم من أجل الاستمرار في الثورة؛ لأن موت الثائر هنا لم يكن موتاً للمثل الأعلى للثورة المتمثل في إسقاط النظام العسكري/ الأمنيّ، وتشييد دولة من شانها احترام الإنسان. وعلى هذا، تظلّ القضية التي مات من أجلها الثائر جديرة بأن يواصل الآخرون من بعده النضال؛ ما دامت قضية وجوديّة مصيريّة تمسّ جميع الثائرين. ومتى غدا المصير المأسويّ ثمناً مبرِّراً للانتصار الأخلاقي الذي أحرزه الثائر بموته؛ فإن شعار "الموت ولا المذلة" يُفصِح حينها عن ضرورة تاريخية تساهم في صنع المثل الأعلى للثورة. فالصراع المأسويّ بين النظام الجائر والشعب الثائر، حوّلت الفرد الثائر الذي يواجه الضرورة التاريخية إلى قوة تاريخية مقابِلة. المُلاحَظ أن المأساة التي تحدّث عنها أرسطو قديماً، والتي تجعل الناس أعلى مما

هم عليه، قد نجحت فعلاً في جعل ثـوار الكرامـة أعلى ممـا هم عليـه؛ وولّـدت لـديهم شـعوراً أخلاقيـاً عميقـاً، وموقفـاً نقـدياً ثوريـاً دفـع إلى التفكير في مستقبل الدولة والفرد والمجتمع. وهذا ما يمكن أن نفسِّر به الإصـرار على إسقاط "نظـام". بـذل قصـارى بطشـه من أجـل تـدمير سوريا، وتمزيق نسيجها الاجتماعيّ.

****

من الصراع المأسوي بين القديم (النظام) والجديـد (الثـورة)؛ نبـعَ الهزل، كقيمة جمالية تصل بين الثائر والثورة، عبر العلاقة والمعايَشة الجماليـة ذاتهـا. تجلّت الهزليـة في الثـورة السـورية من خلال إبـراز التناقض بين بَلى النظام القديم، ومطالبته مـع ذلـك بـأن يُعامَـل معامَلـة الجديد الحيّ الذي يواصـل مسيرة "الإصـلاح". ولأن الثـائر اكتشـف ذلك التناقض في الواقع؛ ولأنه تخطّى النظام القديم ولم يعد أسيره؛ آثر الضحك والسخرية. وقد يكون استبدال الثوار لنسبة الـرئيس من بشـار "الأسد" إلى بشـار "البطة[17]"، أحـد التعبـيرات الحقيقيّـة عن الهزليّـة، كونها تضمَّنت تقويماً نقديًّاً أبعَدَ الثائر السوري عمَّا لم يعد يتمسَّك بـه، وما أصبح غريباً عنه بتحويله إياه إلى أمرٍ مُضحِك. وبما أن الضـحك بحد ذاته ظاهرة فيزيولوجيّة نفسيَّة يلجأ إليها الإنسان أحياناً في أوقات المحن العصيبة للتكيّف إيجابياً مع مآسي الراهن بحفزٍ لقواه؛ فقد عمـد

17 استبدل الثائرون السوريّون نسبة الرئيس بشار، أي الأسد، بـ"البطة" بعد تسريب مراسلات إلكترونية مع زوجته البريطانيّة المولد أسماء الأخرس، تخاطبه فيها بعبارة "يا بطة"

الثوار إلى امتهان النكتة الذكيّة التي قد تساعد في تبديد مزاعم النظام بأنهم "عصابات مسلحة". لعل الفيديوات التي صوّر فيها ناشطون في محافظة حمص (عاصمة الثورة السورية[18])، في جوّ كوميديّ ساخِر، أسلحة وقنابلَ ومدافعَ تم تصميمها من خضر وعلب عصير فارغة واسطوانات (في بدايات الثورة)، أمثلة قد تدلّل على علاقة جماليّة اتخذت من الهزليّة رابطة تربط بين الثائر وثورته. هزليّة طالت المجتمع الدولي أيضاً، ساخرةً من مواقف لا ترقى إلى مصاف ثورة بهذا الرقي؛ مثلما لا ترقى إلى مستوى شعب يتعرّض إلى حرب إبادة وجرائم ضد الإنسانية. لافتات كفرنبل بريف محافظة إدلب التي تضمّنت رسوماً كاريكاتورية، وعبارات سياسيّة فضحت تواطؤ زعماء العالم، تدخل في إطار الأمثلة المهمة على ذلك. إذ كفرنبل (ضمير الثورة السورية[19]) قدّمت لغة سياسية متطوّرة ولمّاحة، ما يؤكّد قوة الثورة في تحدّيها لشرور العالم بأسره.

---

18 تقع حمص على نهر العاصي في منطقة زراعية خصبة هي سهل الغاب، تتوسط البلاد، وتصل المحافظات الجنوبية بالمحافظات الساحلية والشمالية والشرقية، وفيها أكبر عقدة مواصلات في سوريا بحكم موقعها، ما أكسبها موقعاً تجارياً مهماً، إضافة إلى العديد من المرافق الحيوية. ربما لهذا السبب سُمّيت حمص "عاصمة الثورة". إضافة إلى ما تميّزت به الثورة في حمص من خصوصية وفرادة وزخم ثوري.

19 كفرنبل: مدينة، وناحية إدارية تابعة لمنطقة معرة النعمان في محافظة إدلب. كانت المدينة من أوائل المدن التي انتفضت وشاركت في التظاهرات السِّلميَّة ضد النظام ورئيسه, واشتهرت بلافتاتها المميَّزة والمعبِّرة، وبروح الفكاهة والنكتة لدى أهلها، ما جعل السوريين الثائرين يسمُّونها " ضمير الثورة السورية ". تحرَّرت المدينة بتاريخ 10آب2012. كانت لافتاتها في البداية تحمل توقيع "كفرنبل المحتلة"، ثم "كفرنبل قيد التحرير"، وبعدها "كفرنبل المحرَّرة"، وصولاً إلى"الثورة السورية – كفرنبل".

إن انطواء الثورة على الضحك والنكتة، يحضّ المرء على التفكّر في صفات من مثل: التصلّب والتعصّب المشحون بإيديولوجيا الحزب الواحد، والعنت والعبوس والتجهّم، والقمع والاستبداد وغيرها من الصفات "الجدّية" التي تأصّلت في نظام "الصمود". و"الممانعة" السوريّ، مُفضيةً إلى كره هذا النظام للمرح والفرح والحياة. ما قد يدفع تالياً إلى عقد مقارَنة بينه وبين نظام الكنيسة في القرون الوسطى، الذي انصبّ كل تفكيره على العذاب الأبديّ وحياة ما بعد القبر وإقصاء كل ما من شأنه الفرح والحيوية. عبر هذه المقارنة البسيطة قد يتاح إمكان استشفاف عمق الثورة السورية، كثورة حياة تنتصر للإنسان الفرد "العادي"، وتُظهِر شقاء الإنسان المتجهِّم، العبوس، المثقَل المهموم بقضايا منافقة وإيديولوجيات عملاقة ضخمة، ووهم الإنسان الجامد الصامد إلى الأبد.

الثورة والسيادة

ما السيادة؟ مَن هي سيدة سوريا؟. لا تزعم هذه السطور بأنها تقدّم إجابة "شافية" عن هذين السؤالين، بقدر ما تحاول التعاطي معهما كمفتاحَين للتفكر الحرّ، والتأمّل دونما تحديد وتأطير، واختزال وقولبة وتنميط. فبالسؤال نتمرّد، ونفكّ من ثم، الحصارَ عن عقولنا. التأمل في السؤالين، من شأنه ربما أن يدفع العقلَ إلى إجراء مراجعةٍ نقدية تمعنُ في السلبيّ والإيجابيّ لما حدثَ على "أرضه"، أي العقل، خلال سنوات "الربيع العربي" المستمرّة، ذلك أن مفاهيم وتصورات كثيرة "انهارت" في الواقع داخل الذهن المكدود في الجسد المكدود، ونبتت تصورات أخرى جديدة، أو فلنقل، انفتحت آفاق للتأمّل في ما ينطوي عليه الذهن. أتاح هذا الانفتاح فرصةَ مجادلة ما في الذهن، مقارعته، ومناقشته، إلى آخر ما هنالك من سُبل التمرد على القديم والسائد والمهيمن.

كالفارق بين الموت والحياة، صار الفارق بين اصطلاح "السيدة الأولى" مثلاً، والسيدة الحرة. هذه الأخيرة في وجهها المشرق الأهم على الإطلاق، هي ثائرة، مهاجرة إلى ذاتها، ساكبةُ ضوءٍ في سهول ممتدة، نهاياتُها مفتوحة على سلاسل جبلية، مغسولة الروح من الشوائب، مانحة حياة، يصعب أن تفعل شيئاً "جميلاً وحقيقياً" ما لم يكن قلبُها قد خفق له، عظيمة بأعمالها "العليا"، حكيمة رحيمة يستصرخها المكروبون المعذَّبون، منصتة، تقود إلى النور المفضي بدوره إلى عالمٍ كلَّ الناس فيه دمهم، أو سائل الحياة في أجسامهم لونه

أحمر، وقفتها سامقة، حضورها أنثويّ مرادف للوجود العميق للعالم. بينما الأولى، أعني "السيدة الأولى"، وهو اصطلاح درجت عادة إطلاقه على زوجات الحكام والملوك والرؤساء والزعماء، فهو شديد الارتباط بالسلطة في معناها الذكوري المتسلّط. شديد الارتباط أيضاً بالبذخ وبالقصور والمناصب والجشع الأعمى وتسطيح الحياة وتسخيفها والاستهانة بها وبالناس والعقول، وهو، على غرار العنصرية في تمجيد العرق الآري، ينطوي على تمجيد نسوة الحكام والزعماء والرؤساء باعتبار هؤلاء جميعاً، أصحاب دمٍ أزرق!

إن الإمعان في فحوى اصطلاح "السيدة الأولى" ومغزاه، يبيّن خطلَ الحكم على البشر بناءً على ترتيبهم وتبويبهم "أول. ثانٍ. ثالث..."، وقد تعمدتُ الحديث عن السيدة الحرة آنفاً، بادئةً بـ"هذه الأخيرة"، فقط لأساهمَ في الكشفِ أكثر عن هذا الخطل، إذ ليس عدلاً أن تكون هناك قواعد ناجزة ومسبقة الصنع يُحكَم على البشر من خلالها، فقد تكون "الأخيرة" أهم بما لا يقاس من "الأولى". في ما يخصّ هذه الأخيرة، أعني الأولى، فقد برهنت ثورات "الربيع العربي"، أكثر فأكثر أن اصطلاح "السيدة الأولى" مترعٌ بالذكورية، أو هو في الأساس، من صنعِ ذهنيّة ذكورية، وحسبنا ربما أن نتأمّل ونفكر في الكيفية التي تصرّفت بها هذه "السيدة الأولى"- أو تلك، حيال ثورات شعوبٍ مسالمة أرادت بعد طول ذلّ ومهانة، نزعَ حريتها من سجّانيها، والتمردَ على الواقع الظالم المفروض عليها كواقعٍ أبديّ. ثم

نفكر ونتأمل تالياً، في الكيفية التي تصرفت بها هذه "السيدة الأولى"- أو تلك، حيال مواجهة الأزواج(خصوصاً في سوريا)، أي حكّام هذه الشعوب الثائرة المسالمة، لهذه الثورات، بالقتل وبالتعذيب والتنكيل، بقتل الأطفال خصوصاً وتشريدهم، وتدمير البيت/الوطن، أو البلد الذي "يتسيّده" زوج هذه "السيدة الأولى" أو تلك، باعتباره رأس السلطة و"تتسيّده" هي باعتبارها "عقيلة" رأس السلطة؛ حسبنا أن نفكر ونتأمّل في ذلك كلّه، حتى نكتشف كم أن اصطلاح "السيدة الأولى"، نُحِتَ ليوائم تماماً السلطة في معناها الذكوريّ الحربيّ الاستعلائيّ البحت. فبدلاً من أن تكون "السيدة الأولى"، أولى فعلاً كامرأة، كأنثى حقيقية، كرمز للسلام والوئام، وراعية المتعبين فعلاً، نراها قد انحازت إلى الحرب، إلى الجيوش النظامية، إلى مناصرة المجرمين والقتلة الذكوريين ضد المقهورين والمحرومين والمظلومين. إن "السيدة الأولى" هي جزء من منظومة سلطوية متسلطة وذكورية، داخلة في تكوينها وتركيبها و"طبيعتها" و"جوهرها"، ما يعني صعوبة انفكاكها عنها.

****

بما أن للغة مهمات شتى، منها ما يرسم العالم في أذهان المتحدثين بها، فقد يحصل أن تتلاعب هذه اللغة بالوعي الذي يقع فريسة شبكة المتلاعبين بالعقول، خصوصاً تلك الوسنانة التي غلبها النعاس.

وعليه، فإن اصطلاحاً من قبيل "السيدة الأولى" منحوت في الأصل لكي يوحي بالعظَمة والحشمة والوقار والجلال، وهذه المعاني كلّها توحي بها مفردة أخرى منحوتة على غرار الاصطلاح المذكور "السيدة الأولى"، أي مفردة "عقيلة" التي وردت معانيها التي تدلّ على العظَمة والحشمة والوقار والجلال في "لسان العرب". لكن في هذا المصدر نفسه، ورد معنى آخر لمفردة "عقيلة"، ألا وهو "السيدة المخدَّرة". قد يكون المعنى الأخير هذا، أقرب ما يكون لحال "السيدة الأولى"، و"خير" ما يوصّفها. إذ هي "سيدة مخدَّرة" بالفعل، تحرّكها خيوط السلطة الذكورية، بعدما انعكس "التخدير" الذكوريّ على روحها تشويشاً وإفراغاً من الأنوثة الحقة، فباتت مشاركة في الشقاق وإحداث العماء، ومنصرفة عن التفكير الجدير، عن كل تفكير. يرغمني هذا الانصراف عن التفكير هنا، على الذهاب إلى إحدى فيلسوفات المدرسة الفيثاغورية المبكرة، أعني ثيانو[20] في قولها: **" لَأَنْ تكوني فوق ظهر حصانٍ جامح، خيرٌ لكِ من أن تكوني امرأة لا تفكر..!**. بالمناسبة، كل مبكّر، كل مبادر هو أنثوي، إذ المتأخر، ما يتأخر دوماً، مَن يقطع الصلة والوصل والتواصل، ذكوريّ طبعاً.

---

20 **ثيانو Theano (حوالي 500 ق.م)، هي، إضافة إلى أريجنوت Arignote وميميا Myia، فيلسوفة من فيلسوفات المدرسة الفيثاغورية المبكرة أو الأولى أو الأصلية التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد. من كتاب "نساء فلاسفة"، إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي 1996.**

****

كنت "أتمشّى" في "الفضاء الأزرق الفيسبوكيّ" ذات يوم، حين مررتُ بأحدهم ينده على أمه في أبهى صورها. أمّه التي بزيّها التقليدي الحوراني البهيّ، الجالسة على كرسيّ خشبيّ، صافنة واضعةً يد على خدّها وأخرى آثرت مدّها برفق على طاولة أمامها، استوت عليها بضعُ صحون تحوي القليلَ من الأطعمة والحلويات. كان يناديها كتابةً قائلاً:" يا سيدة الصالونات، أيتها الحورانية، منتهى الرقي، أين أنتن يا نساء الزمن الجميل في حوران؟. خُيِّل إليّ أن من خلال "نداءٍ" من هذا الطراز، ومن خلال كل النداءات المشابهة، يكون بعضاً من السائد قد كُسِر مرة أخرى، إذ ليس ضرورياً أن تكون "سيدة الصالونات"، فقط من طراز مي زيادة مثلاً، أو ولّادة بنت المستكفي، وغير هاتين الأديبتَين الجميلتَين المبدعتَين. إذ "أدب الحياة" من شأنه أن ينتج أيضاً سيدة مترعة بالحب، تكون في الآن عينه، "سيدة النواميس الثورية"، مزدانة بالحُلى العظيمة، ومدمِّرة بأجنحة العاصفة كمَن تنزل من علياء سمائها لتفرِّق بين الأخيار والأشرار. وتفصل بين الحق والباطل، مشرقة، بزينتها وابتسامتها وألوانها وجمالها وسحرها تظهرُ قباحةَ بعض الذكور. وحضورهم الثقيل في هذا العالم. هكذا تتبدَّد ربما الأوهام حول مفهوم "السيدة" الناجز، وإذ تتبدَّد الأوهام؛ تبدأ الحكمة، وتبدأ النشوة واللذة في مراقبة

المفاهيم المضرَمة وهي تحترق بترنيمةٍ سحريّة أنثوية كإشراقةٍ في كهف. كنجوم مضيئة في ليالٍ رائقة.

- "إنما جئتُ لأدمرَ أعمالَ الأنثى!" كليمان السكندري[21]

21 أحد آباء الكنيسة توفي سنة 612 م.

ترتسم في الذهنية العامة الذكورية في مجتمعاتنا على سبيل التخصيص، صورةٌ بشعة للمرأة، هي صورة المرأة الشيطانة الخائنة. حسناً، بما أن البلاد، هذه البلاد بالذات لها سيادة، وهي أوطان بمثابة بيوت لها كرامة و"حُرمة مقدَّسة"؛ لنا الحق في أن نسأل: مَن خان هذه البلاد منتهكاً سيادتها؟! مَن خان سوريا مثلاً؟ مَن انتهك سيادتها وجعلها في المهب الرهيب هذا؟! النساء؟ أم الرجال-الذكور؟ مَن يمسك بزمام السلطة والسلطان في هذا البلد، أوليس الذكور؟ أوليس النظام الحاكم في سوريا ذكوريّاً؟ لو أنّ النظام عندنا أنثوي الطابع والطبيعة، لو أنّ المرأة هي التي تحكم، لما انتُهكت سيادة سوريا، لأن المرأة تدرك جيداً بإحساسها الأموميّ الخارق أهمية "البيت" وحمايته وصون كرامته، كيف لا وهي في الأصل والأساس مصدر القيمة وروح الجماعة وعماد الأسرة. إن عنف المرأة عنف حكيمٌ للدفاع عن النفس فحسب، لكن حرب الذكور توسّعية من شأنها أن تمتد وتتمدَّد، لكي تتأكّد معها انتهازيات الحيازة وهرمية السلطة وتتجذّر!.

حين "عُسكِرت" الثورة السورية السلمية الشعبية، عنوةً بعد طول صبر على بطش قوبلت به قلّ نظيره، بدت الحياة كأنها قد انتقلت من طور الولادة إلى طور الإبادة، ومثلما حُرف مسار الإنسانية من عصر الأمومة والربوبية ومفهوم الأنثى الخالقة من غير ذكر، إلى عصر الذكورية والحرب والهيمنة، ثم راحت البشرية تحاول تصحيح المسار، كذلك الثورة السورية، حُرفت عن مسارها

المدني الديموقراطي المسالم، ما يعني ضرورة تصحيح المسار أيضاً، وإعادة المحاولة كلّما فشلت أو أُفشِلَت. مثلما تهدد بقوة، روحُ الأنوثة سيادةَ الرجل - الذكر، كذلك تشكّل الثورة المدنية السلمية خطراً داهماً على النظام الذكوري العسكريّ أو الدينيّ.

****

أحد منتهكي سيادة سوريا، هو حزب طائفيّ إيراني- لبناني، اسمه "حزب الله". بقدر ما يثير هذا الانتهاك السخطَ وكل أنواع الغضب أولاً، وضرورة المقاومة الحقيقية تالياً، لدى الأحرار أينما كانوا وانوجدوا؛ أيضاً يثير السخطَ أولاً وضرورة النقد الحازم تالياً، لدى الأحرار، استبدالُ اسم "حزب الله" بـ"حزب اللات"، من جهة خصومٍ لا يعرفون ما يقولون ربما، أو يعرفون ويستمرئون ويستمرّون في القول انتقاماً من الحزب المذكور- ومن الأنثى دفعة واحدة. فـ"اللات" كانت واحدة من الآلهة الأنثى التي عبدها العرب قبل الإسلام هي والعُزَّى ومناة. الإلهات اللواتي وردَ ذكرهنّ في القرآن الكريم، في سورة "النجم". يبدو أن استبدالَ "الله" بـ"اللات" هنا، له دلالات يكشف بعضها عن ذهنية تسعى إلى تبرئة "الله" باعتباره ذكراً، من هذا الحزب المجرم، وإضفاء سمة أنثوية على إجرامه من خلال نعته بآلهة أنثوية، أي "اللات"!. من ناحية أخرى، يدخل استبدال "حزب الله" بـ"حزب اللات" ضمن المعمعة السخيفة المعروفة، حيث كلّما

شاء لهذا أو ذاك أن يهين رجلاً أو حزباً ذكورياً كـ"حزب الله"، لجأ إلى نزعِ القوة عنه المتمثلة بالرجولة، واتهامه بالضعف المتجسّد بالأنوثة. طبعاً وفق فهم أولئك للقوة والضعف، لا كما هما في "الحقيقة" وفي الطبيعة.

.... وهكذا يستمرّ تدمير أعمال الأنثى! وتستمرّ في المقابل مقاومة روحها الشّعرية لهذا التدمير، حيث كلّما سرت ظنونٌ مفادها موتها، تروح روحها تنثر عطراً فوّاحاً يثير غيظ الكارهين وغيرتهم.

ـ الاغتصاب بوصفه اضطهاداً للتعيُّن

بصوت هادىء مرتجف، سألَت ألمى شحود، خلال مقابلة أجرتها معها إحدى الفضائيات: "طيّب، ضرب فهمنا تعذيب فهمنا. بس

اعتداء جنسي ليش؟!". بدت هذه المرأة الثائرة التي صارت قصّتها معروفة ربما. المرأة التي عاشت الثورة إلى أقصاها، والتي كانت الوحيدة ربما التي تكلّمت عن اغتصابها في معتقَلٍ تابعٍ للنظام الأسدي، علانيّةً بوجه مكشوف؛ بدت، بجسمها المشلول الممدَّد على سرير العلاج، كأنها في حال تأمّل في ذاتها العميقة، توجّه سؤالها إياه لنفسها، لا لمَن يُجري المقابلة، ولا للكاميرا والناس. سألتْ، ومع سؤالها سقطت دمعة وحيدة عتيدة من طرف عينها. دمعة واحدة وحيدة، وشَت بجروح إنسانية أنثوية غائرة هائلة تمور في أعماقها وبواطنها. جروح تلك المرأة، يصعب على غير المرأة، المرأة الأنثى، فهمها والشعور بها. مَن يدري؟ ربما لهذا السبب بالذات، لم تخرج في جنازتها، حسبما قيل إعلامياً، إلا امرأتان! أما أنا، كاتبة هذه السطور، فحسبيَ أن أقول لروح السيدة ألمى ولكل "ألمى": لقد آلمني جسدكِ. فلتعلمي أنكِ تزيدين على شرفِ ثورةٍ اندلعت من أجل الحرية والانعتاق، شرفاً مضاعَفاً". كلّ امرأة منّا سرّ كونيّ لا يملك موهبة اكتناهه أحد.

****

أحد الأسباب التي دفعت الأنظمة في دول "الربيع العربي"، خصوصاً في سوريا، إلى قمعِ ثوراتها الشعبية بالحديد والنار، كان تجسّد الجسد واستحالته جسماً، أي انتقال الشعب من مقولة وشعار وأدلوجة وفكرة

مجـرَّدة ومثـال، إلى تعيّن، إلى حيّـزٍ واقعيّ، مكـاني حسّـيّ، فعليّ، حيويّ، أنطولوجيّ، مشخَّص وله دور وفعل وفاعلية. وحيث أن جسد المرأة؛ مسيَّس ومؤطَّر بشكل مضاعَف، فقد كان القمع الأعنف هو ذاك الواقع على جسدها اغتصاباً، حين حاول هذا الجسد أن يستحيل جسماً، أي أن ينتقل من السكون إلى الحركة، أو من طور المفعول به إلى طور الفاعل، هنا كان لابد للسلطة أو النظام الحاكم، من اضطهاد هذا الجسد كمحاولة فظيعة مريعة لمنعه من أن يتعيَّن، فجرى اغتصابه وانتهاك سيادته. إن الغاية من الاغتصاب هنا، هي سلب "سيادة" المرأة الحرة على جسمها. إذ ممنوع عليها أن تكون "سيدة".

****

ما يعمّق الجرح الأنثوي والإنساني، في ما يخصّ الاغتصاب عموماً، واغتصاب المرأة خصوصاً، هو أنه غالباً ما تغيب محاسبة ومعاقبة المنتهكين سيادة النساء. كأن الاغتصاب محميّ بقانون ذكوري!. تحضرني هنا الأسطورة الآتية: "في يوم من الأيام كانت الربّة إنانا قد تنقّلت عدة مرات بين السماوات والأرض، فأدركها التعب وبلغ بها الإنهاك غايته، فتمدَّدت في بستان، لتستريحَ تحت ظلال شجرة الساراباتو الوارفة، فغلبها النوم، وكان شوكاليتودا صاحب البستان، يرقبها من بعيد، من بين فروع شجر الساراباتو. فلما رآها منهَكة، وقد لعب الهواء بثوبها، فتعرّى جسمها، تسلّل إليها بحرص، واقترب حتى

تأكد من أنها راحت في سبات عميق، من شدة التعب. فانتهكها جنسياً، وهرب. ولما صحت إنانا من نومها، نظرت إلى نفسها في فزع، فأدركت ما حدث، وعزمت على الانتقام من هذا الرجل الذي اغتصبها بهذا الأسلوب المخزي، وقرَّرت أن تصطاده بأي ثمن. أرسلت الربة ثلاث كوارث على سومر، الأولى ملء كل الآبار بالدم، حتى فاضت مزارع النخيل والكروم، كلّها دماً. والثانية، ريح عاتية وزوابع مدمِّرة. والثالثة غير مؤكدة (لأن سطور اللوح المسماري مهشَّمة في هذا الموضع) ومع ذلك كلّه لم تظفر إنانا بمغتصبها شوكاليتودا لأنه كان يذهب بعد كل كارثة إلى أبيه، ليستشيره فينصحه الأب بالاختباء بين أخوته ذوي الرؤوس السوداء، أي أهل سومر، وأن يلازم مركز المدينة. وأطاع شوكاليتودا نصائح أبيه، فعجزت إنانا عن الانتقام منه، ومضت باكية إلى مدينة إريدو مقرّ أبيها إله الحكمة السومري إنكي لتشكو له ما جرى معها.[22] ".

في ضوء الأسطورة المؤثرة تلك، ربما يصير في الإمكان معرفة لماذا تلجأ المرأة أحياناً، كحلّ أخير إلى الاحتماء أو طلب الحماية من الرجل في مواجهة الرجل(لجوء إنانا إلى أبيها أخيراً)، بعدما تكون قد"أُفشِلت"، بطريقة تآمرية وضيعة، كلُّ محاولاتها في حماية نفسها بنفسها. يبدو أن هناك مَن يريدها أن تظلّ قابعة "تحت حماية". في

22 من رواية "ظل الأفعى"، يوسف زيدان.

إعادة قراءة الأسطورة نفسها، لنا أيضاً أن نتساءل حول أسباب طلب الأب من ابنه المغتصِب ملازمةَ "مركز المدينة". قد يكون مردّ ذلك إلى أنّ المركز هو رمز للسلطة، وبالتالي فالاغتصاب محميّ مباشرة من السلطة المركزية. معلومُ أيضاً أن مَن نقلَ الإنسان من التوحش إلى التمدّن هي المرأة، وعليه، ففي الأسطورة هنا، ما يشي بالانتقام من المدينة والمدنيّة، ومن الحضارة التي هي أصلاً مكان المرأة ومكانتها؛ من خلال جعْلِ مركز المدينة، ذكوريّ يقيم فيه ذكرٌ مغتصِبٌ للمرأة، ولأعمالها ومكانتها.

****

ثمة مسألة وثيقة الصلة بالاغتصاب، لا بدّ من الالتفات إليها أيضاً، ألا وهي مسألة "تسييس العرض". كلّما اشتعل حدثٌ يهدد مصالح نظام ما، أو سلطة ما، أو حزب ما أو جماعة ما..؛ يروح الذكوريون يرفعون شعارَ "حماية العرض" وإلصاقه طبعاً بـ"حماية الأرض"، باعتبار أن العرض والأرض متلازمان، وكلاهما في حاجةٍ إلى حرث وحراسة ذكوريَّين. لكن من أبشع التناقضات في هذا الصدد، هو تسييس العرض، بحيث تصير "امرأتهم"، أي المرأة التي تقع في موضع الخصم أو العدوّ، مباحة مستباحة، وتختلف هذه الاستباحة بحسب اختلاف المصلحة والمنفعة سلباً أو إيجاباً، وما من اختلاف في ذلك بين نظام مستبد ذكوري عسكري، ونظام مستبد ذكوري ديني. قد

يحصل، على سبيل المثال، في واقعنا هذا، أن يتبنّى زعيم حركةٍ دينية ما شعارَ "حماية الأرض والعرض"، وحين يحصل أن تُعتقل من النظام الذي يزعم هذا الزعيم وحركته، معارضتَه، امرأةٌ معارضة للنظام نفسه أو ثائرة حرة "مدنيّة" تنتمي إلى منطقة الزعيم وحركته نفسها، لا يحرّك هذا الزعيم وحركته الدينية ساكناً، لكن حين يحصل أن تُخطَف مثلاً امرأة "متديّنة"، يقيم الزعيم نفسه وحركته الدينية، الدنيا ولا يُقعدها. هنا بالذات، تظهر صورة "تسييس العرض" واضحة جليّة لا لبس فيها، ويظهر كذلك، إلى أي مدى يكره الذكور المرأة الحقيقية الثائرة الواعية بذاتها وبحريتها، ويخشونها، ويحاولون طمرها وغمرها كونها، من وجهة نظرهم، في حاجة ماسة إلى "تمكين" دائم ومستمر لا ينتهي!.

****

عبثاً ربما نحاول في هذا الزمان، احتواءَ الأحزان كي لا تحتوينا. لا شيء أثقل على النفس الحرة الحرّى من الرضوخ للأمر الواقع، لعل هذا ما يصيب وجود المرأة الحرة الثائرة بمقتل في المنفى الداخلي وفي المنفى الخارجيّ على السواء. تُرى أي أوطان بخيلة وقاسية هذه، التي لا تعطينا لو فرصة واحدة فقط لكي "يتعيَّن" فكرنا، حبّنا، شعورنا، قلقنا، حُلمنا، هاجسنا، نيّتنا الصافية، إخلاصنا، شغفنا..؟! إن

الطيبة الفائقة من شأنها أن تجلب خذلاناً فائقاً، يجعل المرأة أحياناً كمثلِ مصباحٍ وحيد خافت!

الثورة والنزوح

إلى جانب مآسٍ كارثية لحقت بملايين السوريين، فأخذت المدائن الثائرة تقفر منهم واحدة في إثر واحدة، حين هربوا غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً، داخل البلاد وخارجها، سعياً وراء البقاء؛ في الإمكان رصد ملمح لهذا التشرّد ربما يكون مفيداً معيناً على مواصلة الحياة بالنسبة إلى البعض، أو المحافظة على ما تبقّى منها بالنسبة إلى البعض الآخر.

حال مَن بات لاجئاً بعد إحراق مدينته وإفناء بيته، قد تشبه حال العشب. حال الامتداد الأفقي والاتساع، ملء الفراغات، اللاتجذّر، التدفق من أي نقطة، قد تتسع معه فضاءات العقل والقلب، وينعتق الروح من أصولية الأشجار ذات الاتجاه الواحد، العمودية، التمسمر في المكان، الذاكرة المزدحمة المثقَلة، والخطّية الممثَّلة في بداية – نهاية، محددتَين تحديداً صارماً، يضيق بينهما العقل والصدر. وحيث أن العشب معلّم طبيعي ربما للحرية، التنوع، الكونية، فإن التاريخ معلّم ما لا يحصى من حِكَم، منها: أن إحراق مدينة من المدائن، لا يكون في جميع الأحوال من الكوارث الأبدية التي تُبتلى بها. انطبق هذا على كثير من المدائن التي أُحرقت في سالف الأزمان، ثم عادت ونهضت وازدهرت وتعمَّرت. وقد ينطبق الأمر نفسه على المدائن السورية التي أحرقها الأسد وشبّيحته إخلاصاً لشعارهم "الأسد أو نحرق البلد". يوماً ما، قد يعود اللاجئون السوريون إلى مدائنهم الأم، يضعون فيها غمار تجارب عاشوها في رحلة اللجوء،

قد تكون صقلتهم بما يكفي لتعميرها من جديد. يحيون في مدائنهم فعلاً ونبضـاً، مشـاعر "حب المكـان" الـتي طالمـا كـانت مؤجلـة تنتظـر فرصتها الموائمة.

- في عالم الممكن

إدراك الزمان مسألة أعقد من إدراك المكان. ربما يرجع ذلك إلى طبيعة الزمان ذاته كموضوع للمعرفة. فالزمان ديمومة، وإدراكه ليس إلا إدراك الحركة، والتغيرات المتتالية التي يعيشها الإنسان، والتحولات المتتابعة التي يخضعه لها محيطه هو باعتباره جزءاً من المحيط نفسه. هكذا، يسهل تشوّه إدراك الزمان تبعاً لعوامل ذاتية، كحال الشخص في الانتظار.

انتظار اللاجئين السوريين سقوط النظام، انتظارهم اللحظة التي يعودون فيها إلى وطنهم، انتظارهم مساعدات إنسانية ومعونات إغاثية، انتظارهم فتح الحدود أو استقبالهم في هذه الدولة أو تلك، وانتظارهم تصريحات ومواقف وأعمال وأشغال وانفراج في الأحوال...؛ ذلك كله وغيره من الانتظارات، قد يجعل أولئك يعيشون في عالمٍ ميزته الأساسية، الممكن. إنه عالم الممكن(العشب)، المفتوح على احتمالات وظنون وتكهّنات وحدوس. ما يعني تلاشي اليقين، في معنى ما. اليقين (الأشجار)، الذي يلازم في العادة، الراسخ في المكان، المتأصل.

يبدو عالم الممكن كأنه مغادرة الديمومة والثبات والانتظام الدقيق في تقسيمات الزمن. خلاصٌ من الضرورة التي يفرضها الاستقرار في المكان، واكتشاف الحرية من أسْر المُلكية واختبار التخفف من أثقالها

لدى سوريين خسروا كل ما يملكون ورحلوا حتى من دون أوراق ثبوتية. ذلك كله، قد يفضي إلى التحرر من العادة كتكرار، لصالح بدايات جديدة، وتجارب جديدة تنبثق دوماً. لكل واحدة منها فرادتها، تحمل في جوهرها تاريخاً لا يتكرر. ميزة الترحال، أنه صيرورة وجود وعدم في آن واحد، لا مجال للحديث عن يقينيات في ظلّها أو ثوابت.

على الضفة الأخرى لعالم الممكن نفسه، قد يصنع اللاجئ "فردوسه المفقود". يرسم في ذهنه صورة لـ"البيت الأم"، تعبّر عن حاجته إلى الاستقرار والارتباط بالتربة، وعن رغبته العميقة في السكينة والهدوء والحماية والأمن، في وجودِ أمّ تلمّ، تضمّ الأولاد تحت جناحيها بحبّ. قد تساعد صورة البيت نفسها، على تحمّل التعاسة والشقاء والحزن والغربة والاغتراب. فعالم الممكن، ذلك المكان السعيد، لا يتحقق فيه أكبر قدر ممكن من التكثيف فحسب، بل هو موطن أحلام التمدّد والاتساع والانطلاق.

في رحلة اللجوء الممهورة بالعذاب والكشف. رحلة الدخول في عالمٍ ممكن، تجوز فيه الممكنات جميعاً، قد تتجلى بوضوح، مشاعر "حب المكان"، وما ينشأ حوله من صور السعادة والحبور. حبّ خاص بالمكان الذي تم اللجوء إليه كمأوى، وكان حاضناً في معنى ما، ضامناً الأمن والسلامة. وآخر يجلّله الشوق والتوق، خاص بالمكان الذي تمّ هجره. قد تتجلى بوضوح أيضاً، مشاعر "عدوانية

المكان"، وما يتولّد عنها من صور الحقد والاستفزاز. عدوانية خاصة بالمكان الذي تم اللجوء إليه باعتباره غريباً وموحشاً. وأخرى خاصة بالمكان الأصلي المتروك، مكان الكراهية والصراع والتوحش والمشاهد الكابوسية. إذا كانت مشاعر حب المكان هنا، مؤجلة تنتظر فرصتها الموائمة، فعدوانية المكان أيضاً مؤجلة تنتظر فرصتها الموائمة.

تُرى كيف يشعر اللاجئ، في خلوته الداخلية، الجوّانية، العميقة، الفريدة. هناك، حيث تكون الذات خالصة، في حد ذاتها ولذاتها، مجرّدة، عارية؟ كيف يشعر مَن اعتاد ممارسة وحدته الخالصة في حجرته الخاصة، ثم فجأة، صار لزاماً عليه أن يكون كائناً عاماً، يتقاسم والجموع خيمةً واحدة، غرفة صف واحدة في مدرسة، مهجعاً واحداً، أغطية مشتركة، وأدوات طعام أو تنظيف مشتركة؟ وكيف يشعر مَن يشعر أن وجوده قد يثير انزعاج الآخر، ربما بالدرجة نفسها التي يعاني فيها الشعور نفسه حيال الآخر نفسه؟ الأسئلة تلك، وما شابهها ربما يندر طرحها، وربما لا تخطر على بال، أو قد يُنظَر إليها كنوع من الترف، في حضرة الهاجس الأهم المشدود صوب الحاجات الأولية من غذاء وماء ودواء. غير أن التأمل في الذات البشرية، قد يدفع إلى عدم اعتبار ذاك الطراز من الأسئلة، ترفاً. إذ ليس عدلاً، اختزال الإنسان في جانب بيولوجي، أو اختصاره في تعريف من قبيل: "حيوان اجتماعي". فلو تُرِك الأمر

لاختياره المحض، لربما اختار أن يكون وحيداً، باحثاً عن نفسه في عتمة الذات ومتاهاتها، لكن الحاجة تضطره إلى الاجتماع بالآخرين. لمّا كان المأوى حقا من حقوق الإنسان؛ فالحُجرة الخاصة بالشخص في داخل المأوى، حق من حقوقه أيضاً.

في ظروف كتلك التي ترافق اللجوء، والتي غالباً ما يفقد فيها المرء خصوصيته وفرادة عيشه وتعاطيه الخاص مع تفاصيل الحياة اليومية، تنكمش حريته أو تنعدم، كأن يكون المرء معتاداً قراءة الكتب أو سماع الموسيقى مثلاً في جو معيّن، أو ارتداء لباس معيّن، أو النوم بطريقة معينة؛ ثم يصير محروماً من جلّ ما يخصّه ويعنيه، كونه لم يعد حراً في ممارسة يومياته الخاصة كما يريد، في حضرة جموع لم يعودوا أحراراً في ممارسة يومياتهم الخاصة كما يريدون أيضاً. بعض النساء في مخيمات اللجوء في لبنان مثلاً، لم يخلعن الحجاب منذ أشهر طويلة جداً بسبب وجود رجال غرباء في المسكن نفسه، كما روت إحدى العاملات في مجال العمل الإغاثي بالبلد المذكور على إحدى الشاشات، وكم هي كثيرة القصص المليئة المترعة بما يكفي. في ظروف كهذه، ربما يبني المرء، في قاع الذات الداخلي الحميم، حُجرة تطويه في عزلتها البسيطة، وتبعث فيه نوازع النسيان الدفين. كم من حكايات تروى عن ناس لا حُجرة خاصة بهم، لذا غضبوا وجلسوا في أحد الأركان. الركن، رمز للوحدة أو العزلة، ينزوي فيه المرء، رافضاً كبح حياته الخاصة أو إخفائها.

تصبح صورة الحُجرة المبنية في قاع الذات، ركن المرء، وكونه الأول، يألفه ويلجأ إليه كلما ضاق ذرعاً بما هو خارجيّ. يودعه ما يكتنزه من جمال ورؤيا، يبدع فيه ويكتشف، يمارس طقوسه وما يرغب ويريد، يمتلك العالم عبر تصغيره وحشره في الحُجرة. من الحُجرة الصغيرة تنبثق أشياء كبيرة. إنها المخبأ الغامض العجيب الذي يحمي الذات في قبالة عواصف الكون الخارجي، لا يدخلها المرء إلا ليعدّ نفسه للخروج منها. يتأهّب للانفجار، عدوانيةً أو حباً انتظرا طويلاً الفرصة الموائمة.

الثورة والتطرّف الدينيّ

1

لمّا كان الشعب السوري قد ثار على نظام يعتبر نفسه الدولة، ويفهم الدولة على أنها سجون ومعتقلات وجيش وأمن وشرطة، واستبداد واستيلاء على السلطة والثروة، وزجر وقهر وقسر، فإن من البديهي أن يثور على تنظيم أيضاً يعتبر نفسه الدولة، ويفهم الدولة على أنها تكبيل للحريات، واستباحة للكرامات. على ضوء هذا، يمكن استيعاب لافتة يقول المكتوب فيها: "أغلبُنا أصبح مطلوباً للدولتين"، حملها ثائرون في إحدى التظاهرات المناوئة لتنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" (داعش) والنظام الأسدي. النظام والتنظيم، كلاهما يستمد وجوده من أعداء وهميّين، كالغرب وإسرائيل، ويستند إلى إيديولوجيا أو عقيدة مسوِّغة تضمن استمراره في تسلّطه. الاختلاف بينهما يكمن في الألفاظ المستعمَلة فحسب، إذ الأول يعادي الغرب لفظياً كـ"امبريالي"، والآخر يعاديه باعتباره "كافراً"، أمّا عملياً، فالاثنان يضمران، ويبيّنان بالفعل عداوة ضارية لـ"أوطانهم" وناس "أوطانهم" الحقيقيين، الطيبين، الأحرار. يستند الأول إلى إيديولوجيا بعثية طوباوية، معتبراً حزب "البعث العربي الاشتراكي" قائداً للدولة والمجتمع، بينما ينصّب الآخر نفسه مدافعاً عن الله ورسوله، وعن الدين الإسلامي الذي يعتبره ديناً ودولة، مع أنه ما من شيء يُفسد الدين ويشوّهه، مثل الزجّ به في صراعات سياسية دنيوية. نهجُ الأول في التعاطي مع أيّ معارض، خارجٍ على "سننه"، هو التخوين. ونهج الآخر، هو التكفير. في الشكل، من شأن

نظامٍ جوهرُه أمني استخباراتي، كنظام الأسد، لجوء رئيسه ورجاله إلى استراتيجيا إخفاء العيون بنظارات شمسية سوداء. في إجراء كهذا، ثمة خوف وتخويف في آن واحد. إذ وحده الخائف يخيف. يخاف الديكتاتور افتضاح أمره باعتباره كاذباً، فيخيف، وفي كلا الحالين هناك ضعف وعبودية واستعباد. إذ الحرّ لا يخفي نفسه لأنه لا يكذب. ولأنه لا يكذب، لا يخاف، وليس مضطراً للتخويف والاستعباد تالياً. إنه الواضح، المنير، المستنير. ينسحب الأمر عينه على أولئك الملثّمين من رجال تنظيم "داعش". الظلم والظلام والظلامية، سمات جوهرية للنظام والتنظيم. كره النور والحرية والديموقراطية، قاسم مشترك بينهما.

****

لا تشكّل الحرية خطراً على الإيمان والتقوى، بل القضاء عليها من شأنه القضاء على كل ما فيه صلاح للفرد والمجتمع. ربما يكون هذا بعض ما خلص إليه السوريون والسوريات من خلال تجارب مرّة خاضوها مع تنظيم "داعش" في المناطق السورية التي انوجد فيها التنظيم، وبعدما ضاقوا ذرعاً بالتعصب الجاهل، وبفظاعات تُرتكب باسم الدين الإسلامي، وفظاظات تعمّ، بغاية خلقِ الفتن والمصادمات بين الطوائف. مَن يتأمل في الهتافات والشعارات المرفوعة في التظاهرات المناهضة لـ"داعش"، مثل هتاف: "إلّلي بيسرق ثورة خاين. إلّلي بيقصي الآخر خاين" وهو يذكّر بهتاف "اللي بيقتل شعبو

خاين"، قد يصل إلى نتيجة مفادها أن حرية الرأي والتعبير والتفكير ضرورة اجتماعية. الجدير بالذكر هنا، أنه في جلّ هتافاتهم، آثر المحتجون الثائرون، وضع الأسد و"داعش" في الخانة نفسها، بشكل يجلو الأفهام وينمّي الفكر. إن تشابه الاستبدادَين المجرمَين، الأمني العسكري والديني، في الفساد وفي كل شيء، كان من شأنه استعمال المفردات نفسها في الثورة عليهما، فالثورة نفسها التي قالت (مثلاً) من قبلُ للنظام الأسدي:"بدنا نحكي عالمكشوف/حراميّة ما بدنا نشوف"، قالت للتنظيم المرتبط بـ"القاعدة": "داعش دولة حراميّة.

في حين يبدو البعض كأنه سلّم بواقعِ تحوُّل سوريا ساحة مفتوحة، تُصفّى على أرضها حسابات خارجية، وتتنازعها مصالح وأجندات لاوطنية، يصرّ البعض الآخر من السوريين، على ضرورة عدم الاستسلام لهذا الواقع أو التسليم به، بالرغم من استفحاله. ربما لهذا، نجد الإصرار عينه لدى السوريين، على أن الشعب السوري هو مَن يحدد شكل دولته ومصيره، كلما شعروا بأن ثمة مّن يريد سحق كلمتهم وقرارهم. وبما أن الناس يصنعون تاريخهم داخل مجتمعاتهم، كان "طبيعياً"! أن يثور السوريون على تنظيم "داعش" ذي العقيدة التكفيرية الدخيلة على المجتمع السوري. أكثر من ذلك، فإن ربط فكرة الدولة بالإنسان الأنا الحرّ، من شأنه جعْل هذه الفكرة موضوعاً بالفعل، وإلا سوف يبقى الناس مستندين إلى الزائف من كل شيء. لذا،

لم تكن الحرية لتسقط من أذهان مَن ثار من السوريين والسوريات، الحقيقيين والحقيقيات. ثمة لافتة مهمّة، رُفعَت في تظاهرة بمدينة السويداء، في بدايات الثورة بتاريخ 17 نيسان2011، تقول: "إن الشعب هو القائد للدولة والمجتمع" لا "البعث" ولا غيره. قد يكون مفيداً الآن وكل آن، استحضار هذه الجملة وربطها بإرادة حرة، كون العبد لا يصنع تاريخاً.

2

كنتُ أتجوّل في الإنترنت، حين مررتُ بحائطٍ كُتِب عليه: "إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظُوهَا فقالُوا بالرَّأي فضلُّوا وأضَلّوا. الجبهة الإسلامية/مشروع أمة". ليس واضحاً أين التُقِطت صورة ذلك الحائط، لكنها في سوريا، في الغوطة الشرقية ربما حيث تسيطر الجبهة المذكورة التي تنتهي العبارة بتوقيعها. رهبة "التحذير" على الحائط ووهْرتُه، خفَّف منهما، كما ما بدا لي، توقيعٌ آخر لـ"لواء الصقور" على ما أظن، إذ الكلمة الأخيرة غير واضحة تماماً. التوقيع الثاني الذي يبدو أنه جرى تذييل العبارة به، في وقت لاحقٍ من كتابة العبارة بتوقيعها الأصليّ، أدخلَ على جوّ الحائط الرهيب قليلاً من "اللعب والخفّة". فهو مكتوبٌ بطريقة غير مدروسة، غير "أنيقة"، غير متقنة، عفوية، متعرِّجة، طالعة نازلة، وبلون أسود هشّ، حدّتُه أخفّ من حدّة سواد "التحذير"، المكتوب

بطلاء أسود حالك، وباستقامة صارمة لا يشوبها مَيَلان أو انحناء أو تعرّج أو طلوع ونزول، مسدود تماماً لا يتخلّله فراغٌ أو خيوط نور ولا تخربشه هشاشة أو أدنى اتّشاح بالأبيض أو الرماديّ حتى.

وقفتُ بعقلي أمام الحائط أتأمّل. راودتني أسئلة طويلة قصيرة: أليس ما أقرأه رأياً أيضاً، وإن كان ينقصه التبصّر؟ ترى هل يدرك كاتبها أو متبنّيها أنّ ما كتبَه أو ما تبنّاه رأي. رأيه هو بالذات أو رأي مَن اقتبس منه ونقل عنه، وأنّ الرأي هذا خاضع للنقاش بدوره، بل محفِّز عليه، ومولِّد للرأي والجدل والاستفسار والسؤال، من حيث لا يدري، ومن حيث يغلق الأبواب والنوافذ كافة في محاولةٍ بائسة من شأنها أن تحرم الناس، والأجيال القادمة ربما من رأي قد يكون مهمّاً وعلى صواب؟ هل كاتب العبارة نفسه أو متبنّيها نفسه، معصوم من الخطأ لا يضلّ ولا يُضَلَّل على الرغم من حفظه "الأحاديث"؟ ثم، لنكن "واقعيين" قليلاً، هل ينجح كاتب العبارة أو متبنّيها في منْع الرأي وعزل أصحابه في زمن التكنولوجيا هذا؟!

تحثّ العبارة تلك، على معاداة أصحاب الرأي، وتحذّر منهم، عبْر تقديم حجّة واهية ترى في الرأي كسلاً وسهولة يهرع إليه أصحابه هرباً من صعوبة حفظ "الأحاديث"، وترى فيه تالياً ضلالاً وتضليلاً. لكن – وكم تبدو الـ"لكن" هذه ضرورية هنا كما دوماً باعتبارها وقفة نقدية- في العبارة نفسها ثمة كسل ووهن في همّة العقل التي تبدو الأمة في صددها أنها لا تجتمع إلا على ضلالة.

فالتشديد على "الحفظ" المحض، والنقل البحت، من دون أن يكلّف المرء نفسه عناء التفكير والتساؤل حول ما يحفظه أو ما ينقله، يبيِّن كيف تناقض العبارة نفسها بنفسها، فتقع في فخ "الإعياء" ذاته الذي تدينه وتمقته.

العبارة التي نحاول هنا التفكّر فيها باعتبارها رأياً، لكن رأياً مستبدا لا يستند إلى أسس عقلية، هي في طبيعتها، مثل جلّ العبارات أو التعبيرات (الآراء) المماثلة، تدفع بالرأي لكي ينحو إلى السواد والهيمنة والسيطرة. وإذ يهفو الرأي إلى المنحى هذا، يمسي ضعيفاً من ناحية تأثيره الأخلاقي والسلوكي، لأنه بسببٍ من ترديده الآليّ أو الببغائيّ المستمر، لا يعود له أثر في النفوس. في حين تجدّد الآراء المتنوعة، الخصبة والحركية، الحيوية على مستوى العقل والعاطفة والروح والنفس والوجدان والسلوك باستمرار، ويكون تأثيرها أعمق وأرحب. الرأي الواحد هنا، المستبد الجامد الثابت، المتمسّك بالحفظ أو النقل أو الاقتباس فحسب، يصير مجرّد اعتقاد شكليّ، لا يفضي إلى شيء نبيل ولا يُرتجى من ورائه خيرٌ، ويمنع تالياً كل نموّ للعقل أو للتجربة الشخصية الفردية.

خلف الثورة السورية وأمامها وفي عمق لجّتها، هناك الكثير من الأسباب والدوافع والرغبات والطموحات والغايات والأحلام، التي أفضت إلى اندلاعها في آذار 2011، لعلّ الحرية أهمّها على الإطلاق، هذه التي تُترجم سياسياً بالدولة المدنية الديموقراطية. لقد

اضطهد الأثينيون على سبيل المثل، سقراط، واضطهد اليهود المسيح، والمسيحيون أنفسهم اضطهدوا لوثر وغيره من المصلحين، وها هم المتعصبون (هنا والآن)، يواصلون مسيرة الاضطهاد، في إدانتهم الأحرار أصحاب الآراء والأفكار. في الأصل، ثار السوريون والسوريات على الاستبداد في شكله ومضمونه العسكريّ، وها هم الآن في مواجهة طراز آخر من طرز الاستبداد، هو الاستبداد الديني. الفارق بين الاستبدادَين هنا، أن الأخير يجهر في معاداته الديموقراطية من حيث هي آراء وتعدد وتنوع واختلاف وحركة وسير ومراس ومران، في حين يمعن الأول في الكذب، فيقول مثلاً إنه "ديموقراطي" أو "عَلماني"، ويفعل نقيض ذلك بفجاجة مرعبة وخسيسة. هو أيضاً يعتبر الرأي ضلالاً وتضليلاً، وكم هي كثيرة الأمثلة التي اعتُبِرَ فيها أصحاب الرأي، داخل الفروع الأمنيّة وخارجها، مجرّد مُضلَّلين ومضلِّلين، مُسمَّمين ومُسمِّمين. أما في الدولة الديموقراطية المأمولة، دولة الحق والقانون، الدولة المدنية، لا العسكرية ولا الدينية، كما في الطريق إليها ربما، فيُفترض ألاّ يكون ثمة مَن يفرض نفسه على الناس أو الشعب كمفهوم سياسيّ واقعيّ، ويحسم الأمور نيابة عنهم، إذ لا أحد ينوب عن أحد إلا على سبيل الوهم والخداع. وإن كان لي أن أقدِّم رأياً شخصياً ها هنا، حالِماً ربما، فأقول إني لستُ مع الديموقراطية غير المباشرة حتى، وأجدني أميلُ فكرياً إلى الديموقراطية المباشرة في الحكم، حيث ينعتق الناس حتى

من تمثيلهم برلمانياً، ليمثّلوا أنفسهم بأنفسهم، فيكون كل فرد راشد حر مسؤولاً عن نفسه، ويمثّل نفسه بنفسه، لأن كل تمثيل عنه هو ضرب من النفاق والدّجَل. هذا في ما يخص الديموقراطية سياسياً، أما تربوياً وأخلاقياً، فهي حتماً ليس مما يمكن الحديث عنه في عجالة كهذه. في الدولة الديموقراطية المأمولة هذه، تكون حرية التفكير والتعبير، وحرية العمل وفق ما ينسجم وشخصية صاحبه واستعداداته، والحرية الجنسية المسؤولة، وغير ذلك من ضروب تحرُّر الفرد من الإكراه الأخلاقي الذي يمارسه الرأي العام، ومن قهر سلطة الحاكم وسلطة المجتمع والدين والدولة في آن واحد، بحيث يُمتنع الاقتراب من المساحة الحرة الخاصة بالفرد الشخص، حين لا تمسّ بأذى حريات الآخرين أو الحريات العامة. هذا كله وما يشابهه، يكون ربما بمثابة إعلاء للقيمة الإنسانية في ذاتها، فلا قيمة لشيء إذا ما ضاع الإنسان. وعليه، فإن تعبيرات من مثل: "قادة الرأي"، تصبح لا معنى لها في الدولة "المثال" المأمولة المحلوم بها. فالاستقامة الحادة التي يخطّها التعبير المشار إليه، والمتداوَل دونما نقد أو تمحيص حتى من "المثقفين"، تتحوّل إلى نوع من التشاركية، بحيث لا يعود هناك حكّام رأي وزعماء وقادة يحتكرون، ومحكومو رأي ينصاعون. في معنى ما، وبتفاوت، كلّنا أبناء استبداد وآباؤه، وكلّنا في حاجة عميقة للثورة على ذواتنا. وإن الاستعداد عندنا لتأليه الحاكم، لهوَ أمر موغل في القدم منذ فرعون ربما، الذي أمعن في الفرعنة كونه لم يجد مَن يردّه،

وفق ما درجت عادة قوله أمام كل استبداد مسكوت عليه، وأمام كل جبن وتخاذل.

قد يثري المناقشة الآنفة الناقدة للعبارة المكتوبة على الحائط، "الرجوعُ" إلى إرث أدبيّ وفلسفي متنوّر مهمَّش دوماً ومغيَّب لصالح إرثٍ ظلاميّ ومتزمِّت فكراً ونهجاً وسلوكاً. فقد جاء على سبيل المثل، في الرسالة الثامنة من رسائل أخوان الصفا، ج2 ص316، طبعة القاهرة 1928: "أخوان الصفا يرون الكمال في الإنسان "العالِم الخبير، الفاضل الذكي المستبصر، الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السير، الملكي الأخلاق، الربّاني الرأي، الإلهي المعارف الصمداني". وذلك لغرض الإفادة من جميع الأديان وجميع المذاهب الفلسفية والفكرية.

الثورة والمسرح

"أن تتقن الثورة يعني أن تتقن الإحساس بالضحية والجلاد دفعة واحدة"

الجسد، في معنى ما هنا، هو مفهوم وتصوّر. كتلة ثقافية صلبة. حزمة عادات وأعراف وتقاليد وقبَليّات مصبوبة. ذاكرة مزدحمة. قطعة معبَّر عنها أيديولوجياً، معسكَرة ومجنَّدة، وممسوكة بأصابع السلطة كل سلطة، مربوطة بخيوطها، محرَّكة بواسطتها. وهو حقل تجربة مسيَّس وموضع تشريح معرفي وغير معرفيّ. حضوره في العالم، حضورٌ مصبوب ومقلوب، منزوع الحواس الخمس، مفكَّر فيه، مدروس ومحسوب. إيقاعه مضبوط بما ينسجم ودقة شعارات ومقولات وأيقونات وغايات وطموحات وتفكّرات واستشرافات وغيبيات ومعتقدات. إنه بناء مسبق الصنع يُنقّل من منصّة إلى منصّة.

الجسم، في معنى ما هنا، هو حياة، معبِّرة عن نفسها بنفسها لنفسها. حياة "صادقة"! في تجلّياتها، مفتوحة على غرائزها الدنيا و"العليا" وغير مكبَّلة. لا تحنيط ثقافياً هنا. لا منطق، ولا مفرّ من الحواس ومن الحيّز المكاني الواقعي(اللحميّ)، الطبيعي، الأنطولوجي، النابض.

على أساس التمييز السريع الآنف، بين الجسد والجسم، ربما يصبح في الإمكان بيان المفارقة التي طالما نقلت الإنسان الفرد السوري من

جسده إلى جسمه، من منصة التثقيف (الصبّ، القولبة، البناء)، إلى منصة الحياة باعتبارها نبضاً وحركة سلبية تارة. وطوراً إيجابية، من مسرحة الجسد ومسرحه ومطرحه، إلى مسرحة الجسم ومسرحه ومطرحه.

كانت سوريا برمّتها قبل اندلاع الثورة عام2011، عبارة عن مسرح، عن "منصّة" أسدية بعثية عسكرية "أَمنية". برمّتها، كانت مسرحاً لأشكال التحنيط والتسييس كافة، للجرائم كافة، لعلّ جريمة أدلجة الجسد وقولبته وقتلِ مواهبه وسلبه حريته الذي انعكس مباشرة على العقل والروح والوجدان والنفس قتلاً وتدميراً، كانت إحداها. لكن إن شئنا الإمعان في المعنى الفني الأضيق للمسرح؛ فقد يتكشف لنا كم كان المسرح بؤرة لـ"الجسد" وفق المعنى المطروح آنفاً، سواء في المسرح المدرسي أو الجامعي أو في المسارح الأخرى من مثل مسرح الحمرا والمسرح القومي ودار الأوبرا وغيرها.

قليلةٌ هي المرات التي شاهدتُ فيها عروضاً مسرحية حين كنت في الجامعة بدمشق، فباستثناء المتعة التي كانت تُحصَّل جرّاء الذهاب إلى المسرح برفقة الأصدقاء والأحباء؛ لم يكن المسرح بالنسبة إليّ ممتعاً. كنتُ كالغالبية ربما أدرك بأن هذا المسرح ، لم يكن لنا. فقد كنّا كمتفرّجين إحدى أدواته المساعدة على الظهور بمظهرٍ مزخرف مزركش يُظهر للعالم الخارجي كم "سورية الأسد" حضارية! وكان

الجسد الممثِّل -ولا أعني هنا خفّته أو رشاقته- في جلّ المسرحيات التي طالما شاهدتُها، كان مجرّد خشبة متماهية والخشبة التي يُمثَّل عليها. أجسادٌ "مثقَّفة"، مدروسة مؤدلجة ومسيَّسة، هناك خطوط حمراء يجب أن تقف عندها، إضافة طبعاً، إلى الحد الذي يفصل بين منصة العرض والجمهور. كيف لا يكون، وكلّ المسرحيات كانت "تحت رعاية". رعاية وزارة الثقافة مثلاً، هذه التي بدورها تحت رعاية "الأجهزة" المختلفة! كانت الأجساد الممثلة على خشبة المسرح، تكاد تكون أجسادنا نفسها على مسارح المدارس وباحاتها. هناك، حيث الـ "استرخْ. استعدْ. إلى الأمام سِرْ. إلى الوراء دُرْ". وكانت العلاقة بين الجمهور والممثلين، تكاد تشبه، في جانب خفيّ منها، العلاقة بين الموظفين الحكوميين البعثيين والناس المراجعين، علاقة تمهرها الفوقية والاستعلاء، والكره المتبادل والابتزاز. وعلى الرغم من أن نصوص المسرحيات وأفكارها ومواضيعها كانت أحياناً تلامس معاناة الجمهور وأحلامهم وهواجسهم، إلا أنها كانت أقرب ما يكون ربما إلى حال الفصاميين من البعثيين، الذين يتعمشقون على حزب البعث في شعاراته ومنطلقاته النظرية، التي تنحاز من بعيد إلى العمال والفلاحين وصغار الكسبة، شرط عدم تجاوز "المنصة" وعدم ملامسة هؤلاء باعتبارهم لحماً ودماً لا ثقافة. كمَن يباعد أكثر فأكثر بين قلبَين. المسرح في الجامعة، كان في جزء كبير منه، مجرّد فرصة ذهبية للنسج الشلليّ، ولكي يصبح هذا الطالب أو ذاك نجماً،

من طريق تكريس طبقية معيّنة من شأنها جعْل الطالب الممثل أعلى شأناً من زميله المتلقي، وإعطائه تالياً جرعة من التفخيم على طريقة "يا أرض اشتدّي ما حدا قدّي"، خصوصاً إذا ما تم الربط جيداً بين "الاستعراض" و"الفن"، بين شكل معين في اللباس مثلاً أو تسريحة الشعر وبين المسرح بوصفه "عرضاً" لا أكثر. في دار الأوبرا "الفخمة" مثلاً، لا بدّ وأن يشعر جمهورٌ من أمثالنا بالغربة والوحشة هناك، وبأنه بكل تأكيد ليس في "بيته ومطرحه ومسرحه"، حتى وإن كان العرض المسرحي يخصّه "ثقافياً" و"يمثّل" معاناته و"يجسّدها" أمام أنظاره. الممثلون على الخشبة هم قلّة مصطفاة، والجمهور هم مجرّد كثرة. القلة تلك هي "الفاعلة" دوماً، والأعلى تمركزاً، قبالة كثرة متلقية دوماً، مفعول بها، متمركزة على كراسٍ في الأسفل تُطوى وتُفرد بلا معنى كحال الجالسين عليها، وكلّه سيّان. تظنّ القلّة أن عليها امتلاك الكثرة امتلاكاً تاماً من طريق إفنائها، في حين أن لا قلّة ولا مسرحاً ولا عروضاً ولا فناً...ولا حياة؛ من دون الكثرة تلك. من دون كثرة بالمطلق. قد يكون في المشهد هذا، الموصوف هنا في عجالة، تكثيف ما لسلطة متسلّطة، "تثقف"(تدكّ) الجسد أولاً والعقل تالياً، تثقيفاً عنصرياً متعجرفاً، وعْظياً توجيهياً ترهيبياً وتحذيرياً، وتجيّرهما لصالحها. هكذا، كان لا بد من الانتقال إلى مسرح ثائر وثائقيّ يجادل الطوباويّ ويقارعه.

صـار الجسـد جسـماً. وصـارت المنصـة، شـوارع وسـاحات وأزقّـة وطرقـات، والمسـرح صـار ارتجاليـاً في المعـنى الحقيقي والأصـيل للارتجال والعفويـة. وصـار الجمهـور ـ ممثِّلاً فـاعلاً، مـا عـاد متفرِّجـاً متلقّياً. كربةُ الموت التي كان يشعر بها الجمهور ـ في ذلّ الكينونة كلّـه، حين كـان المسـرح يشـغله جسـدٌ "مثقـف" (مثبّت) يمثّـل على خشـبةٍ منفصلة تمام الانفصال عن الحياة الحركية، وحين كان المسرح خاصاً بطبقة معينة أو شـريحة معينـة من المجتمـع السـوري؛ أُفـرِجت كربـة الموت تلك، بعد اندلاع الثورة، فأصبح المسـرح للجميـع. الكـل يمكنـه أن "يمثّـل" فيـه "لا تمـثيلاً". الكـل في إمكانـه أن يشـارك في "تأديـة" أدوار الحـزن والفـرح الحقيقيَّين. الكـل يمكنـه أن يعّـبر عن نفسـه فيـه ويمثّل نفسه بنفسه. ما عـاد هنـاك متفـرّج، الكـل مشـارك في المسـرح الحي في ساحات التظاهر الحيـة العـامرة. صـار للمسـرح هنـا، طـابع أنثـوي إن جـاز التعبـير، مغـاير للطـابع الـذكوري الـذي طالمـا مهَـرَ المسـرح قبـل انـدلاع الثـورة. كيـف؟ تجلّت الأنثويـة على المسـرح الثوري ـ من خلال الرقص الحر والأغنيـات الحـرة والإيمـاءات الحـرة على وقْـع قـرْع الطبـول، ومن خلال التكـاتف والتعـاون ـ والتـآزر والهتافـات النابضـة بالمحبـة وبوحـدة الشـعب السـوري، والمصـير الإنسـاني ـ والوصـل بين النـاس "الممثلين" على مسـرح الحيـاة الأنيقـة والرشـيقة أثنـاء التظـاهرات المهرجانـات الحـرة المنفتحـة والمفتوحـة على هذا العالم الواسع، التي كانت تُقام من أجل إسقاط الذكورية الفجّة

المتمثلة في نظام ذكوري عسكريّ متسلّط ووحشي، مسرحه عبارة عن خشبة مفصولة عن الحياة، يكرّس الأعلى والأدنى، السيد والعبد، الفاعل والمفعول به، القلة والكثرة، الفوق والتحت، وطبعاً، الاستجابة الآلية للإيعازات والأوامر.

إن"الجسم" الثائر هنا، بدا كأنه انبثق من "الجسد"الذي كان مغيَّباً فيه قسراً، وعتق نفسه من مفهوم ذاك الجسد المطلق، ومن الواحد، واتصل مباشرة بالواقع ككثرة، أي بمكانه الطبيعيّ، الماديّ، اللَّحمي، الحسيّ، الحركيّ، النابض بالتفاصيل وبالأحداث والمتغيِّرات. إن الوضعيّة الجديدة هذه "للجسم" تعاكِس وضعيّة الجسد الذي طالما تَعسْكَر طوال عقود، وتُناقِضها. فقد كان الجسد مقموعاً، تختفي حيويّته خلف وقارٍ متحجِّر، اتّسم به عصر الاستبداد الذي حكم سوريا نحو نصف قرن من الزمن. وتبيِّن تالياً الفارق المهم بين "الجسد" الصنم المثقف المستعبَد، وبين "الجسم" الحر التلقائي الحاضر بكثافته الوجودية والسياسية والجمالية والثورية؛ والقادر على توليد أحداث تاريخية كبرى تقوّض أركان سلطةٍ متجذِّرة، وراسخة بكل صنوف القهر، ما كانت لتقوَّض لو لم يكن "الجسم" الحر المحتجّ حاضراً على "مسرحه" بالترافق والكلمة الثائرة في الشارع. فالتجربة التي خاضها "الجسم" الحر هي الثورة الحقيقيّة التي من شأنها إسقاط ما لا يسقط بالتنظير. هكذا، كشفت الثورة السورية الشعبية السلميّة عن عسفِ الفصل الذي طالما حرص نظام الأسد كغيره من الأنظمة

الديكتاتورية، على تكريسه بين الجزء والكل، بين الجسم والروح، بين الفكر والسلوك. أي بين العالم الحسي الفيزيقي والعالم الروحيّ العقليّ.

في معنى ما، أنْ تتقنَ الثورة، يعني أنْ تتقنَ الإحساس بالضحية والجلاد دفعة واحدة. أن تكون قتيلاً وقاتلاً في آنٍ واحد. يقتلكَ الاستبداد؛ فتقتله بقلم ثائر حر مثلاً أو تجلده بلوحة أو "تشبحه" بمقطوعة موسيقية، أو تركله بتظاهرة أو اعتصام على مسرح ثوري تلتقي كل الفنون على "منصته" في الشوارع والساحات والأحياء والفضاءات العامة كلّها بمشاركة الأطفال والنساء والرجال. كل الفنون التقت على خشبة الثورة الشعبية السلمية في سوريا: الرقص، الدبكة، الغناء، التصفيق، قرع الطبول، الرسم، حمْلِ الورود وأغصان الزيتون والشموع والبالونات الملونة، الإنشاد (هل لنا أن ننسى ابراهيم القاشوش مثلاً، وبحّة صوته المذهلة في أغنيته "يلّلا إرحل يا بشار"- وغيرها؟!).

مسرح الثورة الشعبية السلمية هو القسم الفني من الإنسان الذي يستحقّ أن ندافع عنه في كل مكان وزمان. إنه "ملحمة" ثورية. جسمٌ من "لحم ودم"، حيّ وحر. إنه تمرّد أسطوري "بروميثيوسي". فعلى مسرح التمرد يبدو أن ثمة "إلهاً للنار، ثائراً اسمه بروميثيوس، قد

رُبطَ إلى عمودٍ قائم في أقاصي الأرض، شهيداً أزلياً، محروماً إلى الأبد، من مغفرةٍ يرفض التماسَها".

على مسرح «داعش» الحربيّ، الوثائقيّ

-1-

أيضاً صار الجسد جسماً، لكن حتماً ليس على غرار الجسم الحر في مسرح الثورة السلمية، في طابعه الأنثوي المُحِب الفرِح والمتعاون، إنما هو هنا هائج مائج، يمور بالغرائز الدنيا التي تنزع عن الإنسان إنسانيته بوصفه كائناً (أو محيطاً) حالماً، أخلاقيّاً، وعاقلاً. مسرح "داعش"، في المعنى "الفني" الضيّق، سيعيد مسرح الثورة إلى الطابع الذكوريّ المتسلّط الذي طالما مهَرَ المسرح السوري قبلَها. سيعيد أيضاً، الحدَّ الفاصل كسيفٍ متقلّب بين المنصّة والجمهور، كتكريس للأعلى والأدنى، للفوق والتحت، للسيد والعبد. لا مراءَ في أنّ بعضَ خصال "مسرح النظام" لا تزال موجودة على "مسرح داعش": الصراع ضد الحياة، الغرائز الدنيا العمياء، كره الناس واستصغارهم. هذا بعض ما يمكن أن يُلاحَظ مثلاً، في مشهدٍ بُثَّ يوم 4 تموز 2015 في شريطٍ مصوَّر من قبَل المكتب الإعلاميّ لما يُعرف بـ "ولاية حمص" التابعة لتنظيم "داعش"، أدّاه مَن يُسمَّون "أشبال الخلافة"، مجنَّدون لدى "داعش"، على المسرح الروماني الداعشيّ

في مدينة تدمر الصحراوية الأثرية، حيث أُفرغَ خمسةٌ وعشرون يافعاً رصاصَ مسدّساتهم، في رؤوس خمسةٍ وعشرين عنصراً من قوات نظام الأسد، نُقِلوا كأسرى في سيارات إلى مسرح الإعدام، من سجن تدمر الشهير الذي فجّره التنظيم يوم 30 أيار 2015 بعدما سيطر على المدينة.

-2-

معلومٌ أنّ المسرح الروماني، كان أفضل مثال للدراما الرومانية في سوريا، وأنّ الرومان هم مَن جعلوا المسرح عالمياً بعدما كان عند اليونانيين محلّياً. تخبرُنا كتبُ التاريخ والأبحاث أنّ الرومان بنوا المسارحَ ليس للتعبّد بل للتمثيل، فكانت بذلك أكثر رقيّاً من مسارح الحضارات الأخرى، وقد تمرّد الرومان على دراما "الوعظ"، لصالح دراما الترفيه، مستغنين عن الأقنعة، وأحضروا الموسيقى والرقص والمرح إلى المسرح. الآن، ما الذي حصل، حين صار هذا المسرح، "داعشيّاً"؟ ما حصل هو الآتي: انتُقِم أولاً من الأمبراطورية الرومانية وهي الأمبراطورية الوحيدة التي امتدت من قبْل ميلاد المسيح إلى ما بعده، حيث بدأت كأمبراطورية وثنيّة واستمرّت حتى انتشرت المسيحية؛ في محاولةٍ حقودة، للنَّيْل من الفن والحضارة، عبْر تدمير هما، وتدمير الرموز الإنسانية في ذاتها، لطالما كان المسرح، على مرّ العصور، رمزاً للارتقاء والسموّ الروحيّ والأخلاقي

والجمالي. فظهرَ "المسرح الداعشيّ"، مسرحاً تكتيكياً واستراتيجياً، يمثّل كل تفصيل فيه، حقيقةً مدروسة وممنهجة وهادفة غائية، تصهر الدين -كما يتصوَّره "داعش"- في الدنيا، وتُبرز فقرَ وسائل تنظيم "داعش" في التعبير، وقلّة محصوله من أوّليات الكلمات اللازمة للمسرح خصوصاً، وحنكته في المقابل، في صناعة الترهيب "الممسرَح"، الذي تجلّى في القتل الاستعراضيّ الهادئ الممتلئ لذّة ونشوة. كان في إمكان "داعش" مثلاً، قتل عناصر نظام الأسد أولئك، دونما تمثيلية مسرحية حيّة، "مجسَّمة لا مجسَّدة"، مخيفة ومرعبة، قوية الإخراج والمونتاج، فضلاً عن الدهاء في استخدام المؤثرات البصرية والسمعية؛ إلا أن التنظيم تقصَّد على ما يبدو، أن يكون الإعدام الممسرح هذا، بمثابة إرواء لغليلٍ ذاتيّ، وعِبرة لمَن يتجرّأ على التنظيم، عقيدةً وحكماً وسلطة وسلطاناً كليّاً وتمدُّداً. تقصَّد أيضاً أن يكون"الآخر"، الخصم والمؤيد، شاهداً متفرِّجاً، سواء كان محلّياً مباشراً أو غير مباشر. فقد كان هناك "جمهور"- من أهالي المدينة، بينهم أطفال(هؤلاء الأخيرون تحديداً، سيكونون فريسة المَشاهد المدمِّرة هذه وغيرها)، كان هناك جمهورٌ "يتابع" من على مدرج المسرح، مشهداً حياً، "يمثّل" فيه يافعون واقفون بـ"رصانة"، دورَ القتَلة، وجنود أسرى راكعون، "يمثّلون" دور القتلى القتلة من قبلُ. يمثلون مشهداً مسرحياً مخطَّطاً له بعناية، لكنه مرتجَل من حيث واقعّيته الفجّة وحقيقته "الجسمية" الغرائزية المستنفِرة والمستفِزة. كما

أنّ ثمة "جمهوراً" بعيداً، شاهدَ عبر وسائل الإعلام، مشهداً مسرحياً يرمي، على ما يظهر، إلى نزْع صفة الظلم عن الألم، والحثّ على عدمَ الإشفاق حيال جنودٍ عزّل أسرى راكعين لا حول لهم ولا قوة. ويستهدف، في المقابل، إثارةَ الإعجاب بالقتلة الصغار ذوي الملامح الجامدة، والزيّ الموحَّد الشاطب كلَّ فرادة، الواقفين بصرامة في خط مستقيم صارم يعكس ذهنيّة صارمة متطرفة وقاسية، فضلاً عن إثارة الإعجاب بالتنظيم الأب، وقادته - الآباء. إنه القتل الأخطر، لأنه القتل "الرصين"، رصانة مدروسة في المعنى الخبيث المنظَّم، الساخر من القتل العشوائيّ الساذج، ومن الغضب العارض. من خلال هذا كلّه، ربما لا يثير التنظيم الجمهورَ ويشعل "الأكشن" فحسب، بل يجذب أيضاً، كون التنظيم يدرك كم هو منبوذ عالمياً و"ظاهرياً"، على الرغم من كونه مدعوماً ربما "باطنياً" من "أعداء أصدقاء" (إيران مثلاً)!. وعليه، يمعن في جذب الانتباه إليه بحنكة، كلّما شعرَ بازدياد وتيرة النبذ والتحديّ. يشتغل تنظيم "داعش"، بطفلنة ماكرة، على مسألة "الإدهاش"، وإثارة الانتباه إليه، فمسرح الإعدام عينه، ليس سوى واحدة من وسائل الإثارة والإدهاش. فإنْ كنا نريد عدم تحقيق مآرب التنظيم، ينبغي ربما عدم الاستجابة للإدهاش الذي من شأنه تحقيق لذة ما للتنظيم ومبتغى يكمن في رغبته الجامحة بالانتقال من الهامش إلى المركز، ومن موقعِ المثيرِ للاشمئزاز إلى موقعِ المثيرِ

للدهشة من طريق الغرابة والشذوذ و"المسرَحة"ـ فبدلاً من الإندهاش، ربما ينبغي الانصراف إلى تحليل "الظاهرة الداعشية"، عِلمياً مثلاً.

-3-

التنظيم نفسه المعادي الكاره للثقافات والحضارات المختلفة، يريد، من خلال سيطرته على مدينةٍ تاريخية أثرية، مهمّة ومميَّزة من مثل تدمر، تعاقبت عليها حضارات وانتصارات وحقبات، يريد، على ما يبدو، ابتداءَ "حقبة داعشية" فيها، تتسم بالعدمية بوصفها يأساً وإنكاراً، وإرادةَ يأس وإنكارـ تتَّسم أيضاً بإعادة بناء أسوار قلاع الإذلال، وفرضِ "إله داعش"، لا"إله الإسلام"، بل إله الحلكة الظالمة، عبر التحطيم الرمزي لآلهة النور من مثل "إله الشمس"، ولكل الآلهة "الأخرى" المختلفة، في مدينة النخيل والرمّان والمعابد والأوابد والطقوس والنحت والفن الذهبيّ، وفي غير هذه المدينة.

إن تصوّر تاريخٍ يتلخّص كلّه كصراعٍ بين خيرٍ وشر، أمسى غريباً بعض الشيء. فمع دخول"داعش" حلبةَ الصراع السوري، بطُل أن يكون صراعاً "مسرحياً" بين خير وشرـ فقط، أي بين الشعب السوري والنظام الأسدي، بل صار أيضاً صراعاً بين شرَّين، بين النظام والتنظيم وأشباههما من حلفائهما التكفيريين والإرهابيين.

التربية المسرحيّة الداعشية

-1-

لأنَّ العِلمَ في الصغر كالنقش في الحجر؛ يمعنُ تنظيم "داعش" في تعليم الصغار القتل. وليس أي قتل، إنه القتل الممسرَح. القتل"الرصين"، "الفنيّ"، الهادئ، المتماسك، المفرَغ من أي شعور بالتعاطف، الممزوج بـ"فنِّ" الإذلال، وانفجار الاحتقار، وتمجيد الدمار في ذاته. يلتمس التنظيم، قوةَ الجريمة النهائية وأسبابها في البراءة التي توسَّمها في أطفالٍ سمّاهم "أشبال الخلافة"، وإنَّ ذلك، في ما أظنّ، لَأخطر ما يمكن أن يمرّ على التاريخ البشري، ماضيه وحاضره ومستقبله. يُحكى أن الثقافة المسرحية الواسعة تفضي إلى فنٍّ مسرحيّ عظيم، وها هو الجهل الداعشي الواسع المتمدِّد، قد أدّى إلى فن مسرحي وحشي. (إنه مسرح الجريمة التاريخية الموصوفة. مسرح الحرب في قبالة مسرح الحب والثورة).

-2-

"ثمة مقطع ينبئ فيه ترتوليان قرّاءه أنّ أكبر مصدر لسعادة الأبرار في الفردوس هو منظر الأباطرة الرومان يحترقون في سعير جهنم(**1)**". على المسرح الروماني حين صار داعشياً، قدَّم التنظيم، مشهداً مسرحياً تربوياً من شأنه، كما يعتقد التنظيم ويرمي، أن يشكّل لدى "جمهوره"ـ مصدراً للسعادة الكبرى، عند رؤية جنود النظام الأسدي

"النصـيريين-الكفّـار"، وهم يُعـدَمون على المسـرح (ويحـترقون في سعير جهنّم داعش!).

-3-

في الحديث عن تربية "داعش" المسرحية، لا بدّ أن نكون أمـام سـؤال كالآتي: على مسرح الإعدام الداعشي، أمامه، وخلـف كواليسـه، تُـرى مَن هـو المجـرم الحقيقي؟ الـذين نفّـذوا الجريمـة مباشـرة، أي "أشـبال الخلافـة"؟ الجنـود الأسـرى القتلى القتلـة من قبـلُ؟ قـادة "داعش" أو أمراؤه المجنِّدون لأولئك اليـافعين منفّـذي الجريمـة؟ الأمـير العمـومي للتنظيم (البغدادي)؟ نظام الأسد؟ الرئيس العمومي لهذا النظـام (بشـار الأسـد)؟ المجتمـع الـدولي أو النظـام العـالميّ؟ الأنظمـة كافـة إقليميـاً ودولياً، المعادية لثورات التحرر الشعبي، خصوصاً الثورة السـورية؟ قادة الدول الكبرى وحكوماتها، تحديداً أميركا وروسيا؟ مجلس الأمن؟ إسرائيل؟ "التحالف" العربي- الدولي ضد تنظيم "داعش" الذي تقـوده الولايات المتحدة الأميركية؟. قد لا نجانب الصواب إن قلنـا إن هـؤلاء جميعهم يتحمَّلون مسؤوليةَ الجريمة هذه وغيرها في سوريا التي باتت برمّتها ربما مسرحاً للجريمـة المنظمـة والعشـوائية. يتحمّلونهـا بشـكل مباشر- أو غـير مباشـر، وبـدرجات متفاوتـة كلّهـا قاتلـة، وكـلٌّ بحسـب موقعه وتأثيره المباشر أو غير المباشر، وإفادته ومصلحته ومنفعته.

-4-

"ممثلو" الجريمة الحية على مسرح داعش الحربي، شأنهم شأن قوات النظام والشبيحة حين يعذِّبون عزلاً في المعتقَلات، وحين يقنصون، أو يقصفون من بعيد مدناً وبلدات آمنة آهلة بمدنيين، ويعزفون عن مبارزة حقيقية وشجاعة وجهاً لوجه. رجلاً لرجل. ندَّاً لند. أيضاً تنظيم "داعش"، تراه على هذا المسرح وغيره، لا يملك من قيم القتال الشجاع وأخلاقه شيئاً. ولا يجيد فنَّ المبارزة والتحدّي على حلبةِ المسرح، الذي يبيِّن القوي حقاً من الضعيف حقاً، المنتصر حقاً من المهزوم حقاً. وهل من بطولةٍ أصلاً أو رجولة في قتلِ فتيان مسلّحين لأسرى عزل راكعين؟!

-5-

قلنا إن "أشبال الخلافة" شركاءٌ في الجريمة. لكن هؤلاء مثيرون للحزن والألم أيضاً، كونهم صغاراً حلَّ عليهم الشقاء، كمَن لُفِظ من قلعةٍ، ورُمي به على الأسوار في انتظار الخلاص. أن تقتلَ إنساناً فهذا أمر مفهوم ربما، لكن أن تدفع بشخص آخر إلى قتله، ويكون هذا الشخص طفلاً أُلقيَت فيه قسراً وتخطيطاً روحُ الشر السوداء، لَمدعاة للذهول والهول والغلّ!

يربّي التنظيم "أشبال الخلافة"، مسرحياً، كمثلِ تربيـة النظـام "طلائـع البعث"؛ سـاعياً سـعياً محمومـاً إلى غسلِ الأدمغـة، وغـرسِ الغـلّ في نفوسٍ ناشئة ضعيفة، وشدّ عُودهم الطـريّ لكي يقسـو إجراماً ويجعـل الجريمـة والقتـل مقبـولَين في أذهـان أهـل الابتـداء، على اعتبـار أنّ بواطن المبتدئين قابلة للنقش دونما نقاش، ولكي يجبرَ القلـوب على أن تقسو، متلذِّذةً بآلامِ مَن هم موضـوع الحقد(الجنـود الأسـرى في مثالنـا هنا). ترى كيف نام أولئك الأطفال بعد تأدية أدوار القتلة في ذاك اليوم المسرحيّ "الجسميّ اللحميّ" الحافل؟ ماذا أكلـوا؟ بمـاذا شـعروا؟ هـل لعبوا؟ وهل رُدِمت هواجس ذاك النهار بكـوابيس الليـل المهولـة؟. مَن يدري؟ قد يأتي يوم يركع فيه أولئك الأشبال أنفسهم ويكون ثمة أشـبال جُدد خلفهم يؤدّون دورَهم نفسَـه على مسـرح الحـرب نفسِـه. كـون مـا يجـري هـو على هـذا النحـو: تأسـيسٌ ممنهج للقتـل العـدميّ، الثـأريّ، الدائم والمستمر.

"إله داعش" الممسرَح باعتباره توأمَ "إله التوراة"

-1-

لسنا هنا في صدد إله أو آلهة الفلاسفة، المتصوِّفة، الشعراء، العشّـاق، الخصب، الطبيعة(الشمس، المطر، الليل، الهواء، العاصفة..)، ولا في صـدد إلـهٍ عـادل يفيضُ بـالخير على الكـون، يهبُ الحيـاةَ والرحمـة

والحبَّ، ويتجلّى في صورة أنثوية(إيزيس، عشتار، إنانا، أرتيمس). إنما نحن في صدد إلهِ تنظيمٍ في الإمكان استشفاف بعضٍ من صفاته المتجلّية خصوصاً، على مسرح مدينة تدمر، وفي ضوء خطاب أحد قياديه، بعد تفكيكه. ففي الشريط نفسه المذكور آنفاً، الذي بُثَّ فيه مشهد الإعدام إياه على المسرح الرومانيّ الداعشيّ، ألقى قياديّ في التنظيم، خطاباً وجّه خلاله ثلاث رسائل. الأولى: إلى "عامة المسلمين"، قال الخطيب الداعشي في خصوصها: "يا رعيّة خليفة المؤمنين، والله لننصرنّكم ولو أبغضتونا، ولندودن عن أعراضكم ولو كرهتمونا، وهذا أمر الله عز وجل". ليست الرسالة هذه موجَّهة إلى ناسٍ أحرار إذاً، يملكون قرار حياتهم وشؤونهم ومصائرهم، إنما هم مجرّد "رعية لخليفة المؤمنين"، قطعان ينظّم التنظيم حياتَهم وموتَهم بعدما دخلوا جحيمَ الضرورة. أما "النصر على رغم البُغض"، و"الذَّود عن العرض على رغم الكره"، فهذا ممّا يدخل في نطاق الرّشوة الكلامية ربما، واللعب على وترِ اللغة الحسّاس، والمواضيع الواقعية الحساسة التي تستثير عاطفةً جيّاشة. تجدر الإشارة هنا، إلى أنّ التنظيم، يلجأ إلى وسائل وسبُلٍ كثيرة من شأنها دفعُ الناس للانضمام إليه، مستغِلاً الفقرَ والجهلَ، فهو مثلاً، بحسب ناشطين ميدانيين، يلجأ إلى عزل مدينة تدمر عن العالم عبر قطع الإنترنت والاتصالات كافة، من أجل الاستفراد بالعقول والنفوس والهيمنة عليها بما يتفق وعقيدة التنظيم ومآربه.

أما الرسالة الثانية فوجَّهها الخطيبُ نفسه إلى زعيم تنظيمه، البغدادي، حيث قال: "إننا والله في هذا اليوم نفي بقسَمك الذي أقسمت، عندما قلتَ يا خليفتنا: والله لنثأرن، ولو بعد حين لنثأرن، ولنردّ الصاع صاعات، ولنردّ المكيال مكاييل". لُغوياً، اعتدنا على سماع عباراتٍ قريبة من هذه، لكن، يُردُّ فيها الصاع صاعَين لا أكثر. والمكيال مكيالَين لا أكثر، غير أنّ الصاعَ في قسَم "الخليفة" عينه، يُرَدُّ "صاعات"، والمكيال "مكاييل"!. ما يعني أن الحقد هنا ليس من شأنه الوقوف عند حد، بل هو "متمدِّد" عابر للحدود.

قبل أن يعلن الخطيب أخيراً، أن "أشبال الخلافة" سيقيمون حدَّ الله في أسرى "النصيرية"، وجّه رسالته الثالثة والأخيرة إلى الحكّام العرب، الذين نعتَهم بالطواغيت، متوعِّداً بوصول جنود "الخلافة" إلى عقر ديارهم. إذاً، عداء التنظيم الأول ليس لأميركا وإسرائيل والغرب "الكافر"، مثلما نكاد نجزم أنه ليس لأولئك "الطواغيت" أيضاً، كون التنظيم مشكلته الكبرى والرئيسية، كما بيّنت التجربة والوقائع على مرّ سنوات، ليست مع الأنظمة الحالية، وإن بدا ظاهرياً أنه في حال عداء معها وحرب ضروس. إنما عداءه الحقيقي للناس، لشعوب المنطقة بمن فيهم "السنّة" المختلفون معه في الرؤية، لمَن يسمَّون "أقليات"، للثورات وأهلها، للحرية، و"لدول" قائمةٍ، يريد تفكيكها وإزالة الحدود في ما بينها، لغاية إقامة "دولته" وتطبيق شريعة "سمائه" و"إلهه" على "أرضه". ولما كان مشهد الإعدام الممسرَح

موضوع النقاش هنا، يُظهر للعالم في معنى ما، أن التنظيم هو في حال خصومة وعداء تام مع نظام الأسد، فإن هذا لا يعني أن ذلك لا يصبّ في مصلحة النظام، ولا يعني أنه ليس هناك تحالف ضمنيّ بينهما، كشفه الكثيرُ من وقائع يصعب حصرها خلال السنوات الماضية، لا بل إن تدمر، بحسب مداولاتٍ إعلامية وتخمينات وتحليلات سياسية وعسكرية، ربما يكون النظام قد "سلّمها" إلى التنظيم.

-2-

عداءُ التنظيم، لا يقتصر على الحضارات والثقافات الأخرى، والديانات الأخرى، والقيم الإنسانية، وكل "آخَر" مختلف، بل هو في حالٍ من ذكورية شرسة، من أبوكاليبتية تعطي للعالم جوهراً ثابتاً هو محض موت ودمار؛ تعادي الأنوثة في ذاتها، أو تعادي الجانب الأنثوي من الحياة والإنسان والمدن، والمكان والزمان. وعليه؛ فإن مجرّد تسمية تدمر "مدينة الفاتحين"، حسبما أعلنَ أحد قياديي "داعش" في الخطاب المذكور نفسه، يؤكّد ما ذهبنا إليه في الآنف من هذه السطور، في شأن سعي التنظيم إلى ابتداء "حقبة داعشية" في المدينة، تقوم على أساس نسفِ الذاكرة، وطمسِ ما سبق من حقبات ومراحل، وما تعاقب على المدينة من حضارات وانتصارات..؛ واستعداء الجانب الأنثوي للحياة عموماً ولمدينة تدمر خصوصاً،

المتجلّي في كونها مقرونة مثلاً، باسم زنوبيا، حيث كانت تدمر، في حقبة سابقة، تحت حكم الملكة الشهيرة تلك. والمتجلّي أيضاً في جمال المعابد والآثار والمنحوتات وحكمة النخيل وامتداد الصحراء الغامض المسترسل.

-3-

استناداً إلى المحاولة السابقة في تفكيك الخطاب المذكور، صار في الإمكان ربما بلورة صفات خاصة بـ"إله داعش"، ومقابلتها أو مقارنتها وإله اليهودية في "التوراة" المتعدِّد الأسماء من مثل:"يهوه، ياهو..". "فإله داعش" محتال ومخاتل على الله الحقيقي الخيّر العادل المحب، ولا يتّخذ من السماء مرتعاً متعالياً على النقائص، بل يلتصق بالأرض. وعليه، فإن راية التنظيم التي طالما احتلّت منتصف المسرح الروماني المهيب في جمال أعمدته ومنصته ومدرجه وبوّاباته وكواليسه، شاطرةً الحياة بين أبيض وأسود خالصَين. بادئةً بالله من الأعلى "الله رسول محمد"، على عكس المعتاد "محمد رسول الله"، هي راية كاذبة، لأن الله وفق ما نراه في التجربة الحية، لا متعالٍ، لا مترفّع، ولا ينتمي إلى السماء كما يُفترَض بداهةً، بل هو مشارك في نقائص الأرض وفي شرور الإنسان وحروبه وعداواته. إله داعش هذا، ليس لطيفاً لطافة روحانية، إنه كثيف، إنه "جسم"، إنه واقع. لعلّ اسم الشريط الذي بُثَّ فيه مشهد الإعدام الممسرَح ذاته، أي:

"ويشفّ صدورَ قومٍ مؤمنين"، يُظهر كم هو حقودٌ "إلـه داعش" هـذا، وعنيف وقـاسٍ ومتعطِّش للدماء ويتبـع هـواه. ربمـا يشـبه هـذا الإلـه، الربَّ المنتقم في التوراة حين يقول: "أمحو عن وجه الأرض الإنسـانَ الذي خلقتُه، الإنسان مع بهائمَ ودبابـاتٍ وطيـورِ السماء؛ لأني حـزنت أني عملتهم(2)".

-4-

انتقام "إلـه داعش" من مدينـة تـدمر وحضـارتها، ومن أعمـال النـاس فيها، ومن الشعب السـوري الواحـد، يأخـذنا إلى التـوراة أيضـاً، حيث ينتقم الله الحانق، من أعمال البشر الـذين يقيمـون الحضـارة في مدينـة "بابل" ومن برجها الهائل. تقول التوراة: "هو ذا شـعبٌ واحـد ولسـانٌ واحـد لجميعهم، هـذا ابتـداؤهم بالعمـل، والآن لا يمتنـع عليهم كـل مـا ينـوون أن يعملـوه. هلمَّ نـنزل، ونبلبـل هنـاك لسـانهم، حـتى لا يسـمع بعضُهم لسانَ بعض. فبدَّدهم الربُّ من هنـاك على كـل الأرض، فكفُّوا عن بنيان المدينة. لذلك دُعِيَ اسمها بابل، لأن الرب هناك، بلبل لسـان كل الأرض، ومن هناك بدَّدهم الربُّ على وجه كل الأرض(3)".

عـداء "إلـه داعش" لكـلِّ "آخَـر" مختلـف، وكرهـه لـه، يُظهـره كإلـه عنصريّ يشبه إلـهَ اليهـود العـنيف الـذي ينتقم من النـاس لصـالح بـني إسـرائيل(شـعب الله المختـار!). تقـول التـوراة على لسـان الـرب في

خطابٍ إلهيّ موجَّهٍ إلى النبي موسى وأخيه هارون وأهلهما اليهود الذين كانوا يقطنون مصرَ بحسب التوراة: "فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة، وأضرب كل بِكْر في أرض مصر، من الناس والبهائم، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين، أنا الرَّبُّ، ويكون الدَّمُ علامةً على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدَّمَ وأعبر عنكم، فلا تكون عليكم ضربةُ الهلاك، حين أضرب أرض مصر(4)".

-5-

في العودة إلى "التربية المسرحية الداعشية"، نرى أنها تربية من شأنها أن تجعل القتل والجريمة عموماً كالاغتصاب (التعاطي مع النساء كسَبَايا واغتصابهن. ما جرى لنساء "الطائفة الأزيدية" قد يكون المثال الأكثر وضوحاً ها هنا) والسرقة وغيرها، تجعلها أمراً مقبولاً. ربما تشترك التربية هذه، مع ما تربّي عليه وتفضي إليه وتؤدّي، قصصٌ توراتية جاءت مناقِضةً للقيم الإنسانية التي طالما اجتهدت الحضارات قبل تدوين التوراة بقرون من أجل إرسائها في وجدان البشر المتحضّرين. فالنصوص التوراتية هذه، تستخفّ بحقوق البشر من غير اليهود، ويمسي القتل معها وجرَّاءها؛ مباحاً مادام يُنفَّذ باسم الرب. من أمثلة القصص التوراتية تلك: قتل الأخوة للانفراد بالحكم (قصة سليمان). تبجّح القتلة في مسألة حماية الله لهم حسبما ورد في قصة قايين(قابيل)، فقد قتل قابيل أخاه هابيل ثم أعطاه الله

وعداً أو "عهداً" بأن مَنْ يقتله سيقتُل الله منه سبعة!. (لنا أن نلاحظ هنا كيف أن الجريمة محمية ومصانة من الرب ولا يُعاقَب عليها. لنا في المقابل أن نُسقطَ ذلك على ما جرى ولا يزال في زماننا هذا، من حمايةٍ للقتَلة وصونٍ للجريمة، في ظلِّ غياب كل عقاب. هنا أيضاً ربما يمكن التأمّل في إلهٍ آخر، هو "إله هذا العالم بالذات"(المجتمع الدولي. النظام العالمي هذا)، لَكم هو ظالمٌ هذا الإله! يستنزل اللعنات بلا رحمة، يترك القتلة يسرحون ويمرحون، ويمارسون الجريمة الشاملة باسمه، ومن خلاله يُصانون!. "إله هذا العالم بالذات" محشوّ بالفظاعات أيضاً شأنه شأن "إله داعش" و"الآلهة الأسدية". (الحشو صنو الخواء، وكل شيء يمضي نحو العدم. إذ أكبر تأكيد كلّي يتطابق مع أكبر تدميرٍ كلّي!).

يتحدث الباحث يوسف زيدان(5) مثلاً، عن خطورة بعض النصوص التوراتية، وما ترسمه من صفات إلهية لا يُستحبّ أصلاً إطلاقُها على البشر، ناهيك عن الله. أي الصفات الناتجة عن قصصٍ يظهر فيها الله: قلِقاً، حسوداً، حقوداً، غضوباً، نادماً، ناسياً، منتشياً برائحة الشواء، مغلوباً... وهي صفات إنسانية رديئة، ألحقَتْها التوراة بإله بكل وضوح، ومن دون أي مواربة، فنشأت مشكلة كبرى، ظهر أثرها لاحقاً، هي ارتباط "الصفات" بالذات الإلهية.

1- ألبير كامو، "الإنسان المتمرّد"، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت-باريس.

2- التوراة، سفر التكوين6: 7

3- التوراة، سفر التكوين11: 5-9

4- التوراة، سفر الخروج 12:12

5- يوسف زيدان، "اللاهوت العربي وأصول العنف الديني"، دار الشروق، الفصل الأول، "جذور الإشكال: الله والأنبياء في التوراة". يفتتح الكاتب كتابه هذا بـ"تنويهٍ"، نعتقد أن ذِكره هنا مهمّاً: "لم يُوضع هذا الكتاب للقارئ الكسول، ولا لأولئك الذين أدمنوا تلقّي الإجابات الجاهزة، عن الأسئلةِ المعتادة، وهو في نهاية الأمر كتابٌ، قد لا يقدِّم ولا يؤخِّر".

ملاحظة: ليس الحديث عن "مسرح الثورة الشعبية السلمية"وموقعه في "الوسط" هنا، بعدَ الحديث عن "مسرح النظام"، وقبلَ الحديث عن "مسرح داعش"؛ من قبيل صدفةٍ بحتة،أو تسلسلٍ تاريخيّ بحت. سأترك للقارئ أو القارئة الكريمَين، فرصة التفكّر الحرّ في أسباب ذلك.

المبحث الثالث

الرأي والرأي الآخر

وبهَتَ زارا مجيلاً أنظـاره في القـوم ثم قـال:مـا الإنسـان إلا حبـل منصـوب بين الحيـوان والإنسان المتفوِّق، فهو الحبـل المشـدود فـوق الهاويـة. إن في العبـور إلى الجهـة المقابِلـة مخاطَرة، وفي البقاء في الوسط خطراً، وفي الالتفات إلى الوراء، وفي كل تردُّد وفي كل توقُّف خطراً في خطر[23].

23 **فريدريك نيتشه، هكذا تكلّم زرادشت، ترجمـة: فليكس فـارس، دار القلم، بـيروت، لبنـان، ص35.**

في أوقات الحسم، يدرك ذوو الحسّ السليم من البشر، أن التردُّد والحذر، محض غباء وهباء، فـ"المخاطَرة" التي تميِّز العبور إلى الجهة المقابِلة، غير مسموح بموازاتها و"الخطر" الذي يلفُّ البقاء في وسط الطريق، والالتفات إلى الوراء، لأن في المخاطرة شجاعة وتوقاً وتحريضاً، لكن الخطر نكوص إلى الحيوان، أو سقوط في الهاوية. ووحدها المخاطرة، تقي الحيوانيّة والهاوية في آن واحد.

أمام عواصف التغيير، نكصت أنظمة الحكم في العالم العربي، إلى بدائيّة حيوانيّة غريزية، فيما لم تحذر الشعوب الثائرة المخاطَرة، فعزمت على العبور إلى الجهة المقابلة، حيث الإنسانية العليا المتفوِّقة، وما عاد التردُّد في شأن البداية والوسط وارداً لديها، مادام الحُلُم المقموع المؤجَّل قد حانت لحظة حسمه.

****

بين الحيوان الذي نكصت إليه الأنظمة، والإنسان المتفوِّق الذي اختارت الشعوب العبور إليه توقاً وشوقاً، ثمة من فضَّل البقاء (المطلق) في الوسط، جاهلاً أو متجاهلاً الهاوية. أولئك لم يوالوا ولم يعارِضوا، ووالوا وعارضوا، ربما طمعاً في الاستفادة من امتيازات الموالاة والمعارَضة، ففارقت النسبيّة معهم زمانها ومكانها، وغدت "نسبية مطلقة". احتمى هؤلاء بغطاء الاعتدال، عبر ادعاء سعة

الصدر والقدرة على استقطاب الأضداد دونما إدراك لانصهارهم فيها جميعها، من خلال مساوَمات تغيب فيها ملامح الذات لصالح المنافع الوضعيّة الوضيعة. لم يدرك هؤلاء أن حياديَّتهم تلك لا تمتُّ إلى الموضوعية بصلة، لأن نسبيَّتهم كانت مطلقة. والخطورة كل الخطورة تكمن في النسبية وقد استحالت مطلقة. النسبية التي يجدر بها أن تكون نسبية فحسب.

وإذ تغدو النسبيّة مطلقة تستحيل مباشرة "حقيقة مطلقة" تُغيِّب الحقائق، وإذ تُغيَّب الحقائق يبدأ فرض الأنا عبر تقويض الآخر. وفي "الأنا" مثلاً، يلفت أحمد برقاوي إلى خطورة النسبية المطلقة، مبيِّناً تناقضها مع الموضوعيّة أولاً وأخيراً. فهي القول: "إن جميع أحكامنا نسبيّة، وبالتالي فجميع الأحكام لها حظ متساوٍ من الحقيقة، وعلى هذا، فالنسبية المطلقة ليست تعبيراً عن الحرية كما يُظن". ولما كان لا اختلاف في أن "زوايا المثلث تساوي قائمتين" لأن هذا التعريف يمتُّ إلى العلم الذي يضيق حقل الاختلاف فيه؛ فإن الاختلاف في شأن شخصيّة الديكتاتور مثلاً يُدخلنا في معمعة النسبية المطلقة. يقول برقاوي: "هب أن أحداً قال إن ستالين هو المنافح الأكبر عن الحرية، وآخر أكد أن ستالين أكبر ديكتاتور شهده القرن العشرين، وطاعن للحرية، وقائل يقول: إن كلا الحكمين يعبِّران عن الموقف من ستالين، فالأحكام حول من هو الديكتاتور بهذا المعنى نسبيّة، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإن الحرية هنا قد غيَّبت مفهوم الديكتاتور ولم يعد لدينا

أي معيار نقيس فيه درجة الحاكم الديكتاتوري ولنميِّز على أساسه الديكتاتور من الديمقراطي."[24]

إن لَغَط النسبيَّة المطلقة اللازم عن غياب المعيار، عبر خلط الأوراق، ومَزْج الحقائق، وادعاء كل فريق لحرية امتلاكه الحقيقة، يجعل من الحقيقة ملكيّة خاصة، وبالتالي حقيقة مطلقة. إذ"تمييع" الحقائق الداخل في بنية النسبية المطلقة، لا يُميت الحقائق فحسب، بل يدفع إلى الظلم، فيقع الجَوْر والطغيان، وتحدث "التَّعميَة" السياسية والاجتماعية، لتبرز تالياً ضرورة الرَّدِّ عليها، عبر فضحها وتبيان الحقائق التي ميَّعتها النسبية المطلقة. والرد على التعمية، والتَّمييع وفضحهما، كان الجهد الجبَّار الذي آثر الثائرون والناشطون في سوريا مكابدته وتكبُّد عنائه.

****

في سوريا، كما في كل دول "الربيع العربي"، عادت السياسة إلى الشارع، في معنى ما؛ فاندلع الرأي والرأي الآخر، وتواجهت الـ"لا" مع الـ"نعم" لأول مرة، بعد سواد الأخيرة عقوداً طويلة، و"اقتحم" المُناخ العام قولٌ حق أُريد به باطل، عبر التأسيس لوعي زائف يبرِّر الـ"نعم" ويكرِّسها لتبقى كما كانت، هي السائدة فحسب، القول مفاده: إن لكل شخص الحق في الاختلاف، وفي أن يصرِّح بما يشاء، وما

---

24 أحمد برقاوي، الأنا، دار التكوين، ص191-192.

علينا إلا أن نحترم الرأي الآخر وأن نقبله. كان السؤال المؤرِّق، ربما، بالنسبة إلى بعض التوَّاقين إلى الحرية والتغيير: هل فعلاً علينا قبول أي رأي آخر لمجرَّد أنه رأي آخر؟. كان الحسم في هذا الشأن صعباً ربما، من دون التعاطي النقدي ومفاهيم اقترنت أيما اقتران بالحداثة، من خلال الانطلاق من الحداثة نفسها، كتجاوز مستمرٍّ للذات. إذ مفهوم "حق الاختلاف" يبدو كأنه يسمح بتجاوزه من خلال قراءات غير محدودة، قد تتكشَّف بعدها فضاءات غير محدودة أيضاً. فرفعِ القيود عن حق المرء في الاختلاف في ما يخص حياته الشخصية، مثلاً، أو في ما يتعلَّق بإبداعاته الخاصة كالأدب، لا بدّ أن ينتهي متى قارب حق الاختلاف الشأن العام، ليُقنَّن بضوابط ومعايير تمنع إطلاقه، إذ حق الاختلاف في ما يخص الشأن العام، ليس حقاً مطلقاً.

بدت مسألة قبول الرأي الآخر، أعقد مما يُظن، مادام الرأي لابد أن ينمو في سياق كلِّي حُر. فقبول الرأي الآخر، بالنسبة إلى الثائرين، كان يشترط، على الأغلب، أن يكون الرأي الذي يجب عليهم أن يقبلوا به، حراً، بمعنى ألا يكون تابعاً أو نابعاً من سلطة ما مفروضة على صاحبه من حيث يدري أو لا يدري. إذ لكي تكون حراً/ة، يجب أن يكون الآخر أيضاً حراً/ة. فالحرية لم تكن لتقوم من وجهة نظر فيلسوف وجودي من مثل (ياسبرز 1883-1969)، لو لم يكن ثمة اتصال بين الحُريّات، حتى يكون لكل منها موقفها بالنسبة إلى ما عداها من الحريات، كون الحرية لا تقوم في الخلاء. معنى

هذا، أنه لا قيام للحرية إلا بصراعها ضد القهر أو الضرورة أو الإلزام. لأنه لو اختفت العوائق تماماً، أو لو هُزِمت الضرورة نهائياً، لكان في هذا موت مُحقَّق للحرية نفسها، إذ الرأي المستقل لا يعود له معنى إن لم يأتِ في وسط مناخ كليّ حُر ومستقل، وحين لا يعود للرأي المستقل معنى؛ تطفو الحاجة إلى إعادة النظر في مسألة "قبول الرأي الآخر".

تحت ذريعة حق الاختلاف، وقبول الرأي الآخر، ثمة مَنْ اعترض بالقول: إن تأييد حاكم ما وموالاته، رأي، وإن النسبيّة، أي إثبات ونفي التأييد والمعارَضة، رأي أيضاً. حقاً إنها آراء، ولكن يشترط الرأي، كما رأى الثائرون، الحرية والاستقلال في مجتمع يكون كل أفراده أحراراً، وهذا ما يوفِّره نظام حكم ديمقراطي، حينها يمكن الاعتداد برأي يؤيِّد نظام حكم قائم أصلاً على الرأي والرأي الآخر، ولكن مع نظام حكم استبدادي، يمثِّل قمع الرأي أحد أهم مرتكزاته، لا يمكن الوثوق برأي مؤيِّد ولا نسبي حتى. هكذا تم توصيف من ينافح عن السلطة أو النظام ورئيسه، بـ" البوق"، أي الأداة التي يصل صوت السلطة من خلالها، مادام الرأي هنا غير وارد من دون أوامر تُعطى إلى صاحبه قَبْلاً وبشكل متواتِر وممنهَج، ومادامت هناك دوماً برمجة عصبيّة لغوية سلطوية.

****

أن أقبل الرأي الآخر أو لا أقبله، يعني أنه عليّ أن أكون حراً/ة، بمعنى أن يكون لي الحق في أن أقبل أو لا أقبل. لذا يُفضَّل تحديد الحق أولاً لكي لا تنزلق الأمور إلى "النسبية المطلقة". إذ الحق حكم، وإذا كانت البداهة أو الوضوح معياراً للحق، فإنّ الحكم الصادق هو الحكم الواضح بذاته، أو بما ينطوي عليه من بداهة بنفسه. فإن كان لا يمكن لأحد أن يشكِّك في أن "زوايا المثلث تساوي قائمتين" مثلاً، فإنه لا يمكن لأحد أن يتنكَّر أو ينكر أن احترام حقوق الإنسان، حق، وشرط للمواطَنة. في المقابل، على الآخر أن يكون حراً/ة أيضاً، بمعنى أن يكون رأيه، طرحاً خاصاً به، وأن يكون قادراً على التدليل والبرهنة على رأيه بحرية. أو قد يكون الرأي تبنِّياً، ليست بمشكلة، لكن لا بد أن يلزم التبنِّي عن إرادة حرة. إذ الحرية تقتضي الخلاص من نزعات السلطة والتسلّط، ومن الأنانيّات المرتبطة بالغايات الضيِّقة التي من شأنها عدم الاعتراف بحق الآخر في الوجود والانتفاع، والمواطَنة. تبرز هنا الحاجة المُلِحَّة إلى التفكُّر النقدي المشكِّك والممتحِن لما يُعرَض من روايات متعدِّدة ومختلفة، ليتمكَّن العقل من تفكيك أوصالها، وليتبيَّن تالياً تماسك بنيانها المنطقي من عدمه، خصوصاً أننا ننتمي إلى عصر أدنى ما يُقال فيه، إنه عصر تكنولوجيا وإعلام، إذ غالباً ما تُقدَّم المعلومة، أي معلومة، وخصوصاً المعلومة السياسية، كـ"إقناع" مُسنَد بمكر ودهاء، إلى حجج منطقية وعقلانية تبدو في ظاهرها متماسكة، لكنها ليست كذلك في حقيقتها.

تجدر الإشارة، في هذا الصدد، إلى أن الإمام الغزالي، مثلاً، كان قد تعمَّق في مناهج الفلاسفة، وفي آليّات تفكُّرهم، وأتقن منطق الجدل والحُجّة والبرهان. مع ذلك، لا يمكن القول: إن الغزالي فيلسوف، مادام الغزالي إماماً يمثِّل حجَّة للإسلام، كما لا يمكن الإنكار أن كتابه "تهافت الفلاسفة" ليس إلا كتاباً ضد الفلسفة والتفلسف.

إن مَنْ لا يبالي بالديموقراطية ونهجها، قد يتبنّى رؤاها شكلاً، ما دامت رؤى قد تلقى قبولاً ورواجاً في عالم مفتوح وكل ما فيه مفضوح، ولا بأس عندها من مغازلة الآخر من مثل: الغرب "الديموقراطي"، أو متبنّي الديموقراطية، عبر اختطاف وتسييس مفاهيم الديموقراطية والحداثة والعَلمانية، وإطراب آذان المدافعين عن الإنسان وحقوقه، أو المتوجِّسين من الجماعات الإسلاميّة المتطرِّفة، ومن الإرهاب. ذلك هو النهج الذي سار عليه النظام في سوريا، قبل اندلاع الثورة 2011، وبعد اندلاعها. لكن في عالم مفتوح وكل ما فيه مفضوح، بدا النظام ساذجاً، حين اعتقد، أو أراد أن يعتقد، أن آلة البطش التي خلفه غير مرئية، وأن ادعاءه العَلمانية والحداثة واحترام حقوق الإنسان، محلّ ثقة وتصديق واحترام.

أياً يكن، فقد كان السوريون التوَّاقون إلى الحرية والتغيير من ذوي الحس الإنساني رفيع المستوى، كانوا على دراية بأنه لَمِنَ الانحدار الأخلاقي، أن يتم قبول رأي مدعوم بأدلة "انتقائية" تبرِّر القتل والاعتقال والاغتصاب والنَّهب والسَّلب والتجويع والتشريد

والتهجير- وتدمير- المدن والبلدات السورية المختلفة، إمعاناً في خدمة هدف أوحد ونهائي يجعل من سلطة آل الأسد، سلطة أبديّة. إذ لم يكن وارداً، بالنسبة إلى أولئك الأحرار، قبول "رأي" – يقصد أو لا يقصد، وكائن من كان صاحبه- يصبّ أخيراً في بقاء نظام الاستبداد والاستعباد، أو في بقاء رئيس ذلك النظام، لمجرّد أنه رأي آخر، لأن في ذلك نكوصاً إلى الحيوان، أو سقوطاً في الهاوية، حيث البؤس المطلق.

التفاؤل والتشاؤم

1

في أغلب المناظرات، والتَّصريحات، والسِّجالات، والنقاشات، والجدالات، والتفكُّرات التي قاربت الحدث السوري الذي تفجّر في آذار 2011، في صيغها العامة والخاصة، المكتوبة والشفاهيَّة، المقروءة والمسموعة، النظرية والعملية، تبدّت رؤى متفائلة وأخرى متشائمة. وكلتا الرُّؤيتين المتشائمة والمتفائلة بدتا كأنهما استطالة لكلٍّ من طرفَيِّ الصراع الوجوديّ الرئيسَين في سوريا، أي، النظام الجائر والشعب الثائر، إذ مراراً أعلن النظام ورئيسه أنها "خِلْصِتْ". كنوع من "التفاؤل" أو ربما طمأنة المتضامنين معه في الداخل، والواقفين

إلى جانبه في الخارج، لكن "الأزمة" كما درج على تسميتها النظام وقوى السيطرة في العالم، هي (ثورة) بالنسبة إلى الشعب الثائر، وفي التاريخ لم يحدث أن تمكّنت سلطة من قَمْعِ ثورة شعبية، كما أنه من غير الوارد منطقيّاً وواقعيّاً أن "تخلص" الإرادة الحرة أو تنفد، ما يعني النصر المؤكَّد والحرية. تلك هي الصيغة المتفائلة التي واجه بها الثائرون تفاؤل النظام. وبين التفاؤلين "النظاميّ" و"الثوريّ" ثمة فوارق أصيلة، لعل أهمها أن الأول بدّد نفسه بنفسه، كونه حسماً نظريّاً مسبقاً، يترفَّع عن الواقع الحيّ وينكره، وقد كذَّبه أيضاً استمرار الثورة واتِّساعها وتجذُّرها، في حين أن الثاني استشرافيّ، تأمليّ، مستقبليّ ينطلق من التجربة الحيّة، ومن الواقع الضَّاج بالحدث. الواقع الذي بدا كأن التفاؤل الثوريّ يحايثه ويتسامى عليه، بهدف التخلّص منه نقلة نقلة في اتجاه "الخَلاص" أو ما يشبه (النيرفانا[25])، بعدما عاش الثائرون تجربة اهتداء شخصيَّة نمّت في دواخلهم مهارة التجاوز الضرورية من أجل مواصلة النضال، والصمود أمام المآسي.

---

25 تقول الأسطورة: إن أميراً يُدعى سيدهارتا أوغوتاما يصمّم على أن يصبح الحكيم "بوذا". يدخل الأمير في صراع مع شيطان يُدعى "مارا"، تشعر مارا بأن نفوذها على العالم مهدَّد. فتغادر قصرها، وتنقطع أوتار آلاتها الموسيقية، وتنشف المياه في خزاناتها، وتجمع قوَّاتها وتمتطي فيلاً وتحشد أسلحتها وآلياتها، وتهاجم الأمير الذي كان جالساً تحت شجرة المعرفة التي وُلدت عندما وُلِدت مارا وجيشها المؤلَّف من النُّمور والأسود والجِمال والفيلة. يطلقون السهام على الأمير، لكنها تتحوَّل إلى أزهار. يرشقونه بجبال من نار، لكن اللهب يشكِّل خيمة فوق رأسه، وهو بلا حراك يتأمل، وساقاه متصالبتان، ربما لم يعرف بأنه قد هوجم، يفكِّر في الحياة، كان يقترب من حال (النيرفانا) أو الخلاص. وقبل غروب الشمس كانت الجنيّة قد هُزِمت. لم يعد سيداهارتا، بل بوذا الذي وصل إلى النيرفانا، ويجب عليه الآن أن يخلِّص الآخرين. من كتاب، سبع ليالٍ، بورخيس، ترجمة د.عابد اسماعيل، دار الينابيع، دمشق 1999.

إن التفاؤل الثوري هنا، هو تفاؤل "الخَلاص" الذي يناقض تفاؤل الـ"خِلْصِتْ"، أي التفاؤل بمعناه النظاميّ، إن جاز التعبير، فالخَلاص خِفَّة وحرية لا يُتَصوَّر نفادها، كما أنه خروج من مرحلة ودخول في مرحلة أخرى أكثر رقيّاً، بعد عبور سلسلة من التجارب القاسية، لكن "خِلْصِتْ" إعلان عن نفاد، عن حتميّة ميِّتة، عن تطرُّف وحدٍّ ونهاية وهاوية، وعن قنص الواقع الحي ودفنه في الماضي، لا سيَّما وأن "خِلْصِتْ" كانت من نتاجات تغييب الواقع، إذ السلطة الأسدية ما برحت منذ اليوم الأول لاندلاع الحدث في أواسط الشهر الثالث لعام 2011 تتحدَّث عن محاربتها "مؤامرة خارجيّة" و"عصابات مسلَّحة" غير موجودة أصلاً، وهنا يظهر التباس "التفاؤل النظامي"، فالسلطة بدت للمتلقّي كأنها في حرب مع أشباح، حيث تغيب هوية الخصم الواضحة والمحدَّدة المعالم، بينما بدا "التفاؤل الثوري" واضحاً جليّاً، كون السوريُّون الثائرون أعلنوا منذ البداية، على الملأ، أن خصمهم النظام ورئيسه، وأنهم يريدون إسقاطهما.

2

في قبالة المتحمِّسين الثوريِّين، هناك القانطون واليائسون والعازفون، من طراز القائلين مثلاً: "رجَّعونا لورا عشرات السنين، هاي هيي الحرية إللي بدّن ياها؟" أو القائلين، كرد فعل على الدمار والخراب، والدماء والأشلاء: "ريتها ما كانت الثورة. كنّا عايشين بأمان

ومستورين". قد تكون تلك المواقف مبرَّرة نوعاً ما، ربما بسبب اعتياد أولئك على العيش، عقوداً طويلة، تحت إمرة عائلة مالكة/حاكمة أمسكت بمقاليد السلطة بلا منازِع. والاعتياد، على المدى الطويل، من شأنه دفع المرء صوب التَّراخي واللامبالاة، والتَّسليم بالواقع كما هو مع غياب تام لأي حسٍّ نقديّ وإنسانيّ وأخلاقيّ. وقد ضاعفت وحشيَّة النظام غير المسبوقة، على الأقل في العصر الحديث، في قمع الثورة، ضاعفت من الإحساس بالعجز لدى البعض، والميل إلى الإلقاء باللائمة على الثائرين الحالمين بالعدل وبالعيش الحر الكريم، وتحميلهم وِزْرَ ما لحق بالبلاد من خراب، خصوصاً أن الثائرين لم يتمكَّنوا، بعد مرور سنوات على ثورتهم، من تحقيق الهدف الرئيسي، أي رحيل الرئيس، ما جعل صورة الثائرين في ذهن أولئك المتشائمين تبدو ضعيفة، على خلاف ما حصل في ثورات أخرى من ثورات "الربيع العربي" والتي لم تدم طويلاً حتى أسفرت عن هروب طاغية (بن علي)، وجَبْر آخر على التَّنحِّي ثم البدء في محاكمته (مبارك)، وقَتْل ثالث (القذافي)، وخَلْع رابع بعد حرقه (صالح). يُضاف إلى ما سبق، تنامي وحدة الشعب السوري الثائر وتجلّي "يُتْمه" بوضوح، بعد مرور فترة طويلة جداً على اندلاع الثورة فشلت خلالها أو أُفشِلَت كل المساعي والاجتماعات، والمؤتمرات..؛ المحليّة والإقليمية والدولية الرَّامية إلى حلّ "الأزمة" ووَقْف "العنف"، نتيجة غياب الإرادة الفاعلة والفعليَّة في الحل. ذلك

كلـه وغـيره، دفـع إلى تصـوُّر النظـام كأنـه فـاطر الإرادة الشـريرة، ويستحيل لإرادة أخرى أن تنتصر عليها أو تفوقها. لكن تبقى مثل هـذه النظرة المتشائمة كليَّاً أو جزئيَّاً، بالنسبة إلى المتفائلين، كأنها عِلْمٌ ميِّت لا يبارح السطح، أو كأنها موقف "لا أَدْرِيّ". يشكِّك في الثـورة ويقلـل من شأنها ومن شأن ما فعله الشعب الثائر وما أنجزه. هذا من جهة. ثم إن الـذي ثـار، من جهـة أخـرى، مـا كـان ليثـور لـو لم يكن خـراب "الدولة" قد أتى على الأخضر واليابس. لذلك، فإن التمدُّن، أو ما يظنُّه المتشـائمون حيـال التغيـير "نِعَمـاً" كـانوا يغرقـون فيهـا قبـل الثـورة "المشؤومة"، لن يكون تمدُّناً حقيقياً، من وجهة نظر المتفائلين بالتغيير والمؤمنين بالثورة، إن لم يرتبط بالحرية، إذ الحرية بالنسبة إلى أولئك المتفائلين شرط من شـروط التقدُّم، فـ"مَن يخشـى الحريـة خوفـاً على أمنه، فإنـه لا يسـتحق الأمن ولا الحريـة". إن "الرجـوع إلى الـوراء" الذي تكلّم عنه ذوو المنطق المتشائم، الذين صبُّوا اللَّعنات على مَنْ ثار وكان السبب في دمـار البلاد وخرابهـا، وتـدهور الأوضـاع المعيشـيَّة والصـحيَّة والتعليميـة وغيرهـا، لم يـروا، من وجهـة نظـر المتفـائلين الراغبين في التغيير، أن للتمدُّن والتقدُّم وَجهَيْن، مـادي ومعنـوي، فلـو أن العدالـة الاجتماعيـة والكرامـة والحريـة والديموقراطيـة والقضـاء العـادل المسـتقل والتـداول السِّـلْميّ للسـلطة..؛ لـو أن ذلـك كلـه كـان موجوداً لمـا ثـار الشـعب. ويبـدو أن وجهـة النظـر هـذه تتقـاطع وآراء مفكِّر من مثل (رفاعة رافع الطهطـاوي 1801-1873)، فالطهطـاوي

أيضاً يرى أن التقدُّم له وجهان: ماديّ، يتعلق بالمنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة والعمران والمرافق وغيرها. ومعنويّ، شديد الصلة بالحرية وبالأخلاق والآداب، وكلاهما متمِّم أحدهما الآخر. في الثورة، بالنسبة إلى المتفائلين، كل شيء تتَّصل حلقاته: كبرياء الثائرين وحماستهم، حميا الذين انخرطوا في العسكرة مثلاً، قنوط الإنسان العاجز عن الانخراط في الثورة، الضّجَّة التي تصاحب كل انتصار أو تقدُّم جديد للثورة، رغبة الثائر في الهدم الخالص وعزمه على أن يكون فوق الراهن دوماً، الزُّهو بالنفس الذي أدى إلى ظهور مُثل عليا جديدة لم يعرف معها الشباب الثائر أي نوع من أنواع الصبر أو ربما الهدوء البارد الذي يطبع شخصيّة المعارض السياسيّ التقليديّ مثلاً، إذ يجب أن يعيدوا بناء عالمهم الخاص في أسرع وقت ممكن، وهُم في الوقت نفسه غير مؤطّرين بإيديولوجية محدَّدة قد تشكِّل خطراً على نقاء عواطفهم، كونهم لا يؤمنون إلا بما يسنُّونه لأنفسهم. إن جملة هذه العواطف المتوهِّجة، المتقلِّبة، القلِقة وجوديَّاً، المتضارِبة، هي ما يمكن أن يُطلق عليه اسم الثورة، تلك النار الشاملة، التي نخطىء إن اعتقدنا أنها مجرَّد مرحلة،لأنها تطال كل شيء، وهي مصير فرديّ وجماعي بما اتَّسمت به من احتدام مركّز، وحسٍّ بأهميتها الاجتماعية الأساسية، وثقل في تأثيرها الإقليمي والعالمي ليس المحليّ فحسب، ومضيّ في هتك حُجُب النظام السوري

كجزء من نظام عالمي قائم، على ما يبدو، على السيطرة والعدوان والغَلَبَة.

3

إن الرَّيبة حيال أي تغيير، الناجمة عن "الرؤية" المتشائمة، إضافة إلى أنها دفعت بمتبنِّيها إلى عدم الاكتراث لمستقبل سوريا وفقدان الثقة به، كونه غير معنيَّ أصلاً بقيم الديموقراطية والحرية والعدالة التي قد تحلّ على الناس مستقبلاً؛ فإنها أيضاً، أي الرَّيبة، انقلبت قنوطاً ويأساً جعلا الريبيّ موهَن القوى، وغير مكترث للرَّاهن. الراهن الذي تعصف به الموبقات والرذائل والمفاسد والشرور من قتلٍ وذبح وتهجيرٍ وتشريدٍ وتجويع واغتصاب واعتقال ونهب وسلب وحرق وتدمير، وجهد حثيث من النظام من أجل وأدِ البلاد تاريخياً وحضارياً وثقافياً. ما يعني في نهاية المطاف، ضعف الإرادة والعجز عن الانتماء إلى الثورة، أو إلى أي شكل من أشكال التغيير حتى. على أن المأثور الثوري الذي تراكم على مدى سنوات من عُمر الثورة، قد مكّن من تقديم الدعم الذي يُشَرْعِنُ "الرؤيا" المتفائلة المتجاوِزة مِحَن الراهن، والمنطلِقة مما حققته الثورة من مكتسبات سياسيّة وأخلاقيّة. ومن مفارَقات الثورة السورية الكثيرة والنَّادرة، أن مَن عاش في وسط الميدان الثوري، وتحت القصف، أو مَنْ خرج من تحت الأنقاض، كان، على الأغلب، متفائلاً، في حين مَن تواجد في مكان بعيد كل

البعد عن ميدان الثورة، كـان، على الأغلب، متشـائماً! ومن مفارقاتهـا أيضاً، استمرار التظاهرات المدنيَّة السِّلْميَّة، وعودتها للتأجّج كلَّما ساد اعتقاد جازم في أن الثورة قد تعسكرت إلى درجة باتت تستحيل معها عودة التظاهرات! وهذا ما يمكن أن يُقرأ على أنه حنين الثورة الدائم إلى ذاتها، والرغبة في (العَوْد الأبديّ[26]) إلى منبعها الأساس، المنبع المدنيّ السِّلْميّ رفيع المستوى إنسانياً وعقليَّاً وروحيَّاً وقيميَّاً.

4

إن اللذين وقعوا تحت تأثير "سِحْرِ" الثورة في طابعها السلميّ في أشهرها الأولى، بدوا كأنهم "سُحِروا". إلى درجة مفارقة الواقع، والانفصال عنه، إذ غابت المرونة التي تخوِّلهم مواكبة الثورة في منعرجاتها ومنعطفاتها وتحوُّلاتها، وظلُّوا أسرى صورة محدَّدة ثابتة، ومطلقة عن الثورة، رافضين الإصغاء إلى أو الاعتراف بأي طارئ جديد قد يحلّ عليها. وهنا تبدَّت "رؤية" أخرى ممهورة بالتشاؤم وأسُّها "الخوف والقلق". الخوف من انحراف الثورة ذات التكوين المدنيّ السِّلْميّ في اتجاه العسكرة المحفوفة بالأخطار كافة. لكن على

---

26 هنا ثمة استلهام لفكرة "العَوْد الأبدي" عند الفيلسوف فريدريك نيتشه (1844- 1900). وهي من المفاهيم الأساسية في فلسفته. ربما يرتسم لغزها في "اللحظة" و"الآن" التي يلتقي فيها الماضي والمستقبل. فـ"العود الأبدي" هو قبول أبدية "اللحظة".

الضفة الأخرى، ثمة من بدا (هيرقليطيّاً[27]) في التفكُّر في واقع الثورة، وأظهر مهارات في إدراك هذا الواقع كصيرورة، على اعتبار أن"الأشياء في تغيّر متَّصل"، وأنه "لا يمكننا أن ننزل النهر الواحد مرَّتين، فإن مياهاً جديدة تجري من حولنا أبداً". هكذا تجلّت، على الضفة الأخرى، "رؤيا" متفائلة انطلقت من الواقع كصيرورة، ولم تكن لتفاجأ في أي منعطف في الثورة قد يغيِّر بعضاً من ملامحها الأوليَّة، مادام الواقع في تغيُّر دائم، ومادمنا غير قادرين على السباحة في نهر الثورة مرَّتين، لأن ثمة مياهاً (إحداثيَّات) جديدة تجري فيها دوماً. كما سمحت مرونة "الرؤيا" المتفائلة بإدراك أنه ليس في الواقع مُطْلقات، وبالتالي فإن سِلميَّة الثورة لا يمكن أن تكون مطلقة، خصوصاً أنها جوبهَت ببطش قلّ نظيره في القسوة والبشاعة. وقد جرت العادة، في مثل هذا النوع من السِّجال، أن يستحضر البعض ممَّن تحنَّطت في أذهانهم الثورة في صورتها الأوليَّة السِّلْميَّة "المطلقة"، (غاندي) باعتباره فيلسوف اللاعنف. وغالباً ما كان يتم، عند استحضار المهاتما غاندي، تجاهل واقع الثورة بما ينطوي عليه من حيثيَّات وتفاصيل ودقائق تنتمي إلى زمان ومكان محدَّدَيْن، هما زمان ومكان الثورة نفسها، وغالباً أيضاً ما كان يتم تجاهل صعوبة أو لا إمكانيّة ولا معقوليّة نقل تجربة إنسانية أخرى، وتطبيقها على واقع

---

27 نسبة إلى الفيلسوف هرقليطس (540-475ق.م)، وما جاء بين قوسين عن التغيّر المتصل، وعن استمرار جريان مياه النهر هو جوهر فلسفته وخلاصتها.

مختلف زمانيًّا ومكانيًّاً. المفارَقة هنا، أنه حتى غاندي، الذي يُعْتبَر اللاعنف أوَّل عقائده وآخرها، أعلن أن المرء إذا لم يكن له إلا خيار بين الجُبن والعنف، فإنه ينصح بالعنف. وفي كتابه (ر.دراته: العدالة والعنف- باريز- هاتيه 1958- ص91) يقول: " إنني أعتنق الشجاعة الهادئة بأن أموت من دون أن أَقتُل. ولكن من يفقد الشجاعة فأنا أرغب إليه تنمية فنّ أن يَقتل ويُقتَل، بدلاً من فراره المشين". وفي حين رأى المتشائمون من عسكرة الثورة أن موقفهم اتَّسق مع حجم هَوْل النظام الذي زاد وتضخَّم، ومع الانهيار الشامل تقريباً لمدن وبلدات بأكملها بات النظام يقصفها ويبيدها بكل أنواع الأسلحة، كما اتَّسق موقفهم مع ما باتت تقترفه بعض عناصر "الجيش السوري الحر" من جرائم قد تقترب من جرائم النظام، ومع وجود بعض المتديِّنين الأصوليّين في صفوف الكتائب المقاتلة، الأمر الذي دفعهم إلى التخلّي عن مناصرتهم الثورة وتأييدهم لها. رأى المصرُّون على التفاؤل –على الرغم من كل شيء- أنه ليس عدلاً أن يتم التخلّي عن الثورة، وأن يُضرب عرض الحائط بكل ما مرَّت به قبل أن تصل إلى هذه الحال. وأن هذه الحال لا تُخيف، ولا تشكِّل خطورة على الثورة ككل، مادامت ليست داخلة في تركيبتها الأولية، ومادام هناك فسحة دائمة لتقويم أخطاء الثورة وتصويبها، كما أنه ليس عدلاً أن يكون

(غيـاث مطر[28]) أهم من (حسـين هرمـوش[29]) مثلاً. ومن المعلـوم أن كلتـا الشخصـيَّتين المـذكورتين، همـا رمـزان من رمـوز الثـورة الـتي عجَّت برموزـ البطولات والتضحيات، ولمَّا كـان مطـر رمـزاً للسِّـلميَّة والوردـ والماء، فإن هرموشاً رمز للنُّبل العسكري، ورَفْضِ الانصـياع إلى أوامر مؤسسة عسكرية آثرت غزو الديار بـدلاً من حمايتهـا، وقـد لاقى كـلٌّ من مطـر وهرمـوش، مقابـل مواقفهمـا المشـرِّفة، المصـير نفسـه، أي التعـذيب والمـوت. إضـافة إلى مـا سـبق، رأى المتفـائلون أيضـاً، أن المسـاواة بين الضـحيَّة والجلاد لا تجـوز، وأن الـوحش الحقيقي هنا هو النظام دوماً. عدا عن ذلك، فإنه لمن الأنانيَّة المفرطـة، بالنسـبة إلى أولئـك الثـائرين المتفـائلين، أن تكـون مـع الثـورة حين تغمرهـا السـعادة والجمـال ظنّاً منـك أنهـا ثـورة ملائكـة أو أنبيـاء، ثم تتخلَّى عنها حين تمرُّ بأزمـات ومطبَّات؛ فكـل مـا جـرى ويجـري في الثـورة إنمـا هـو من أكـثر الأمـورـ طبيعيّـة وواقعيـة وضـرورية. وإن فقدان الثقـة بثـورة انـدلعت من أجـل تحريـرـ الـوطن والإنسـان، يعـني فقدان الحُلُم، إذ لا يوجد شيء نـاقص للتغلُّب على التشـاؤم، إلا الهـدف الواضـح، وبمجـرد وضـوح الهـدف تخسـر "الشـياطين"ـ رهاناتهـاـ فالثورة التي ولّدت، عبر الويلات الـتي نجمت عنهـا، مشـاعر الحـزن

28 غياث مطر: ناشط سياسي، شارك في تنظيم التظاهرات في مدينة "داريا" في ريف دمشـق الغربي. عُرِف بمبادراته إلى تقديم المـاء والـورد لعناصر الأمن والجيش في أثنـاء التظـاهرات. اعتُقِلَ في 6أيلـول (سـبتمبر) 2011 خلال كمين نصـبته قـوات الأمن، ثم تم تسـليم جثمانـه في 10أيلول إلى ذويه، إثر وفاته تحت التعذيب الذي تعرَّض له في أثناء الاعتقال. يُـذكَر أن للشـهيد مطر ابناً وُلِدَ بعد وفاته، سُمِّيَ بالاسم نفسه:(غياث مطر).

29

والأسى واليأس دفعت البعض إلى تبنِّي خطاب مثبط محبط، هي نفسها التي ألهبت كل مشاعر الحب والرغبة والحيوية والتَّوق، وقدّمت أمثلة مهمة في التسامح والتعاضد، والتفاني من أجل القضايا العادلة في الحياة، وهي نفسها التي ساهمت في إعادة اكتشاف الإنسان/الفرد ذاته، وانبثاق شعور عميق بالاستقلال، وسموّ الروح والعقل، والنفس والوجدان أعاد الاعتبار إلى قيم المواطَنة والوطن والوطنيَّة.

في التفاؤل كضرورة ثوريَّة

كيف تحيا البشريَّة حياة وجدانيَّة مستقرَّة والناس يبحثون عن منافعهم ومصالحهم الخاصة، ويهجرون القيم الأخلاقية والجمالية والمُثل العليا، ويزخر العصر بالأعمال القذرة الشريرة والمساعي العشوائيَّة؟ إن الفشل في تقديم إجابة شافية عن سؤال من هذا الطراز، ربما يكون

سبباً في ولادة إرادة منكسرة مهزومة، حلَّ عليها التشاؤم بعد أن حَاولَتْ وفشلَتْ، وربما يكون سبباً كذلك في سواد شعور بتفاهة الحياة ونقدها. لكن السؤال المقابل الذي قد يكون أهم من السابق هو الآتي: ما السبيل للخروج من معمعة الموت الناجم عن التشاؤم والتغلغل في شبحيِّته؟. السبيل، ربما يكون النقيض، أي الامتلاء بالحياة، والحياة مزيج معقد من كل شيء. لقد استمع زعماء العالم الذين يسحقون خصومهم، ويخدعون شعوبهم، استمعوا إلى مطالب الشعب الثائر في سوريا باحتقار بالغ. فالشعب السوري مكوَّن من أعدائهم وضحاياهم في آن واحد، فلماذا لا يأكلون من التفاحة؟ ولماذا لا يتركونها تفسد إذا كانوا سيربحون من إفسادها؟. ولكن الشعب السوري الثائر كان يدرك، على ما يبدو، اللعبة وقواعد اللعب فيها، وإدراكه هذا، هو واحد من بين الأسباب العديدة والمتعدِّدة التي منعته من التراجع عن ثورته، فمدينة "داريا"- في ريف دمشق مثلاً، شهدت مجزرة من أكبر المجازر، فقد ارتكب النظام فيها مجزرة ارتدَّ فاعلوها بتاريخ (20 آب 2012 لغاية 27 آب 2012) إلى الحياة البهيميَّة بكل ما تعنيه العبارة من معنى. مجزرة راح ضحيتها المئات، بينهم أطفال ونساء. بيد أنه في المدينة نفسها، رفع الثائرون يوماً ما، في إحدى تظاهراتهم، لافتة رسموا في أسفلها هلالاً يحيط بصليب أو يعانقه، وكتبوا عليها متسائلين طامحين: "ما المانع أن يكون رئيسة الجمهورية امرأة مسيحية ؟!". إن أولئك الذين أعياهم التعب وجافى النوم عيونهم،

يحدوهم الأمل بعدما أدخلت الثورة السورية عليهم- كمؤمنين بها- تحوّلات عميقة جعلت منهم أصحاب مبادأة عقليَّة ومتبصِّرة، وصار الشعب الثائر يطمح لأن يبتدع لنفسه قوانينه بحرية، فما كان مستحيلاً في الأمس يصبح اليوم ممكناً، وما هو ممكن اليوم قد يصبح في الغد واقعاً، وفي كل الأحوال يبقى التفاؤل ضرورة ثورية.

الأنوثة والذكورة

تقول الميثولوجيا اليونانية: إن قاطِعَ طريق، يُدعى بروكرست، كان يسكن الجبل، وكان يستضيف المسافرين لينـاموا على سريره الحديدي، فإن كانوا أطول منه، قطع الزيادات ليُساوي جسد الضيف

مع السرير، وإن كانوا أقصر، شدَّهم حتى الموت. ويُحكى أن البطل تسيوس قتله بالطريقة نفسها.

ـ"الثورة أنثى"!

قد لا نجانب الصواب عندما نقارب بين بروكرست في الأسطورة، وبين مَنْ يقصُّ الزائد عن "سريرـ الأنوثة" في الثورة، ويمطّ القصير ليتناسب والسريرـ ذاته حتى الموت. وربما لا يعلم "بروكرست الثورة" أنه حين يفصِّل الثورة على "قدّ" "مفاهيم الأنوثة"، إنما يساهم في تأجيج "تسيوس ذكوري"ـ من شأنه قتل هذه الأنوثة بالطريقة ذاتها، أي عبر شدِّها لكي تتناسب و"مفاهيم الذكورة". ثم، ما الثورة الأنثى؟. إنها مجرد فكرة اتخذها البعض مثالاً أعلى لتفكيرهم "التقليدي" و"الطبيعي" في المرأة، فالثورة كأنثى لا تتجسَّد في أشخاص هم كلّهم إناث، بل الثورة هي أيضاً طفل وشاب ومُسِن. هكذا؛ تنزع فكرة "الثورة أنثى" إما إلى الإقصاء وإما إلى الإلغاء. أو هي تحارب هذين النهجين بانتهاجهما نفسهما، كونها تختزل الثورة وتختصرها في أحادية أنثوية، لتحديد جميع الأوضاع والمواقف والأحداث المختلفة وبيان وجهتها ومدلولاتهاـ لكن القراءة الواقعية للثورة، ومتابعة صيرورة الأحداث فيها، تدفع بالقارىء المتبصِّرـ إلى اجتناب مَنْح الثورة هوية جنسية، وتفسيرها من خلال الهوية ذاتها. فبعد اندلاع الأحداث في محافظة درعا بجنوب سوريا، مثلاً، على إثر

واقعة الأطفال الشهيرة، أطلَّت مستشارة الرئيس في خطابها الطائفيّ التحريضيّ الشهير، وتحدّثت عن موضوعات شتى، كان من بينها زيادة رواتب العاملين في الدولة. زيادة فهمها أهالي درعا (مهد ثورة الحرية والكرامة)، رشوة غايتها إسكاتهم عما احتجّوا ضده، فجاء الرد سريعاً:"يلا بثينة يا شعبان/الشعب السوري مو جوعان". وفي محاولة منه لامتصاص غضب الناس وحقوقهم، بعد تفاقم الأحداث لتطال مناطق أخرى في البلاد، اعتمد بشار الأسد سياسة استمالة الأعيان والوجهاء في المناطق المختلفة، فزار مدينة دوما الثائرة بريف دمشق، مثلاً، والتقى وجهاءها. بيد أن رد أهالي المدينة كان: "بدنا نحكي عالمكشوف/حراميي ما بدنا نشوف"، إعلاناً لرفضهم المساومة على دماء شهدائهم الذين كانوا قد سقطوا برصاص رجال الأمن قبل تلك الزيارة، وإصرارهم على متابعة الاحتجاج. وقبل هذه الشعارات وغيرها كان الأطفال في درعا قد كتبوا على جدران مدرستهم شعار الانعتاق:"الشعب يريد إسقاط النظام".

غرَضُنا من التذكير بتلك الأحداث والشعارات في بدايات الثورة السورية، هو تقديم أمثلة ربما تساهم في التدليل على أن الثورة: سياسية، اقتصادية، اجتماعية، والهاجس الأساس لدى الثائرين والثائرات هو الحرية والكرامة. فأن يعلن الناس رفضهم ما بدا لهم رشوة، يعني رفضهم امتهان كرامتهم وإذلالهم. وأن ينـدِّدوا باللصوصية، قاصدين بشكل رئيسي ابن خالة الرئيس رامي مخلوف،

يعني أنهم لا يقصدون مخلوف كـ"علوي"، بل "حرامي"، وفي هذا إشارة مهمة إلى أسباب اقتصادية ساهمت في اندلاع الثورة. ناهيك بالرغبة العارمة في الحرية، وهذه تُتَرجَم سياسياً بالدولة المدنية الديموقراطية، دولة الحق والقانون والمؤسسات. ما يعني في نهاية المطاف، أن الثورة ليست "أنثى".

تحدث "التعمية"، غالباً، حين يُصار إلى إعطاء الظواهر الثقافية أو التاريخية مظهر الظواهر الطبيعة، والخلط بين المجال الطبيعي والمجال المدني السياسي. فالثورة هي ثورة شعب بالمعنى السياسي لمفردة شعب، وهي تجلٍّ واضح لإرادة بشرية جماعية وفردية، ولا شأن لها بـ"هوية جنسية طبيعية".

****

نحاول في نقدنا هذا، أن نجلو النقص الذي تعانيه وجهة النظر التي تَعتبِر الثورة أنثى. فالعبارة المعروفة والمتداولة جداً "اغتصبوكِ لأن الثورة أنثى"، على سبيل المثال، من شأنها تكريس الصورة النمطية عن الأنثى، أي تلك المقترنة بالضعف والاستكانة. الصورة نفسها يكرِّسها كذلك رَسْمٌ كاريكاتوري لأحد الرسّامين على صفحات "فايسبوك"، رَسْم، شُطِرَ فيه جسد بشار الأسد نصفين: من الجهة الإسرائيلية، هو امرأة عارية، ذات جسد ضعيف، هش، رقيق ليّن وطيّع، أما من الجهة السورية، فهو رجل أيضاً عار، لكنه قوي

الجسد، خشن، مفتول العضلات. السؤال: هل تصح مقاربة موضوع محض سياسي، مقاربة جسدية، جنسية، "طبيعية"؟ ثم، ألا يساهم مثل هذا الرسم في تكريس الصورة النمطية ذاتها عن كلٍّ من الرجل والمرأة؟. الإجابة في رأينا: بلى. خاصة أن الشطر الذي من جهة إسرائيل (العدوّ)، في الكاريكاتور نفسه، هو امرأة، وهذا يشي بالذهنية القديمة/الجديدة التي طالما ربطت المرأة بالخيانة ربطاً محكماً، إضافة إلى الشر والعاطفة والضعف.

لا نعالج هنا إشكالية منفردة قائمة بذاتها، ولكننا نحاول أن ننفذ إلى المعنى الحقيقي للثورة من خلال نقد هذه الإشكالية، أي"الثورة أنثى". فالأنثى، بحسب المثالين المذكورَين وغيرهما الكثير مما لا مجال لحصره هنا، زائفة، تحيل على الكسل والجمود، واجترار الاضطهاد والشكوى المبتذلة، بدلاً من الفاعلية الإيجابية. هكذا؛ فإن ما يقدِّمه البعض أحياناً على أنه دفاع عن المرأة، يكشف ما يثوي تحت مفهومهم عنها من مغالطات، ويسيء، مع الأسف، إلى المرأة ويثبِّت المعتقدات حولها، ولا يبدِّدها كما يُظَن.

وإذا كان مَنْ لا يألون جهداً في تأنيث الثورة، يقصدون الثورة كأنثى من الناحية اللغوية الصرفة، على اعتبار أن الثورة اسم مؤنَّث في اللغة العربية، فيما الثائر فاعل مذكَّر في اللغة نفسها. فإن الثائر لا الثائرة بهذا المعنى هو مَنْ يفعل ويعمل في الثورة. تالياً، الثورة كأنثى

هي بمثابة أرض يجوبها الثائر، يحرثها، يزرعها، يسقيها، بينما هي متلقية، صامتة، ساكتة ساكنة. ما يعني سلبية الثورة المؤنَّثة، وإيجابية الثائر المذكَّر. لكن الواقع غير ذلك، إذ على الأرض ثائر وثائرة، وهما(فاعلان) في الثورة. وكلاهما عرضة لـ"الاغتصاب" على الأصعدة كافة من قبل الانتهازيين والوصوليين والمتسلّقين، لذا وجب التمييز بين الرجل وتسلّط الرجل.

يبدو المؤمن بفكرة "الثورة أنثى"، كأنه قد استسلم لأوهام الأرض المسحورة، والخرافة التي تنزع الفعل والفاعلية عن المرأة/الثائرة. المفارَقة، أن المؤمن بهذه الفكرة، يكون أحياناً هو نفسه الذي طالما اعترض على "الانفعال" الثوري، ودعا إلى عدم الانجرار خلفه، والإنصات إلى صوت العقل! لكن ألا يقتضي العقل نفسه، توصيف الثورة وتحديدها، عبر ردّها إلى أسبابها الواقعية و"المنطقية"؟ فكيف "ينجرُّ" هذا العقل إلى تحديدات "انفعالية" من مثل: "الثورة أنثى"، بدلاً من الانتباه إلى الثورة، كثورة شعبية، سياسية، اقتصادية، اجتماعية؟!

إن مفرطي الحساسية تجاه كل ما يخص المرأة وقضاياها، قد لا يُلامون حين يفرِطون. إذ قهر المرأة وظُلمها مضاعَف، لكن يبدو أن من المستحسَن القيام دوماً بمراجعة نقدية لاعتبار المرأة وحدها كائناً مظلوماً ومضطهداً ومسلوب الحقوق، فبالعودة إلى العبارة السالفة

الذكر، مثلاً، التي تجترّ المفهوم التقليدي نفسه عن "الاغتصاب"، أي ذاك الواقع على الجسد الأنثوي فحسب. نرى أنها عبارة مزاجية تغفل اغتصاب الأطفال والرجال. وكم هي كثيرة ومريرة التقارير التي وثقتها منظمة "هيومن رايتس ووتش"، مثلاً، حول انتهاكات حقوق الإنسان في سوريا، وتعرُّض الرجال والأطفال إضافة إلى النساء، إلى أبشع الاعتداءات الجنسية في سجون النظام. إضافة إلى معناه المباشر المتبدّي في الأذى الجنسي/الجسدي، فالاغتصاب عموماً هو كل استيلاء على حق الآخر بغير حق، والآخر هنا ليس امرأة فقط، بل أيضاً رجل، طفل؛ إنسان.

إن هذا النهج "البروكرستي" في الثورة، الذي يفسِّر كل شيء بطريقة آلية جامدة، يتقاطع ربما مع ما سمّاه سارتر ذات يوم، "الجدل المتوقِّف" أو "الجدل الدجماطيقي" الذي لم يعد له من هدف سوى إرغام الأحداث والأشخاص والأفعال والظواهر على الدخول في هذه الصورة، وهي في موضوع مناقشتنا هنا، صورة "الثورة أنثى" التي تشبه إلى حد كبير صورة "الاتحاد النسائي" المشوّهة المريضة.

سلامٌ على كل اتحاد إنساني..

ـ الحرب والأنوثة

1

"بتمنّى يكون عندي سيارة خاصة إنتقل فيها مع جوزي (زوجي) لجبهات القتال، من شان ما إضطر كل مرّة، إنْحَشَر بسيارة واحدة مع

الرجال". "كتير عليّي هالشّي؟". بالاستفسار النزِق هذا، أنهت سيدة تقاتل في صفوف الثائرين بحلب، حديثاً مع مراسل إحدى الفضائيات، ذات لقاء. بدت السيدة كأنها تبذل جهداً في شأن تعريف الآخرين بكونها محافِظة وملتزمة. بدت أيضاً مستاءة من وجودها بين الرجال، إلا أنها في الوقت نفسه، فخورة بقدرتها على القيام بما يقومون به. لطالما أفصحت بتباهٍ، عن تشكيلها كتيبة نسائية مقاتلة. ثمّ، كمَن يعرف هشاشة العنصر الأنثوي في القتال، والأصل الذكوري للحرب، راحت تتكلم عن وجودها بين المقاتلين الرجال، كامرأة يقتصر دورها على "رفع المعنويات القتالية لديهم".

بينما كنتُ أصغي إلى الكلام الممزوج بالنزق والقلق، المتذبذب بين الاعتزاز بممارسة دورٍ موقوف على الرجل، وعدم التصالح مع هذا الدور، عبر التنبّه إلى الوجود الأنثوي الحميم غير المرغوب في التخلّي عنه لصالح الذكورة المحضة؛ خامرَني، أنا كاتبة السطور، شعور غامض، ربما يخامر كثيرات، بأن ثمة جرحاً في عمق الأنوثة، يحصل عندما تجد المرأة نفسها في غير أجوائها، وبأن الوجود الإنساني بكليته يختلّ، عندما يُعبَث بالأنوثة، ما دامت هذه في حقيقتها، تعاوناً، إنصاتاً، حدساً، بصيرة، ترابطية...؛ غالباً ما لا يروق للمرأة، من حيث هي ظاهرة جمالية، سمعية، الاستماع إلى ضجيج يكلّمها كـ"أختٍ للرجال": حاربي، صارعي، قاتلي. حتى لو ظهرت بمظهر المحارِبة "الراغبة" في القتال.

كان تجنيد نساء وفتيات كرديات، قد أثار في وقت مضى، جدلاً إعلامياً بين مؤيد له ومعارض، من سوريين كرد، قدّم كل طرف آنذاك، حججاً يسند إليها موقفه. بشكل عام، ينطلق الموقف المعارض لعسكرة المرأة، ربما من رغبة عميقة في دوام حضورها، كحضور إنساني، رقيق، لطيف. مشهد نساء مواليات للأسد، على سبيل المثال، أُطلِق عليهن "البوات الدفاع الوطني"، ظهرن في فيديو وهنّ يقدّمن عرضاً عسكرياً، حاملاتٍ علم سوريا تتوسطه صورة الأسد، يثير اشمئزازاً ونفوراً، من حيث هو اقتياد صريح من جهة النساء، إلى عالم التوحش، وتبديد لمفاهيم من مثل الوطن، البيت، المسكن والسكينة، التي طالما ارتبطت ارتباطاً حميماً بالمرأة وبالخصائص الأنثوية الإنسانية، عبر تحوّل مفهوم المرأة الإنسانة، لبوةً شرسة إلى جانب أسد متوحش، وهنا تكمن المفارقة. إذ تاريخياً وأسطورياً وملحمياً ومفهومياً، ارتبطت المرأة بالحضارة والتحضر لا التوحش، بالزرع لا القلع، بالوصل لا الفصل. قد يبدو هذا الطراز من النساء "متواضعاً" أمام نساء حربيات شرسات أشدّ خطورة، يقاتلن قتالاً غير مباشر من خلف الكواليس، وكم هي كثيرة الروايات التي ما انفكت تتناهى إلى الأسماع، تتحدث عن أدوار، لنساء من السلطة الأسدية نفسها أو مقرَّبات منها، في صنع قرارات ومواقف تتصل بما يجري في البلاد. من شأن مشهدٍ آخر، كذاك الذي تظهر فيه مدرِّسة تحوّلت قنّاصة في "الجيش الحر"، وهي تسير إلى جانب طلابها

المراهقين، ممتشقةً بندقية القنص، أن يثير في النفس حزناً وألماً، وفي العقل تساؤلات حارقة عن مصير كل شيء.

أكتب الكلام الأخير هذا، وأرسم في الآن عينه، صورة في ذهني لشخص غاضب، يطالب بالكفّ عن هذا الترف الفكري، والتفكير في أن النساء في المناطق السورية الثائرة، يُغتصَبن، يُعتقَلن، يُقتَل أبناؤهن، تتحطم أسرهنّ، وتُدمَّر بيوتهنّ، فكيف لا يحقّ لهنّ الدفاع عن أنفسهن إذا ما أتيح ذلك؟! ثم أتخيّلني أقول لـ"شخصي" المفترَض، إن الانتقاص من حق الإنسان رجلاً كان أم امرأة، في الدفاع عن نفسه، إنْ هو سوى ضرب من لؤمٍ، أزعم براءتي منه. لكن، لمّا كانت الثورة في سوريا، اندلعت سلمية وظلّت كذلك، شهوراً طويلة في مواجهة أنواع البطش كافة، ما أجبرها على الولوج في طور العسكرة دفاعاً عن النفس في البداية، قبل أن تغدو لاحقاً في طورٍ آخر، تخوض فيه حرب تحرير حقيقية؛ فإن الجانب السلمي الأصيل فيها، ظلّ مع ذلك، موجوداً في معنى ما في الأطوار كلها. إلى الجانب المدني السلمي الأصيل هذا، "يجب" أن تبقى المرأة منتمية. لا يعني ذلك، سلبها حقها في الدفاع عن نفسها، إنما المقصود ألا تستحيل كينونة المرأة، كينونة حربية قتالية، من خلال الانخراط الممنهج في ميادين القتال، وتشكيل كتائب نسائية مقاتلة، وامتداد العسكرة النسائية واتساعها، بحيث يمسي المجتمع برمّته، حربياً. حينذاك، لا يعود حضور المرأة، هو نفسه الحضور الذي من شأنه

خلق حياة، وإضفاء معنى على واقع يبدو فجّاً خالياً من المعنى، جافّاً، خشناً وقاسياً.

في ظروف الحرب يحتاج الناس إلى عقل أنثوي "يحتال" على الواقع. فعندما يُعتقد مثلاً، أن العالم انتهى بسبب الدماء والأشلاء والمجازر والخراب والدمار، والحياة استحالت محض موت، يأتي العقل الأنثوي ليبدِّد قتامة المشهد، ويمنح الحياة معنى جديداً، كونه يجيد الإفلات، في كثير من الأحيان، من سيطرة الخطاب الحربي، وهيمنة خطاب الموت. العقل الأنثوي موجود لدى الرجل أيضاً، غير أنه أكثر وضوحاً لدى المرأة.

2

في وسط حرب ضروس، كالحرب الدائرة في سوريا منذ أعوام، تغدو المحافظة على سلمية المرأة ضرورة، وضماناً من شأنه ربما منع الانهيار الكامل لكل شيء، وحماية أشياء قد تكون صغيرة وهامشية، لكن لها مفعول معقول ومهم. إذ هناك وظائف تضطلع بها المرأة لا يستطيعها الرجل. فليُترك القتال للرجل إذاً، خصوصاً أنه أدقّ من المرأة في التجارب المركَّبة الموجَّهة نحو هدف ما، كتوجيه قذيفة، أو اعتراضها. فالعلاقة بين المرأة والعسكرة هي من الضعف بحيث يصير القتال، حِملاً تنوء به. لذا، في إمكان المرأة أن تبقى

ثائرة من أجل الحرية، من خلالها هي، بما ينسجم مع روحها ووعيها بذاتها ككائن حر، من دون ارتداء أقنعة قد تسقط في كل لحظة.

عندما يُراد إهانة الرجل وإذلاله وإحراجه، غالباً ما يُصار إلى نعته بالضعف الأنثوي نفسه الذي تؤطَّر به المرأة دوماً، وتُختزَل فيه. لكن ما يبدو غير معروف هنا، أن القوة المبهمة، الغامضة، التي يتمتع بها النوع الأنثوي، قد لا تكون الفحولة الهادرة، قياساً إليها، سوى مزاح. في ظروف القمع والاضطهاد السائدة في مختلف المدن والبلدات السورية الثائرة المنكوبة، ويوميات القهر الملازم للفقر والمرض والجوع، ربما تكون المرأة بطبعها الأنثوي، أجدر وأقدر من الرجل، على التعامل مع تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة، الدقيقة، والمعقدة، كونها أصلاً تجيد التعاطي بحيوية ومرونة، مع كل ما هو عملاني، مشخَّص، وطبيعي. تعلو المرأة، في معظم الأحيان، على المدخلات الممزوجة بالأسى، الآتية من طريق الحواس، من خلال "الحدس" باعتباره وعياً كلياً، فيمكّنها ذلك من الفهم المتعاطف، أحياناً، وإمعان النظر في الوقائع المرعبة، ثم تجاوزها بالفعل، مستبصرةً احتمالات المستقبل، أحياناً أخرى.

المقاربة الأنثوية للواقع هنا، من شأنها ربما حلّ بعض المشكلات اليومية التي قد تبدو أحياناً مستعصية، أو إعادة طرح حلول أو فروض لها، ووهْب أفكار جديدة آسرة متفلتة من التكرار كسِمة ذكورية. يُربَط أي عمل مهما بدا غير ذي أهمية، بالحياة والمتعة

والجمال. كأن تغنّي امرأة، بالتزامن مع جمعها أعواد الحطب، برفقة أطفال قد يكونون أبناءها أو أحفادها أو أبناء جيرانها، في ظروف كظروف الحصار (مثلاً)، تكاد تنعدم فيها سبل المعيشة كافة. تضع إبريق شاي (مثلاً)، على الموقد، ثم تضفي على ذلك الفعل بعضاً من روحها المؤنثة، تقصّ على المتحلّقين حول الموقد قصصاً ممتعة، ينسى من خلالها الأطفال والكبار وربما أقاربها من الثوار المقاتلين أيضاً، واقعاً مأسوياً، وإن يكن للحظات. بيد أن هذه اللحظات، على رغم بساطتها، قد تحفر حفراً عميقاً في الذاكرة كخزّان، قد يخرج كل ما فيه لاحقاً، ويُستثمر في كل شيء. جمع الحطب لصنع الشاي هنا، المطروح كمثال بسيط ليس إلا، لا يظلّ عملاً شاقاً، آلياً فحسب، بل يصير فعل خلق، بعدما أُسبغت عليه الحياة. في أوقات الأزمات والمحن، نادراً ما يُلتفت إلى المستوى العاطفي والروحي هذا، عندما يتم التعاطي مع كل شيء وفق المستوى الفيزيقي، الحسّي، السطحيّ، والمرئي فقط.

3

لا يختلف تجنيد المرأة، في معنى ما، عن تجنيد الطفل. فلما كان هذا الأخير، يمثّل انتهاكاً صارخاً لحقوق الطفل، فإن تجنيد المرأة يمثّل انتهاكاً للأنوثة وقيمها ومحدِّداتها، بعيداً من التصور السطحي للأنوثة (جميلة الشكل، مثيرة، ليّنة...).

بثّ ناشطون سوريون إعلاميون، في 19كانون الثاني2014، فيديواً يُظهر جثة لامرأة بزيّ عسكري، تلبس حزاماً ناسفاً، قال الثوار إنها تنتمي إلى تنظيم "داعش"، كانت تريد تفجير نفسها عند معبر "باب السلامة" شمال مدينة حلب، قبل أن يتم إحباط هذه العملية الانتحارية. أمام واقعة كهذه، وغيرها مما يشبهها، قد يجد المرء نفسه، مذهولاً، متسائلاً: لمّا كانت المرأة "خالقة حياة"، كيف تهب نفسها للموت، قاصدة إماتة غيرها معها بهذه الطريقة المرعبة؟! ما الذي يدفعها لكي تكون "صانعة موت" إلى هذا الحد؟! ترى هل كانت هذه المرأة تعاني نقصاً عاطفياً جارحاً مثلاً، وتشعر أنها غير محبوبة وغير جديرة بالحياة تالياً؟

قد لا نجانب الصواب إن قلنا إن ثمة ذهنية ذكورية، حربية، متسلطة، وقاهرة، تقبع غالباً، خلف عملية تجنيد المرأة. تبدو هذه الذهنية كأنها تسعى إلى نقل المرأة، من شاهد على الجريمة إلى شريك فيها. بذلك، يكون قد تم انتهاج أفضل السبل للتخلص من هذا الكائن الأنثوي المسالم، الرافض للجريمة في أصله وتكوينه. فبعد أن تصبح المرأة شريكاً في الجريمة، لن تجرؤ على الاعتراض على العنف، والاستبداد والظلم، ولن تجرؤ أيضاً على المطالبة بالديموقراطية واحترام حقوق الإنسان والحرية والعدالة، خصوصاً أن رأفة المرأة وعاطفتها وحنوّها باتت موضع تحقير. وحدهم الخائفون من المرأة أو من "القوة" الأنثوية، يلجأون إلى هذا الشكل

من التآمر والتسلّط على حضورها. إذ الحاجة إلى التسلط وقف على الخائفين.

عندما كنّا أنا كاتبة السطور وزميلاتي، تلميذات مراهقات في "سجن عسكري"- مُسمّى مدرسة، كانت دروس "التربية العسكرية" (الفتوّة)، خصوصاً دروس الرمي، التي يُجرَّب فيها السلاح "الروسي" فعلياً – السلاح الذي ما كان ليخطر على بالنا، أننا سنكبر يوماً ونراه موجّهاً إلى صدور أبناء بلدنا!- عبر إطلاق الرصاص على "دريئة"، تطبيقاً للدروس النظرية، كانت تشكّل بالنسبة إلى غالبيتنا، همّاً حقيقياً، وكنا نُسِرّ لبعضنا بخجلنا ونفورنا من تهشيم الأنوثة الماثل في قسر الجسد الأنثوي على اتخاذ وضعيات عسكرية تهرق جماله وتريقه. كان ممنوعاً وقتذاك، أي إشارة إلى الأنوثة، مهما كانت هامشية. دبّوس ملوّن يزيَّن به الشعر مثلاً، كان يستدعي صفعة على الخدّ، تتطاير- على إثرها عشرات النجوم الحمراء والصفراء أمام العينين المغمضتين، كأن الهندام العسكري الموحَّد بين جميع الطلبة، الإناث والذكور، وإيعازات الـ"استرحْ. استعدْ. ترادَفْ- أسبِلْ. إلى الوراء دُرْ. إلى الأمام سِرْ[30]"، ومعسكرات "الإنتاج" و"الصاعقة"، لم يكن كافياً لعسكرة العقل والروح والقلب، وكل شيء! الأنوثة المهشّمة في المدرسة، هي نفسها، على كل حال، التي طالما هشَّمتها من قبلُ، تقاليد اجتماعية "تجلّ" المرأة الأم – وفق-

30 يمكن مراجعة المبحث الثاني، "الثورة والجسد".

المفهوم السلطويّ للأمومة- وتخشى المرأة الأنثى، كأن الأنوثة عبء ثقيل ينبغي التخلص منه!

كل أنظمة الاستبداد، السياسية، الدينية، الاجتماعية، الفكرية الأيديولوجية، كلها... كلها تسعى إلى قهر الأنوثة. نظام هذا العالم البشع، حتماً ليس في منأى من ذلك.

حيوية الثائر وصَنَميّة المثالي

"إلى جيل يمشي الحيط الحيط، ويقول يا ربّي السترة/ نحن جيل هدّينا الحيط، ورح نعمل الأسد عِبْرة"

(أحرار بنّش)

بنّش، بلدة في ريف محافظة إدلب بشمال سوريا، والكلام الموقَّع باسم أحرارها، جاء في لافتة حملها شاب خلال إحدى تظاهراتها.

في حين يميل البعض إلى التذكير بثورات قادها رجال فكر وسياسة، عُمِّدَت بآراء فلاسفة كبار؛ يجيد البعض الآخر الانعتاق من النوستاليجا تلك، والانتماء "من دون تفكير" إلى أولئك الثائرين، المفكرين على طريقتهم، في بلادنا. فاللافتة نفسها تبدو بمثابة ثورة فكرية، يكتبها هذه المرة مفكرون، أدواتهم الروح والدم، فضاءاتهم الشوارع والساحات والأزقة، السهول والجبال والوديان، القرى والمدن. ثورة تبدو كأنها تعصف بالذهنية التقليدية وتصوراتها، تحطّم أصنام الخوف والمألوف، تنسف هواجس الستر والسترة، والركون إلى عكاكيز السلطة، والاتكاء على جدران العزلة والكبت. ثورة ما انفكّ جيلٌ شاب يرمي فيها الحطبة تلو الأخرى، لتبقى مشتعلة لائقة بروح متوفزة، ولائقة كذلك بعقل شاب متوهّج ببنات الأفكار وصبيانها، يضرم ثقافةً لها فاعلية النور والتنوير، قد لا تبتعد في مغزاها ومعناها عن الشعار الذي اجتاح أوروبا في عصر التنوير: "لتكن لديكَ الشجاعة لتستخدم عقلك". أما شعار التنوير الخاص بالربيع السوري، فيبدو كأنه الآتي: "تشجَّع واعرف بنفسك ولنفسك، وأَعْمِل الثورة في كل مناحي الحياة، وفي كلّ موضوع يُطرَح". إنها ثقافة شابة، من شأنها إحياء حق الفرد وتمكينه من البحث عن سعادته، ولا يعني ذلك أكثر من أن يمارس حقه في أن يشقّ طريقه في الحياة

من دون تكبيله به إرادة متسلّطة.

أنْ يُهدَم "الحيط"، وتندلع الثورة على حاكم مستبدّ مجرم، ويُجْعَل منه عِبْرة لكلّ ظالم، لَهُو انقلاب جذري أصيل في مفهوم "الحاكم". فمنذ انطلاقة العام 2011، بدت شعوب "الربيع العربي" كأنها قد حفرت على جذر المفهوم المتأصّل في الذهن عن الحاكم. فدوماً كان هناك الحرصاء على صوغ القواعد التي تضمن مصالح "النخبة" المسيطِرة، وكان الحاكم دوماً بمثابة إله أو نصف إله، له حاشيته، ومثقفوه، ومفكروه، ومنافقوه، وفقهاؤه المتمسِّكون بقاعدة عدم جواز الخروج عليه مهما يكن ظالماً. إلا أن الشعوب الثائرة، أصبحت اليوم تفكِّر في الحاكم كموظف لديها. إنْ لم يحكمهم باختيارهم الحر، وإنْ لم تكن سياسته ناجعة في توفير عيشٍ حرّ كريم، وإنْ ارتكب جُرماً، فإن الثورة عليه وإطاحته، ثم محاكمته، حق قانوني لا تشوبه شائبة. تبدو الشعوب ذاتها كأنها أدركت أن لا مصلحة لها بالسمات "الشخصية والأخلاقية" للحاكم، السمات التي طالما سُيِّست من أجل استمالة عاطفة الناس وجَعْل الحقوق مكرمات وهبات من الحاكم "الطيب، المحبوب، العطوف الرؤوف". ما عاد إقحام الأخلاق والعاطفة في السياسة كشأن عام، وارداً ربما بالنسبة إلى مَن ثار، ووحده القانون يجب أن يسود على الحاكم والمحكوم في آن واحد. ما عاد القبول بـ"المستبد العادل" مهضوماً ومستساغاً، إذ ما من استبداد عادل، فالعدالة ليست منحة الحاكم، بل حق.

الثورة السورية، شأنها شأن كل الثورات الشعبية، من حيث هي عُرضة للاختطاف، والتسلّق، والركوب، بيد أنه ينبغي للصوص الثورة من كل شكل ولون، استيعاب الدرس، كون الجيل الذي أشعل الثورة "هدّ الحيط". فما دام المستبد الأخطر والموغِل في القدم، قد تمت مقارعته بشجاعة منقطعة النظير، ما بالك بمستبد حديث العهد أمام شعب خاض تجربة تحرُّر مذهلة؟!

كتبَ أحدهم مرة على صفحات "فايسبوك": "الانتهازيون يعرفون من أين تؤكَل الكتف، لكن الثوار يعرفون كيف تُقطَع اليد من الكتف". بصرف النظر عن قطع الأيادي، نحن نتبنّى الثقة بقدرة الثائر الحقيقي الحيوي، على كشف الخسّة والمؤامرة المتربصة بثورته، ونبارك كل ما من شأنه تسلّم "الجيل الذي هدّ الحيط" زمام أموره سياسياً. إن الثقة بالثائر هنا، تتجلّى عن تفكّر في ثورات العالم العربي، كثورات تنضج مع الزمن، والمأمول منها يحتاج إلى سنوات حتى يتجسّد، وربما عقود طويلة، فعمر الثورات لا يُقاس بعمر الأفراد.

****

تستمد الواقعية مشروعيتها ربما من العيان القائم في الزمان والمكان، ولا شك أن المعنى الحي لمفردة "شعب"، محض سياسي. فيما الثورة الشعبية، تجلٍّ لزخم شعبيّ، عيانيّ، مشخَّص. فالفارق بين "الحرية"

كمفهوم مجرّد، و"التحرّر" كفعل شاق وطريق وعرة، كبير ومهم. غير أن ثمة مَنْ لم يكابد الثورة كتجربة حية، أرضيّة، بدا كأنه مثقل بمفهوم الحرية، وجدَ ضالته في المزايدة، وفي التعاطي "المثالي" مع الشعب "الواقعي"، في محاولة بائسة لإدراك ما ليس موجوداً في العيان. جعل من نفسه "أستاذ الثورة ومربّيها الفاضل"، فرفع عصاه مشيراً إلى ضرورة شطب مفردات "الشعب، المحسوسة"، واعتماد مفردات لائقة بنُخَب الميتافيزيقا. ثم راح يفصفص حتى أبسط أخطاء الناس ممَّن حلَّت عليهم الفاجعات، ويترصّدها مُريداً من الثائر أن يكون "مثالاً" يتواءم و"فهمه" للثورة. صار كأنه يتقمّص شخصية بروكرست في الميثولوجيا اليونانية، قاطِع الطريق الذي كان يستضيف المسافرين لينام على سريره، فإن كانوا أطول منه، قطع الزيادات ليُساوي جسد الضيف مع السرير، وإن كانوا أقصر، شدَّهم حتى الموت. أوَليس هذا نهج بعض فصائل "المعارضة" التقليدية من مثل "هيئة التنسيق الوطني"؟ الهيئة التي طالما مارست دور التلقين المتعجرف، حتى أمست تعيش وهمَ فِعْل العلة الكاملة في المعلول الناقص، مع أنه حتى "اللاءات الثلاث" التي راحت تنظّر بها على الناس، هي معلولة للشعب السوري الثائر، فالشعب ذاته كان العلة الأصيلة لـ:"لا للطائفية، لا للتدخل الخارجي، لا للعنف". في السياق ذاته، اندرج خطاب من مثل: "سوريا فوق الجميع"، الذي أصرّ على "الفوْق" كأن قدَر السوري أن يبقى محكوماً بـ"الفوْق" الذي أخذ شكل

"البوط العسكري" طوال عقود. يصعب ربما على متبنّي هذا الخطاب تفهّم الحاجـــــــة الملحّـــــــة إلى "ســــــــوريا للجميـــــــع".

يبدو المثاليّ كأنه يريد ثـورة "خالصـة" ذات منهج يبـدأ في "بنـاء الدولـة" مباشرة، قبـل الانتهـاء من مرحلـة هـدم النظـام القـديم. لكن ألا يقتضـي المنهج كمراحـل، عـدم حـرق المراحـل؟. أكـدت التجربـة أن إسقاط النظام لا بد أن يصاحبه غبار وأعاصير وشتى أنواع الغضـب. فمَنْ قال إن الوقـور دائمـاً، المشـذَّب المعلّب، هـو ابن الثـورة والحيـاة والطبيعة البشرية؟! قد يقول قائل: لا ينبغي تقـديس الثـورة. بـديهي أن الثورة ليست مقدَّسة، وأن لها أخطاؤها الـتي ينبغي نقـدها وتصـويبها. وكل ما ذكرناه آنفاً يحكي عن الثورة كتجربـة محض بشـرية. لكن مـا دامت الثـورة ليسـت مقدَّسـة، لمـاذا يريـدها البعض كمـا "الملائكـة"، معصومة لا يعكِّر صفوها خطأ؟! لِمَ الإصرار على تطويع الثـائر لكي يشـبه "نموذجـاً" محـدَّداً سـاد الاعتقـاد الـواهم أنـه "الأرقى"؟! هـل "المطـوِّع" نفسـه، مـنزَّه عن الشـوائب؟ من هنـا ربمـا يتـأتى الاعتقـاد المهم في ضـــــــــرورة الثـــــــــورة على الــــــــــذات أولاً.

مـا لا ينتبـه إليـه ممتهن المثاليـة، أن هـذه قـد تفضـي إلى الكـذب والمراوغة، وادعاء الامتياز على الآخر، عبر السعي إلى "الاشتهار" بالتحضّر. كمثال يمكن أن يُضـرَب هـا هنـا، أستحضـرُ بوحـاً لأحـدهم أفرَجَ عنه خلف الكواليس ذات ارتياح: "أشـعر بالسـعادة في كـل مـرة يحرز فيها "الجيش السوري الحر" تقـدُّماً، إلا أنـني لا أعلن سـعادتي،

لكي لا "تحترق أوراقي"، لذا أفضِّل ترْك غيري يفعل ذلك، وأبقى مؤيِّداً السلمية بالمطلق". مع أن المتكلِّم نفسه، شخص عادي، لكنه، قد يقترب في تصريحه إياه، من هتلر حين صرّح ذات يوم: "ليست عندي أي رغبة في الظهور بمظهر مَن يحتقر القانون الأخلاقي أكثر مما يحتقره غيري من الرجال. ولماذا أسهّل على الناس السبيل لمهاجمتي؟ إنني أستطيع بسهولة أن أعطي سياستي لوناً من الأخلاق، وأظهِر أن سياسة خصومي سياسة منافِقة". يبقى السؤال: هل السلمية، وفق هذا المنطق، غاية أم وسيلة؟ أخلاق أم سياسة؟. بعدما فُرِضَت العسكرة على الثائرين السلميين، بغية الدفاع عن النفس في قبالة وحشية قل نظيرها، وباتت أمراً واقعاً، أصبح المرء يشعر بأن السلمية بالنسبة إلى "المثاليّ"، صارت وسيلة ومناورة سياسية، أما بالنسبة إلى الثائرين في الميدان، حتى بعدما تعسكرت الثورة، ظلوا يخرجون في تظاهرات سِلميّة، تأكيداً منهم على أن السلمية بالنسبة إليهم غاية لا وسيلة، أخلاق ومبدأ لا سياسة.

أثبت التعاطي المثالي مع الثورة، قلّة جدواه في تكوين التجربة، وتبيَّن أنه يُقصي الآخر، مع أن الآخر ليس ترَفاً، بل شرط دائم لضمان وحدة الثورة وثرائها؛ لأنه يصعب فهم طرف إلا من خلال الطرف الآخر، الذي أحياناً يكون مناقِضاً وأحياناً أخرى مكمِّلاً. أما كيف يمكن فهم الآخر بالنسبة إلى المثاليّ؟ فهذا أمر يبدو محكوماً

بالتخبط، كونه يريد فهمه عبر منهج المماثَلة، ويقارنه بنفسه، بحيث يتطابق و"سريره" أو "مثاله".

التمثيل والتنجيم

1

كل شكل من أشكال التغيير المجتمعي، يتحمل مسؤوليته الناس جميعاً، حيث لكلٍّ دوره فيه، ويُفترض ألا يعتقد أحد أنه ممثل التغيير ومحتكره، إذ لا يمكن أن يمثل أحدٌ أحداً إلا على سبيل التضليل

والـوهم والخـداع. هكـذا، سـمح "الربيـع العـربي"، باعتبـاره حـدثاً تاريخياً، وشكلاً فذاً من أشكال التغيير في عالمنـا المعاصـر، بالانتقـال من التراتب العمودي الذي طالما كان سـائداً قبـل انـدلاع ثوراتـه، إلى الحيّز الأفقي الحي النابض.

أفسحت الثورة السورية باعتبارها واحـدة من ثـورات الربيـع نفسه، المجال أمام جميع الناس التوّاقين إلى التغيـير لكي يسـاهموا في إنتاج الحقيقة، بشكل أو بآخر، بعدما أخـذ الأفـراد على عـاتقهم الـدفاع عن حرياتهم بأنفسهم من خلال قنوات كثيرة، لعـل الاحتجـاج السـلمي في الشـارع كـان أهمهـا. إذ مـا عـاد في إمكـان مـا يُسـمَّى – بحـق أو بغيره- "نخبة"، أن تحتكر الدفاع عن الحرية والحق والخير والجمال، كون هذه لكل النـاس، ومـا من أحـد أولى فيهـا من أحـد، لا بـل إن مَن يرتضـي لنفسـه أن يكـون راكـداً منتظـراً الآخـرين لكي يـدافعوا عن حريتـه وحقوقـه وكرامتـه، يكـون كمَن يسـلّم نفسـه هبـة خالصـة لمَن يتلاعب بكيانه الإنساني، أو يكون أنانيـاً جشـعاً من ناحيـة انتظـاره أن يدفع غيره ثمن حريته هو، خصوصاً بعـدما بيّنت التجربـة أن السـعي إلى الحريـــــة قـــــد يكلّـــــف المـــــرء حياتـــــه.

قد لا نجانب الصواب، عندما نعتقـد هنـا أن بعضـاً ممن اعتـبروا أنفســهم "نخبــة" لهــا وحــدها الحــق في الــدفاع عن الحريــة والديموقراطية، قد عادوا الشعب في ثورته الطامحة إلى الخلاص من

الاستبداد والاستعباد، كونهم شعروا ربما بأن ثمة مَن استلّ منهم سلطتهم، وبات يدافع عن حريته بنفسه، وما عاد محتاجاً إليهم. شكّل ذلك صدمة ربما لأولئك الذين ارتدّوا إلى طائفيتهم، وتغلّبت عندهم إرادة الهوية الطائفية على إرادة الحرية، لطالما كانوا يستمدون شرعية وجودهم من مهمَّشين كان يجب أن يظلّوا مهمشين ساكتين ومغيَّبين لكي تستمر الشرعية المتهافتة تلك!

ثمة طراز آخر ممن يُسمَّون "نخبة"، أيّد ثورة الحرية، إلا أنه لم يتعاط مع نفسه باعتباره فرداً من شعب ثائر، بل بدا كأنه يريد تمثيل الثورة رمزياً. وغالباً ما تكشف قراءة ما بين السطور في نصوص هذا الطراز، أو في تصريحاته ومواقفه، نزوعاً إلى اعتبار نفسه كأن لا أحد أولى منه أو أهمّ في الحديث عن الثورة. ناهيك بذاك الشعور أن لكلٍّ "مشروعه" الذي يبدو كأنه يسعى من خلاله إلى احتكار تمثيل الشأن العام في الثورة. منطلقاً في ذلك، من تصوراته – المحقة أو غير المحقة – عن نفسه أنه الأجدر لإنتاج الديموقراطية والحرية والعدل والمساواة، كأن الناس جميعاً قاصرون وجاهلون

****

قد يقول قائل إن "النخبة" تختلف عن الثائرين في كونها موضوعية لا انفعالية. لكن تحت شعار الموضوعية، يتناسى القائل أن الأحداث الواقعية التي ولّدها الشعب الثائر في شرائحه كافة، والتضحيات والبطولات التي قدّمها، كانت أساساً لـ"موضوعية" "النخبة"، ومادة أولية تدخل في تركيب الإنتاجات الثقافية كافة. ما يحتاج إليه الواقع ليس مثاليات خادعة، ولا استعراضات نجومية تفضي إلى تكريس فكرة "الجندي المجهول" بما تنطوي عليه تلك الفكرة من مكر سلطوي وخبث.

ليس المقصود هنا تغييب أي "دور"، إنما يُراد تأكيد تنوع الأدوار وغناها، وتفنيد الحضور الطاغي لبعض الشخصيات. الحضور الذي من شأنه التغطية على الصانعين الحقيقيين للحدث وقطف ثمار أفعالهم. أليس هذا ما آلت إليه بعض المواقف؟ فـ"احتراف" مواقف جلّ همّها انتقاد الفاعل الحقيقي- بحق أو بغير حق - في كل ما يفعله، أو الحطّ من شأنه، حتى لكأنك تظن بعض المنتقدين، باتوا ممثلي الثورة وحرّاسها الشخصيين! يشعر المرء أحياناً أن الغاية من وراء ذلك، قد تكون بناء الأمجاد وحصد الجوائز في "الديموقراطية" و"الشجاعة" و"السلمية"، كأن لهذه كلها عنواناً محدداً مرتبطاً بهذا أو ذاك! احتراف المواقف تلك وغيرها، من شأنه الانتقاص من قيمة الناس، وإعدام قدرة الثائرين على تجاوز أخطائهم

من دون الرجوع إلى "ممثلين وحرّاس وحكماء وشيوخ وأمراء"؛ وتعميق تهميش المهمَّش الذي ما كان ليقوم للثورة قوام لو لم يكن إحقاق حقوقه ركناً أساسياً في اندلاعها.

ما الذي فعلته "شفقة" إحدى نجمات هوليوود مثلاً، أو أي مسؤول أممي "رفيع المستوى"، على السوريين في مخيمات اللجوء وغيرها أمام الكاميرات، غير مزيد من التقزيم لثائرين اجترحوا المعجزات في سبيل الانعتاق من ديكتاتورية مجرمة، ومزيد من "العملقة" لنجمة سينيمائية، ومزيد من المعجبين بأنثى حسناء مدافعة عن الفقراء، وحانية على الأطفال المشردين؟! ما الذي فعلته بعض "الفضائيات"، غير استعمال السوريين ومآسيهم كـ"مادة إعلامية"، خصوصاً عندما "تعرض" بعض الشاشات التابعة لحكومات إقليمية مثلاً، عذابات السوريين من أجل تخويف شعوب الحكومات تلك، والتقليل من شأن السوريين كثائرين جديرين، لصالح تقديمهم إعلامياً عبرةً مريرة ومحزنة لكل شعب يفكر في الثورة على نظامه؟! أليس هذا ما يمكن استشفافه – مثلاً- من عبارة: "لا شيء يتغيّر سوى أعداد القتلى"، التي دأبت إحدى الفضائيات على بثّها مكتوبةً بعد كل "عرض" لمآسي السوريين؟! ناهيك بالأرباح التي يدرّها السوريون المنكوبون والثائرون بوصفهم "مادة إعلامية" على "المستثمِرين"- أراد بعض الأشخاص الحقيقيين أو الاعتباريين، من تقديم أنفسهم كـ"ممثلين" للثورة والثائرين، رسم صورة ذهنية مفادها الحرص على استبدال

واقع بآخر، بينما يتعلق الأمر بخلق حقائق جديدة، ووقائع جديدة تغيّر الواقع على الأرض كلّياً وجذرياً.

2

التنجيم: مصطلح مقترَح، يعني رفع شخص إلى مرتبة المثل الأعلى واعتباره نجماً، وتنزيهه من الشوائب والنقائص، في حالة من تضخيم قيمته وأهميته. غالباً ما يكون التنجيم الذي يمارسه البعض ممن أدمنوا قزميتهم أمام "الكبار"، نتيجة الحضور الطاغي لأشخاص يُسمّون "نخبة"، يبدون فيه كأنهم يحتكرون – بقصد أو من دونه – المشهد الثوري إعلامياً. وغالباً ما يكون اللقب: كتعريف نهائي، تبسيطي، يختزل الشخص ويختصره، يحدِّده ويقولبه، إحدى أدوات التنجيم. حقاً إن الملقَّب قد لا يكون مسؤولاً مسؤولية مباشرة، عن اللقب الذي أُطلق عليه، بيد أنه مسؤول إلى حد ما، عن الموافقة عليه أو السكوت حياله. "إذا سمّيتكَ؛ فلا تتسمَّ"، يقول النفري.

لا عجب عندما ينطوي لقب من طراز "داعية سلام" مثلاً، على حرب حقيقية خلف "التبشير". أو "الدعوة" الظاهرة إلى السلام، ما دام مَن يتماهى مع دور "الداعية" يصير بمثابة شيخ باحث عن مريدين، ويفترض نفسه مسبقاً أنه السلمي الوحيد، وأن السلام في حوزته، وفي ما عداه مجرد كائنات حربية، يجب أن يدعوها إليه،

كون السلام "في جعبته" وهو المسؤول عن "توزيعه"! جرت العادة، أن يقدِّم "دعاة" السلام أنفسهم، كحياديين في منأى من أي موقف أو طرف سياسي. في حين أن الحياد الذي يماهي بين شعب ثائر ونظام جائر، بين الضحية والجلاد، أو بين الطرف الذي طالما كان "سبباً" للمآسي والكوارث، والطرف الذي يجسّد "النتيجة"، هو موقف سياسي أيضاً، ولا أخلاقي، يختلف عن المواقف السياسية الواضحة (مع – ضد)، في كونه لا قوام متماسكاً له، إنما فقط يحاول الإفادة بحكم موقعه في الوسط، من هذا وذاك، ويساهم في المزيد من "التمييع" و"التعمية". قد يكون مفيداً هنا لفت الانتباه إلى أن مؤتمراً مثل جنيف لـ"السلام" مثلاً، يندرج داخل الإطار المائع والتضليلي ذاته. وخصوصاً أن زعماءه – الروس تحديداً، الذين طالما قُتل الأطفال السوريون والنساء والأبرياء بسلاحهم الذي لم يتوقفوا لحظة عن إرساله إلى حليفهم الأسد ونظامه- يشكلون جزءاً حقيقياً من الحرب. تكمن المفارقة هنا، في أنه كلما استعرت نظريات السلام وتنظيراته؛ استعرت نار الحرب عملياً، بشكل يذكّر، في معنى ما، بالموقف الأيديولوجي المخادع الذي كلما زايد متبنّوه على الناس بوحدة الأمة العربية ورسالتها الخالدة؛ ازدادت الأمة - على أرض الواقع- فرقة وشرذمة!

****

هناك مَن يمارس العنف الفيزيائي، وهناك مَن يمارس العنف

الرمزي- محاولات الاستئثار بالمشهد الثوري، واختطاف الضوء، وتكريس أسماء بعينها، وغير ذلك، هي نوع من العنف الرمزي الذي قد يدفع المهمَّش المقهور ذا التكوين السيكولوجي الهشّ إلى اقتراف كل ما يمكن أن "يشهره" أسوة بـ"مشاهير الثورة"، خصوصاً عندما تفشل الطرق السليمة في تحقيق مراده، أو عندما لا يجد مَن يعزِّز الطاقة الثائرة لديه، ويقدِّرها بالشكل الذي قُدِّر فيه هذا أو ذاك ممن باتوا "نجوماً " يتحدث القاصي والداني عمّا فعلوه هم بالتحديد من بين ملايين الثائرين والثائرات، الجديرين والجديرات! عندئذ، قد يجد نفسه مضطراً إلى سبر طرق غير سليمة، إذا كانت هذه ستفضي في نهاية المطاف إلى الشهرة المبتغاة. ربما يتمنى أحدهم أن يُضطهد، أو قد يسعى إلى تشكيل صورة معينة عن نفسه، هي غالباً صورة المعنَّف، أو الملاحَق والمهدَّد، بغية جذب الانتباه إليه، وجرّ الآخرين إلى التكلم عنه كـ"بطل"، وقد تُرجِم هذا الطراز من المازوشية فعلياً وعملياً، في وقائع عدة معروفة ليس هنا مجال التفصيل فيها.

تصيب المرء الدهشة إن هو راح يفكر في تهميش المهمَّش للمهمَّش ولنفسه، عندما يعمد إلى تنجيم هذا أو ذاك من الفنانين والممثلين، ونعت أولئك بألقاب من مثل "أسطورة"، "طفرة" وغير ذلك، كونهم مناصرين للثورة، ويشرد فكره: أليست "النجوم البشرية" كائنات أرضية، شعباً؟ لِمَ شكرهم أو امتداحهم إذاً عندما يكونون مؤمنين بـ"ثورة شعبية" ومؤيدين لها؟! تبلغ الدهشة أوجها، عندما

يصير اعتقال شخصية عامة مثقفة مثلاً، أهم بما لا يقاس من اعتقال المطمورين والمغمورين أو الغير متعلمين الذين اعتقلوا من أجل القضية العادلة ذاتها التي اعتُقِل من أجلها المعروف. كأن الماهية الإنسانية ليست واحدة! أو كأن الموت لا يساوي بين البشر ويضع المصير الإنساني في متاهات وحدةٍ لانهائية!

هذا المأزق، أو هذا الصراع الفكري والواقعي، لا يمكن الخروج منه في رأينا، إلا بصوغ كل ما من شأنه تجاوز نزعتَي التمثيل والتنجيم دفعة واحدة، وإعادة ترتيب العلاقة بممتهني الفكر والثقافة والفن والإعلام والسياسة، وبالعالم، من خلال الاتكاء على وعي يتساءل، ينقد، يتفكر، يفكك، يغامر، يحلّق، يحطّم الأصنام في شتى أشكالها ونماذجها، أسوةً بصنم الحاكم المستبد، يقوِّض علاقات السيادة والتبعية، ويسعى إلى بناء علاقات (أنا – أنت)، أي علاقات ديموقراطية أساسها التكافؤ الإنساني، والاعتراف المتبادل.

المجتمع الأهلي والمجتمع المدني

1

مذ بدأت حركة النزوح إلى محافظة السويداء تنشط، تقريباً في أواسط تموز لعام 2012، بعدما تفاقمت همجية الآلة الحربية لنظام يقتل شعبه، ويشنّ حرب إبادة ممنهجة على مختلف المدن والبلدات والقرى السورية؛ نشط، في قبالة حركة النزوح تلك، العديد من الآراء، ووجهات النظر المتباينة. يمكن انطلاقاً من كوننا -أنا كاتبة السطور وغيري- من المنخرطين في الثورة أولاً، ومن أبناء المحافظة ونعيش فيها تالياً، التمييز بين وجهتَي نظر تزامنتا من دون أن تتداخلا، وكانتا الأكثر وضوحاً وتخارجاً في آن واحد.

كانت واحدتهما مصدرها "المجتمع الأهلي"، أي مجتمع العائلة والقبيلة والعشيرة والطائفة الدينية والمذهبية والجماعة الإثنية، وهو مجتمع ما قبل مدني وما قبل وطني، كون المدنية ملازمة للوطنية. ومثّلت الأخرى تجلّياً واضحاً للروح الثوري، وهذه تجاوزت وجهة النظر التقليدية، هادمةً أسوار العزلة والانغلاق على الذات التي من شأنها منع أفراد المجتمع الأهلي من الانفتاح على الآخر، بل الترهيب منه، والحض على إقصائه كـ"غريب". ففي حين انشغل أفراد المجتمع الأهلي في المحافظة نفسها، في تصنيف "الغرباء" النازحين إلى "مجتمعهم"، كموضوعات للكره والعداوة، والنبذ والإقصاء، استشاط بعض الأفراد الأحرار المتجاوزون للمجتمع الأهلي التقليدي، بنسبٍ متفاوتة، وأولئك كانوا في غالبيتهم من الثائرين أو المعارضين للنظام ذي الأصل الطائفي، الفئوي، التمييزي، استشاطوا حماسة من

شأنها تقديم ما تيسّر لمساعدة مَن نزح من السوريين في المحافظات المختلفة إلى محافظة السويداء. يمكن هنا، إمعان التفكير في إرهاصات "مجتمع مدني". إذ مجموعات الإغاثة على سبيل المثال، التي شكّلها شبّان وشابات، وناشطون وناشطات، معتمدين على إرادة ذاتية حرة غير حكومية، وهي مجموعات تطوّعية عبّرت عن اندماج وطني، واختلفت تماماً عن ذاك "التطوع القسري". الذي طالما بُرمج وفق ما تقتضيه مصالح السلطة الأسدية طوال عقود الحكم الشمولي المستبد لسوريا، ربما تكون بمثابة نواة مجتمع مدني في طور التشكّل، كونها كانت للثورة كالمجتمع المدني للدولة الوطنية الحديثة، شأنها في ذلك شأن "التنسيقيات الميدانية"، أو "الصحافة الميدانية" التي مارسها ناشطون، صوّروا، بواسطة كاميرات هواتفهم المحمولة، ما يجري على الأرض، معتمدين في ذلك على أنفسهم، بغية توثيق أحداث الثورة، ونقل حقيقة ما يجري إلى العالم، في ظل غياب الإعلام المستقل.

2

لمّا كانت العلاقة الأخلاقية بين الذات الجمعية، الـ"نحن"، والآخرين، الـ"هُم"، وبين الذات الفردية، الـ"أنا"، والآخر، الـ"هو"، تختلف

باختلاف المعايير المعتمَدة في تصنيف الآخر، إذ يجري التصنيف عادة بين "الآخر القريب" و"الآخر الغريب"، وهذا الأخير، غالباً ما يكون، في المجتمع الأهلي، موضوعاً للكره والعداوة، إذ يُنظر إليه باعتباره نقيضاً للذات الفردية والجمعية، ما تستوجب محاربته بشتى وسائل النبذ والإقصاء والتدمير، فإن وجهة النظر التي مثّلت المجتمع الأهلي التقليدي في السويداء، اعتقدت أن "الغريب"، أي النازح السوري، الذي مثّل بالنسبة إليها "خارجاً"، اقتحم "الداخل"، سوف يهدّد وحدة الجماعة وهويتها، خصوصاً أن "الغريب" إياه قد ارتسم له، في الذهن التقليدي، تصوُّر جعل منه "إرهابياً، تكفيرياً، مخرّباً". تصوّرٌ مخادع زرعته عشيرة الأسد ونظامها المؤسَّس على كل ما يجسّد مرحلة ما قبل المدنية وما قبل الوطنية، وما قبل الدولة.

إن النازح، بالنسبة إلى أفراد المجتمع الأهلي في المحافظة المذكورة، كان ذلك "الخارج" (خارج الملّة الباطنية الجوّانية)، ما يعني، ليس الخوف منه، كونه "الآخر الغريب" فحسب، بل كرهه أيضاً، ونَسْب كل مذموم إليه، وادعاء الامتياز والتفوق عليه. ناهيك بادعاء النقاء وعراقة الأصل والحسب والنسب الذي لا يخلو من نزعات عنصرية مفادها العجرفة والازدراء. لعل في ما تداوله أفراد المجتمع الأهلي من كلام مثل "ما بدنا رِجِل غريبة تدْخل لعنَّا"، دلالة تشي بقلق يتعلق بنقاء الهوية، والخوف على وحدة الجماعة من تهديد "الآخر الغريب". قلق يتصل بما ساد طويلاً من اعتقاد وهمي أسّس

المجتمع الأهلي على "هوية خالصة". وهذه من شأنها إقصاء "الغريب" بدعوى المحافظة على وحدة الجماعة.

ما دمنا في صدد الحديث عن خوف الجماعة من "الآخر الغريب"، قد يكون مناسباً استحضار رأي نظنّه مهماً للكاتبة والمحللة النفسانية جوليا كريستيفا، التي تعتقد "أن كل جماعة تشتمل على غريبها. فالوحدة المزعومة للجماعة ليست سوى مظهر يُخفي التناقضات الداخلية التي تنكشف لنا عندما ندقّق النظر في الاختلافات والتمزّقات التي تجعل كل جماعة تحتوي على ما هو سوي ومنحرف، أو على ما يلائم قيمها ويناقضه على السواء". عن ذلك تقول: "ليس الغريب هو ذلك الدخيل المسؤول عن شرور المدينة كلها، ولا ذلك العدو الذي يتعيّن القضاء عليه لإعادة السلم إلى الجماعة. إن الغريب يسكننا على نحو غريب. إنه القوة الخفيّة لهويتنا".

إن خوف الجماعة من كل ما قد يهدد وحدتها ونقاء هويتها، ربما كان سبباً من بين أسباب عدة، جعلت أفراد المجتمع الأهلي في المحافظة نفسها، لا يقوون على معارضة "حاكم" البلاد والثورة على نظامه الجائر، حتى بعدما طال أمد عذابات السوريين أخوتهم في الوطن! ما دام الحاكم، بالنسبة إلى أفراد المجتمع الأهلي، هو بمثابة "الأب"، والخروج على الأب، وعصيان كلمته هو بمثابة "كفر وزندقة". ما كان ليطيب لأفراد المجتمع الأهلي- مجازاً نوصِّفهم

كأفراد، إذ في المجتمع الأهلي، هناك "كتلة بشرية" لا متمايزة- أن يكون في مجتمعهم شيء من ثورةٍ تحفر على جذور المجتمع الأهلي التقليدي، إلا وجلّلوه بالسخف والسخرية، وأذلّوه واحتقروه. ما كانوا ليتكلموا إلا ليشجعوا الأنانية والانغلاق على الذات وانحطاط الأجيال المقبلة، عبر إبقائها ضمن قوقعة المجتمع الأهلي التقليدي غير المنفتح. إن شعوراً شاقاً بالعطالة، منعهم من معانقة رياح التغيير العظيمة، وجعلهم يصرفون اهتمامهم عما يجري في وطنهم.

كان موقف بعضهم في ما يخص إغاثة النازحين إلى "مجتمعهم"، أننا لن نساعد مَن ليس "منَّا" وليس من "جماعتنا". فهو، بالنسبة إليهم، "الآخر الغريب" الذي "خرّب البلد"، وعصى أمر "الحاكم/ الأب"، وخرج على سننه. وعليه: مسموح- إن كان لا بدّ من المساعدة- مدّ يد العون إلى "الآخر القريب"، أي إلى الذي "مِنَّا وفينا"- بتعبير أوضح، إلى النازح "الدرزي" فقط. الدرزي الذي لم يعمد إلى معصية "الحاكم/ الأب" ولم يثُر عليه. يُذكَر هنا، أن بعضاً من النازحين إلى محافظة السويداء، كانوا من الدروز الذين فرّوا من "حي التضامن" مثلاً، بالعاصمة دمشق.

بقي أن نقول: إنه حتى المجتمع الأهلي الذي نزعم أننا نقدناه آنفاً نقداً علمياً، لم يتعرّض – فيما عدا حالات فردية- بالأذى للنازحين إلى المحافظة المذكورة، حتى لحظة كتابة السطور، بالمعنى المادي لمفردة أذى، لا اللغوي أو الثقافي للمفردة ذاتها.

3

غير أن هناك مَن تجاوز- كل تمييز عنصري وضيع، وترفَّع عن كل ما من شأنه الارتداد إلى مستوى ما قبل المدنية وما قبل الوطنية، وما قبل الإنسانية في مفهومها الواسع، إذ مفهوم الإنسان في المجتمع الأهلي يضيق ويُختزَل. هذا ما يُستشفّ مثلاً من أمثال شعبية تمثّل جذر العقل اللغوي للمجتمع الأهلي، أمثال من قبيل: "أنا وخيّي على إبن عمّي، وأنا وإبن عمّي على الغريب". هناك من تجاوز- هذا كله، متخطّياً حدود المجتمع الواحد الوحيد، أي الجزء المنغلق على ذاته، لينخرط في الكل، أي في الحياة السورية العامة، مبدِّداً أوهام "الداخل المطلق" و"الخارج المطلق"، كاشفاً، في العمق، علاقة جدليّة بين الداخل والخارج، من شأنها النهوض بالمجتمع، والارتقاء به من مرحلة أدنى، "مجتمع أهلي"، إلى مرحلة أرقى، "مجتمع مدني". إنهم في غالبيتهم من الأحرار المعارضين للنظام، أو الثائرين عليه. أولئك الذين آثروا مدّ يد العون إلى كل نازحة ونازح. ليس بصرف النظر عن دينه أو طائفته أو قوميته أو جنسه أو عمره أو طبقته الاجتماعية أو تحصيله العلمي أو خلفيته الثقافية وعاداته وتقاليده فحسب، بل أيضاً بصرف النظر عن كونه معارضاً النظام أو موالياً له. إذ تبدّت الإنسانية في أسمى درجاتها . كان المعيار الإنساني، الإنساني فقط، هو الحاضر، وحين يُسأل أيّ من أولئك الأحرار- بقصد الفضول- عن

معارضة النازحين أو موالاتهم، تكون الإجابة: "لا يهمّني، في ما يتعلّق بمسألة الإغاثة، ما رأي النازح السياسي، لأني أقوم بمهمة إنسانية، وفي الإنسانية لا فرق بين هذا وذاك". بدا بعض الأحرار كأنهم قد طبّقوا عملياً، الشعار الأهم ربما في الثورة السورية، أي: "واحد واحد واحد/ الشعب السوري واحد".

وحيث إن الفرد في المجتمع الأهلي التقليدي، قد غابت ملامح هويته الفردية وانصهرت في "الجماعة"، حتى صار رأيه رأيها، وكلامه كلامها، وحكمه حكمها، ومصيره مصيرها، فإن معارضي النظام أو الثائرين عليه، كانوا على النقيض من ذلك، أحراراً مستقلين، يصنع هوية كل فرد منهم ما ينتجه أو يبدعه أو يقدمه بوصفه عضواً مسؤولاً في المجتمع، وحريصاً على قيم الثورة الحقيقية ومبادئها. وقد تعدّى الأمر، بالنسبة إلى بعض المعارضين أو الثائرين في محافظة السويداء، حدود الداخل والخارج، حتى بدوا كأنهم قد انشقّوا عن مجتمعٍ خاتمة "أحلامه" المحافظة على الرواتب والمعاشات، ويعتمد التربية التي لا ترمي إلى أكثر من ضمان السلطة السياسية للعواهل، والنفوذ للوجهاء، متوسِّلة إلى ذلك بوسيلة الدين أو الطائفة والمذهب!

كانت العلاقة التي طالما ربطت بين أعضاء مجموعات الإغاثة، علاقة اجتماعية، اقتصادية، ثقافية - بالمعنى الواسع للثقافة- وأخلاقية

ذات طابع إنساني، مبدأه المصلحة المشتركة والمنفعة العامة، وفي هذا ربما ما يدل على صوابية ما ذهبنا إليه في ما سبق من السطور حول إرهاصات "مجتمع مدني"، لأن ذلك النوع من العلاقات هو الأساس الذي يقوم عليه المجتمع المدني الإرادي الحر.

ولأن المجتمع المدني يمثل الإرادة الحرة في الدولة الوطنية المدنية الحديثة؛ فإن السوريين قد يجدون أنفسهم مستقبلاً، أمام ضرورة تاريخية تقتضي منهم الاعتماد على الذات، في إرساء مجتمع متين، من أجل إعادة بناء البلد المدمَّر مادياً والممزَّق اجتماعياً، بعيداً من كل ما من شأنه قتل روح المبادرة، الذي طالما كان قائماً طوال عقود الاستبداد والاستعباد والفساد، وخصوصاً أن الوظيفة الرئيسة لتنظيمات المجتمع المدني هي الدفاع عن الحرية.

صمتان قاتلان ونخبوية متهافتة

1

بعد يوم واحد من وقوع مجزرة الحولة في ريف حمص، التي ارتكبتها قوات النظام و"شبّيحته"، وقضى فيها البعض ذبحاً بالسكاكين وحراب البنادق في 25 أيار 2012؛ وزّعنا أنا كاتبة السطور وزميلاتي، على بعض الناس في أحد الشوارع بمدينة السويداء، صوراً لبعض ضحايا تلك المجزرة من الأطفال، مقرونةً بسنابل قمح طبيعية. سبعُ صبايا كنّا، وكانت الصور، التي وزّعناها بقلق العارف وهو يشقّ عصا الطاعة أنه بلا سندٍ اجتماعيّ، مرفَقةً بعبارة "بأيّ ذنب تُذبَح براعم المستقبل؟! سوريا تنزف... وصمتكم يقتلنا".

" الصمت القاتل" إذاً، كان المقصود من خاتمة العبارة التي تلمّح ولا تصرّح بضرورة الثورة عليه، وبأهمية التحاق جارة درعا، مهد ثورة الحرية والكرامة، بركب الثورة، إضافة طبعاً إلى الاحتجاج الصريح على المجزرة المذكورة. الصمت اللاأخلاقي، المهادن، المتواطئ، القاتل، هو نفسه الذي طالما دعا الثائرون والثائرات في المدائن والبلدات السورية المختلفة، إلى الخروج عليه.

لم تكن الدعوة موجَّهة إلى بعض الداخل الصامت صمتاً قاتلاً فحسب، بل أيضاً إلى العالم القاتل بصمته، الشاهد على مذبحة العصر السورية دونما اكتراث، وقد سُمِّيت إحدى الجُمعات "صمتكم يقتلنا" 29 تموز-2011. غير أن ما يثير الاستغراب خلال مسيرة الثورة، نتوءُ اصطلاحات من طراز- "الشرفاء الصامتون" يرددها من دون

تمحيص، بعض الثـائرين أو المعارضـين من غـير الراغـبين في أن يتكلّم نظـراؤهم عن تجـاربهم الخاصـة وسِـيَرهم الثوريـة، أو ممن يعتقدون أن كلام المرء عن تجربته الثوريـة هـو بالضـرورة، تبجّح لا يليق بالثائر "المتواضـع"ـ لكن إذا كـانت معـاداة "التبجّح" مشـروعة، فهل معـاداة الكلام مشـروعة؟ ألم يكن منـع الكلام واحـداً من الأسـباب المهمة التي أفضت إلى الثـورة؟ أليس من شـأن منـع المـرء من الكلام عن تجربته الثورية الخاصة، أن يطمرـ تجربة قد تكون ثرية وفيهاـ مـا قـد يفيـد وينمّيـ ويطـوّر؟ ثم، مَن ذا الأجـدر في التعبـير عن التجربـة الشخصية إن لم يكن صاحب التجربة نفسه، وخصوصـاً أن ما من أحد يمثّل أحداً أو يتكلم باسم أحد إلا على سبيل التضليل والـوهم والخـداع؟ ترى كيف ستتعرّفـ الأجيال المقبلة إلى تجارب الأسلاف الثـائرين في ثـورة لا نجـانب الصـواب إن قلنـا إنهـا واحـدة من أهم الثـورات الـتي مـرّت على التـاريخ الإنسـاني، بكـل مـا يعتورهـا من غرابـة وفـرادة وصبرـ واستبسال وغـير ذلـك؛ مـا لم يتكلم الثـائرون عن يومياـتهم في الثورة وتجاربهم الخاصة شفاهةً أو كتابةً وبأيّ طريقة يرونهاـ ملائمة، على الأقل من باب التوثيق؟

الصـمت الـذي يعتقـده البعض شـرفاًـ قاتـل إذاً، من حيث هـو دفن للحظـة تاريخيـة، لتجربـة حيّـة ليس عـدلاً أن تُـدفَن حيـة وتمـوت ولا يـدري بهـا أحـد. من غـير المفهـوم وغـير المنطقي أن تنتشـرـ مقولـة "الشرفاءـ الصامتين" حتى تصير بمثابـة مثـلٍ دارج، فالصـمت أحيانـاً

يكون شكلاً من أشكال الاضطهاد المعنوي- مثلما هو أحياناً أخرى شكل من أشكال البلاغة. يُلاحَظ هنا، أن الصمت يجري تسييسه وفقاً للمصالح والأهواء والأمزجة، فهو "قاتل" لمَن لا يفيد منه، و"شريف" لمَن يرى فيه منافسةً مثلاً، فيُنتقَص أو يُنقَض أو "يُجتهَد" فيه. على ضوء التسييس هذا، يمكن مثلاً استيعاب ما طالبَ به، أحد "المحللين" ذات إطلالة على إحدى الشاشات، في شأن "منعِ" الناشطين الميدانيين الإعلاميين من الكلام في السياسة، أو تقديم تحليلات سياسية، كون هذا "مِش شَغْلِتْهم"، ضارباً عرض الحائط بما اندلعت من أجله الثورة أصلاً، لعل أهمّه ربما، تحرّر الناس جميعاً من الأميّة السياسية، واستحالتهم جميعاً مواطنين أحراراً، لديهم آراء في شأن بلدهم، لا يهابون التصريح بها أو المشاركة السياسية الفعّالة استناداً إليها، بعد عقود خلت من مستمعٍ لرأيٍ يبديه راءٍ أو نقضٍ يسوقه ناقض. "ليس مُهمّاً أن تكون أفكارنا صحيحة. المهم أن ننتج أفكاراً- ألاّ نتوقف عن الإنتاج". على ما جاء في كتاب "حوارات" لجيل دولوز وكلير بارنيت.

إن شئنا أن نستطرد، فمن شأن ثقافة منع الكلام، السائدة، المتجذِّرة، التي طالما نكّلت بـ"المتكلمين"، بشكل يعكس تخوّفاً شديداً من الكلام، وخصوصاً أن الكلام يختلف عن اللغة، كون هذه الأخيرة، عامة، مضبوطة، وتخضع لقواعد صارمة وحاسمة. من شأن ثقافة كهذه، إنتاج أشخاص يهابون التعبير عن أنفسهم وتجاربهم الشخصية

بحريــة، بصــيغة المتكلِّم، ربمــا خوفــاً وهربــاً من رقابــة الآخــرين وأحكامهم ومعاييرهم، فيسيطرون على كلامهم، متجاهلين ربما بـذلك نـداءاتهم الداخليـة، مضـيفين إلى رقابـة الآخـرين رقابـةً مضـاعَفة، الرقابـة على الـذات، وهي الأخطـر. هكـذا، يصـير التعبـير عن الأنـا، وعن أخصّ الخصوصيات وأقربها إلى الذات، بصيغة الغائب، فيكتب أحدهم مثلاً، معبِّراً عن نفسه لكي يُظهر للآخرين ربما أنه موضـوعي "كاتب هذه السطور شـعرَ بكـذا أو فعـلَ كـذا أو قـالَ كـذا. بـدلاً من أنـا شعرتُ، أنا فعلتُ، أنـا قلتُ". أو يصـير أحـد آخـر، مغتربـاً هاربـاً إلى "الشــيء في ذاتــه"، إلى التجريــد، ظانّــاً نفســه بــذلك "مترفِّعــاً" عن "الصغائر"، أو قد يتخذ من الإغمـاض الـدائم نهجـاً، خوفـاً من تبعـات الكلام أو الكتابة الصريحة عن الواقع وتسـمية القتلـة والأشـياء القاتلـة بمسمياتها، ظانّاً روحه أغلى من أرواحٍ بُذلت ثمناً لكلمة واضحة جلية لا لبس فيها.

2

هناك تصوّر مغلوط، ليس عاماً بكل تأكيد، يتـوهّم أن الحـراك النسـبيّ المحـدود الثـائر في منــاطق الأقليــات، "أرقى" من نظـيره في بقيــة المناطق السورية الثائرة بالمعنى الحقيقي والأصيل والعميق للمفردة. وقد ذهب "الغلوّ" بالبعض إلى حدّ وصف الحراك في بعض المنــاطق

التي تسكنها أقليات دينية كالسويداء، بـ"النخبوي"- أما السبب المباشر- لهذا الوصف غير اللائق من وجهة نظرنا، أن غالبية المعارضين أو الثائرين - وهم أقلية وسط أغلبية مؤيِّدة أو محايدة- من حمَلة الشهادات الجامعية أو من ممتهني وظائف ذات مكانة اجتماعية "مرموقة" كالهندسة والطب والصيدلة والمحاماة والتدريس.

يدفع هذا التعاطي "النخبوي"، الاصطفائي الانتقائي، والفوقي مع الواقع والناس، إلى سؤال كالآتي: هل حصول المرء على شهادة جامعية يجعله كائناً نخبوياً لا ينتمي إلى الناس، إلى الشعب؟! حدّثني مرّة سائق تاكسي، عن أشياء تجرح شعوره، منها "الاعتقاد الواهم بأن "جميع" السائقين "زعران"، وقال إنه لم يشارك في التظاهرات، لكنه كان يفرح كلّما التقى بتظاهرة تهتف للحرية، متكلماً في دخيلة نفسه "شو أَنِي (أنا) ما بدّي حرية يعني؟ أَني كمان بدّي حرية"، وأفاض في الحديث عن انتهازية الشبّيحة، حتى أنه لم يستبعد أن يكون هؤلاء أوّل مَن سيحمل علم الثورة ذا الخط الأخضر والنجمات الثلاث إذا سقط النظام".

يبدو أن من الواجب الأخلاقي والإنساني هنا، تذكير القائلين بـ"النخبوية" المتهافتة تلك، بأن مَن فجّر ثورة الحرية في سوريا، هم أطفال كانوا لم ينتهوا بعد من مرحلة التعليم الابتدائي أو الأساسيّ، وبأن بعض حمَلة الدكتوراه في السلطة الأسدية وغيرها ليسوا سوى مجرمين وقتلة.

يشي الاصطلاح، أعني "الحراك النخبوي"، ببنيةٍ كامنة في نمطِ تفكير، جاهزة دوماً للعمل على المنوال نفسه، إذ الاصطلاحات تعود إلى مهدٍ وموئل، فهي لا يمكن أن تطفر فجأة من الفراغ. فإذا نظرنا من زاوية سوسيو/ثقافية، لربما تكشّف لنا إلى أي حد يتقاطع الحديث عن نخبوية الحراك الثائر في منطقة ما وأفضليته على غيره في مناطق أخرى من البلد نفسه، مع الحديث ذي الطابع "الباطني الجوّاني"، عن أفضلية هذا الدين أو تلك الطائفة على غيرهما. لا تفوتنا هنا الإشارة إلى تعبيرات لغوية خطيرة من مثل "ديننا أشرف دين"، أو "مجتمعنا أحسن مجتمع" ومن وراء ذلك الكثير من الحوادث والوقائع التي تعكس تمحوراً حول الذات.

يلجأ البعض ممّن يريدون حصر "الرقي" في حراك ثوري بعينه، أو في أشخاص بعينهم، أو في منطقة بعينها، إلى استحضار أمثلة غاية في الرومنطيقية، كسلسلة الاعتصامات التي حُملت فيها الشموع بالسويداء ترحّماً على أرواح الشهداء، في بواكير الحراك الأولى. بيدَ أن ما يغيب ربما عن البال هنا، أن تلك الاعتصامات كانت في معنى ما بمثابة ردّ فعل ثوري جميل ومهم، يتفاعل مع فعل ثوريّ أصيل ملازِم للورد والماء والزيتون والحمام أيضاً، حصل في مناطق سوريّة أخرى تسكنها "أكثرية"، وكان وقوده من أرواح الثائرين ودمائهم

مَن الأجدر إذاً بنعته بـ"الرقي" في هذا المثال البسيط – إن كان لا بدّ من النعوت ولا مفرّ من ذلك- ردّ الفعل أم الفعل؟ خصوصاً عندما لا نُسقط من الاعتبار، أن نظام الأسد عمد إلى التنكيل بالناس في المناطق التي ثارت بكليتها ثورة حقيقية، أبشع تنكيل، بينما ظلّ حريصاً أشدّ الحرص على أن يكون التنكيل مخفَّفاً في شأن أي حراك ثائر في مناطق الأقليات التي لم تثر بشكل حقيقي، مواظِباً بذلك على تنفيذ مخططٍ طائفيّ، إثنيّ، مَناطقيّ، وعنصريّ، يسعى إلى تمزيق النسيج السوري الوطني، الذي بُدِئ الاشتغال عليه منذ اندلاع الثورة، بل قبل ذلك بكثير، طوال عقود حكم آل الأسد ومُلكهم.

في العودة إلى بعض التفاصيل في المثال المطروح عن اعتصامات الشموع، فقد جُبهَ مثلاً أحد هذه الاعتصامات في ساحة سلطان الأطرش، الذي لم يكد ينهي خمس دقائق من الوقت، بمجموعة من "أمناء" الفِرَق الحزبية (حزب البعث) وموجِّهين "تربويين" وعناصر "أمن" احتلّوا مكان المعتصمين، وانبرى هؤلاء يردّدون شعار "يا بشار لا تهتم/ عندك شعب بيشرب دم"، في الوقت الذي كان المعتصمون آنذاك، وكنتُ أنا كاتبة السطور، معهم، نردد جميعاً نشيد "حماة الديار" وبعضهم الآخر، وأنا منهم أيضاً، يردد "حرية حرية"، حاملين الشموع وأغصان الزيتون. إلا أن الشعار المذكور لم يتخطَّ في المحافظة المذكورة حدود اللفظ، بالمعنى الصريح العلنيّ المستفز، فقد قُتل مثلاً، العديد من الشباب المعارضين

المـدنيين السـلميين، لكن قتلهم كـان مسـتتراً، انطـوى عن الأنظـار وانـزوى عن الأفهـام، كالتصـفية تحت التعـذيب في ظلمـات أقبيـة المخابرات.

هذا من جهة النظام، أما من جهة المجتمع، فكـان هنـاك ربمـا مـا يشـبه اتفـاق تهدئـة ضـمنيّاً لا واعيـاً، غـير متفـق عليـه صـراحة بين الموالين في المحافظة والمعارضين. فبدا المشـهد في عمومـه، دراميـاً وتراجيـدياً في آن واحـد، لم يُـرد فيـه المعـارِض المعـارَض حـتى من أقرب الناس إليه، العارف أنه الثائر بلا ثورة، التصعيد في الثـورة في معنى ما. كما لم يُرد الموالي في المقابل، التصعيد في الموقف المؤيـد. وعليه، ظلّت الأمور هادئـة نسـبياً حـتى اللحظة. بطبيعـة الحـال، تبقى هناك تفرّعات وتفصـيلات واسـتثناءات وجزئيـات لهـذا المشـهد العـام الـذي يمـور بـرؤى ووجهـات نظـر مختلفـة وشـائكة ومعقـدة.

لكن الشـعار نفسـه، جـرى تطبيقـه تطبيقـاً حرفيـاً واقعيـاً مسـتفزاً ومهينـاً في المنـاطق السـورية الثـائرة ذات الغالبيـة السـنيّة، وحصـل بالفعل "شرب الدم"! فالمجزرة الـتي وقعت يـوم 10نيسـان 2013 في مدينة الصنمين بدرعا، على سبيل المثـال لا الحصـر، وراح ضـحيتها العشرات بينهم نساء وأطفـال قضـوا ذبحـاً بسـكاكين "الشـبّيحة" وفـق ناشـطين ميـدانيين هنـاك، حتمـاً لم يقـع مثيلهـا في المحافظـة الجنوبيـة المجـاوِرة، أي السـويداء. على "ضـوء" وقـائع كهـذه، تغـدو قـراءة اصـطلاحات من مثـل "الـرقي". و"الحـراك النخبـوي" أكـثر واقعيـة،

وربما يتبيّن أن التقييمات ذات الشأن والمعنى، هي تلك التي تأتي بعد التجربة لا قبلها.

إن الانتباه الدائم إلى كون الماهية الإنسانية واحدة، ومداومة النظر في اللغة المستعمَلة والسلوك الممارَس، والمكاشفة، ذلك كله وما يشابهه، قد يكون بديلاً آمناً من الاستتار المنذِر بعواقب وخيمة. لذا وجب نقد اصطلاحات من مثل "شرفاء صامتين"، "حراك نخبوي"! وغيرهما من تعبيرات لغوية لا يصحّ أن تكون بمثابة هوية ثابتة، ناجزة، ودامغة لمجتمع ما أو فرد ما أو جماعة ما.

15 آذار/18 آذار

1

في الخامس والعشرين من آذار 2014، لجأت امرأةٌ سوريّة، إلى الفعل الذي لجأ إليه ملهِم ثورات "الربيع العربي"، التونسيّ محمد البوعزيزي، بإضرام النار في الجسد إضراماً احتجاجياً. الفعل الذي هو في الآن عينه، ردّ فعلٍ على قهر متعاظم مُرافِق لإحساس متعاظم بالمهانة.

كانت المرأة محترقة معنوياً على ما يظهر، بلجوء قسري إلى لبنان، قبل لجوئها إلى النار في ذاتها، لتحترق جسدياً وكلياً. أضرمت المرأة النار في جسدها أمام أعين أطفالها الأربعة بطرابلس شمال لبنان، قرب مركز تابع للأمم المتحدة، احتجاجاً على شطب اسمها، وعدم تمكنها تالياً من الحصول على مساعدات إنسانية، وفق مداولات إعلامية. قبل عامين من الواقعة الأخيرة هذه، أيضاً أضرم حسن علي عقلة، النار في جسده، في مدينة الحسكة شمال شرق سوريا، يوم 26 كانون الثاني 2011، أمام الناس، احتجاجاً على قهر النظام الأسدي، حسبما رُوِيَ.

في أول دعوة علنية للتظاهر في موقع "فايسبوك"، اعتُبر الخامس من شباط 2011 "يوم غضب الشعب السوري". حال الخوف الشديد، على الأرجح، دون استجابة الدعوة وقتذاك. لكن بتاريخ 17 شباط 2011، اشتعلت تظاهرة قُدِّر عدد المشاركين فيها نحو 1500 شخص راحوا يهتفون: "الشعب السوري ما بينذل"، بُعيدَ ضرب شرطي أحد أصحاب المحال التجارية في منطقة الحريقة في دمشق، ما يُذكّر

أيضاً باحتجاج البوعزيزي على صفع الشرطية له. جاء وزير داخلية النظام الأسدي آنذاك، إلى موقع التظاهرة وأخذ يخاطب الناس بعبارات من قبيل: "عيب هاي اسمها مزاهرة (مظاهرة)". مرّت عشرة أيام على تلك التظاهرة، قبل أن تعتقل الأجهزة الأمنية في محافظة درعا جنوب سوريا، يوم 27 شباط 2011 الأطفال الآتية أسماؤهم: أحمد شكري الكراد، محمد أيمن منور الكراد، معاوية فيصل صياصنة، سامر علي صياصنة، أحمد جهاد أبازيد، مصطفى أنور أبازيد، نضال أنور أبازيد، أكرم أنور أبازيد، بشير فاروق أبازيد، نايف موفق أبازيد، أحمد ثاني رشيدات أبازيد، أحمد نايف الرشيدات أبازيد، نبيل عماد الرشيدات أبازيد، محمد أمين ياسين الرشيدات أبازيد، عبد الرحمن نايف موفق أبازيد، عيسى حسن أبو القباص، علاء منصور أرشيدات، ويوسف عدنان سويدان. هؤلاء جميعاً، اعتقِلوا وعُذِّبوا بشتى صنوف التعذيب، منها سحب الأظفار، بعدما كتبوا على جدران مدرستهم بلغة الربيع العربي: "الشعب يريد إسقاط النظام"، وبروح اللعب الطفولي السوري الخالص: "يسقط بشار الأسد"، "إجه عليك الدور يا دكتور". العبارات التي أكّدها بعد مرور عامين، لصحيفة "ميل أون صنداي" البريطانية التي نشرت صورته، بشير أبازيد، صاحب فكرة الكتابة على الجدران بالغرافيتي، وكان عمره آنذاك 15 سنة.

بدأ بعض المعتقلين السياسيين في سجن دمشق المركزي، بتنفيذ إضراب مفتوح عن الطعام يوم 8 آذار 2011، إلى حين غلق ملف الاعتقال السياسي، بعدما أصدر بشار الأسد عفواً رئاسياً عاماً عن كل الجرائم المرتكبة قبل 7 آذار 2011، خلا من أي إشارة إلى معتقلي الرأي والسياسيين. في 15 آذار 2011 شارك العشرات في تظاهرة في سوق الحميدية الشهير بالعاصمة دمشق، وجبهت بعنف. كان الشعار الجديد الأبرز حينذاك "الله سوريا حرية وبس" آخذاً في الصعود والرواج.

في اليوم التالي، أي في 16 آذار 2011 نفّذ نحو 150 شخصاً اعتصاماً أمام مبنى وزارة الداخلية بدمشق، كان بينهم أستاذ الفلسفة والمفكر طيب تزييني. طالبوا بإطلاق المعتقلين السياسيين، فواجههم عناصر أمن النظام الأسدي بعنف شديد، واعتقل البعض منهم، وسُحبت بعض النساء المشاركات في الاعتصام من شعورهن في الشارع. إحداهنّ محامية وناشطة في مجال حقوق الإنسان، حدّثتني أنا كاتبة السطور، ذات لقاء عفويّ، عن إضرابهنّ عن الطعام قرابة أسبوع، بعد اعتقالهنّ يومذاك، وقالت إن بعض العناصر الأمنيين الذين قابلَتْهم، كانوا يعتقدون الـ"فايسبوك" جهازاً كالهاتف النقّال أو الكومبيوتر، فكانوا يطلبون من المعتقلين إخراج الـ"فايسبوك"، باعتباره أسّ "المؤامرة".

في 18 آذار 2011، انطلقت تظاهرات حاشدة، مدنيّة سلمية، في درعا جنوب سوريا، تحت اسم "جمعة الكرامة"، احتجاجاً على الاعتقال والقمع والفساد، وتنديداً بفساد رجال النظام وإجرامهم، من مثل قريبَي الأسد، رامي مخلوف، وعاطف نجيب رئيس فرع الأمن السياسي بدرعا، الذي اعتقلَ التلاميذ الأطفال المذكورين، ثم رفضَ تنفيذ مطلب ذويهم في إطلاقهم، مجيباً: "إنسوهن وجيبو غيرهن". قابلَ عناصر الأمن الأسدي تلك التظاهرات بالرصاص الحيّ مباشرة، ما أدّى إلى سقوط شهداء وجرحى، كان حسام عياش ومحمود جوابرة، أول شهداء الحرية والكرامة في ثورة السوريين.

قبل أن تمتد التظاهرات المحتجّة الحاشدة، لتعمّ غالبية المناطق السورية، التي بقيَت صامدة بسلميتها ومدينيتها في مواجهة عنف النظام الأسدي وبطشه شهوراً طويلة، كانت قد امتدت من قبلُ إلى بلدات من مثل جاسم ونوى والشيخ مسكين والصنمين وإنخل المجاورة لمدينة درعا، وانطلقت أيضاً تظاهرات حاشدة من أمام "الجامع العمري" الكائن في حي الروضة بـ"درعا البلد". الجامع نفسه، الذي نفّذ فيه الأهالي اعتصاماً سلمياً، طالبوا من خلاله بالإفراج عن المعتقلين السياسيين، وبمكافحة الفساد وإلغاء حال الطوارئ المعمول بها منذ عام1963. استمرّ الاعتصام في الجامع، إلى أن اقتحمه عناصر الأمن الأسدي فجر الأربعاء 23 آذار 2011، وأطلقوا النار على مئات المعتصمين في داخله، ما أدى إلى سقوط

شهداء وجرحى. خلال اليوم نفسه، خرج الألوف من شمال درعا في تظاهرة اتجهت نحو الجامع العمري احتجاجاً على إطلاق النار فيه، فواجههم عناصر الأمن الأسدي بالرصاص الحيّ. طبعاً، بحسب صور وفيديوات ومعلومات، واصلَ ثائرون وناشطون ميدانيون توثيقها منذ البداية.

يجدر هنا التعريج على شخصية ثائرة، مؤثرة، قريبة من الناس في درعا، ولها مكانتها واحترامها لدى غالبيتهم، أي الشيخ الضرير البصير، أحمد صياصنة، وهو من مواليد درعا البلد 1945. كان خطيباً في الجامع العمري منذ عام 1978. مُنع من الخطابة في الجامع نفسه أكثر من مرّة، آخرها في عام 2008. ظلّ ممنوعاً من الخطابة حتى 18 آذار 2011، حيث أعيد بناءً على طلب أهالي درعا المحتجّين. استُدعيَ الصياصنة إلى الفروع الأمنية المختلفة، وهو شيخ حرّ لا ينتمي إلى أي حزب أو حركة أو جماعة أو هيئة. تعود معارضته للنظام الأسدي إلى سنوات طويلة قبل اندلاع الثورة. يُحكى أنه كان دائم السخط على الفساد والخطيئة والجريمة، من على منبر الجامع العمري وغيره.

في 13 نيسان 2013 صوّر ناشطون ميدانيون، فيديوات تُظهر قصف قوات النظام مئذنة الجامع العمري، وهذه كانت أول مئذنة في بلاد الشام قاطبةً. الجامع الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب، المتمتّع، أي الجامع، بقيمة دينية وروحية وحضارية وتاريخية وأثرية، والذي

أصبح بعد اندلاع الثورة، يتمتع إضافة إلى القيمة المذكورة، برمزية سياسية وثورية خاصة ومميَّزة بالنسبة إلى السوريين.

2

أمّا عن سبب العودة إلى ما قد يكون معلوماً، فهو جلبة الأحاديث التي تعيد إلى الأذهان سمّ الإيديولوجيا، والانشغال المحموم بما قد يتسبّب بالمزيد من التشقق والانفلاق، إذ ما انفكّ سجال يندلع كلّما ولجت الثورة عاماً جديداً. سجال دأب فيه البعض على ردّ الانطلاقة الفعلية للثورة إلى يوم 15 آذار 2011، بينما دأب البعض الآخر، وهم غالبية ساحقة، على رفض أن تكون الثورة قد "تفجّرت" قبل 18 آذار من العام نفسه. ففي حين يكون الطرف الأول قد انتهى من استقبال عام جديد للثورة، يبدأ الطرف الثاني باستقباله بعد ثلاثة أيام.

المطروق آنفاً، الذي لم يتطرّق إلى تحرّكات سوريّة تضامنت مع الشعوب في بلدان عربية شهدت "ربيعاً ثائراً" قبل سوريا؛ منعاً من التشويش على ما هو احتجاج خالص ضد نظام الأسد؛ يوضّح أن واقعة أطفال درعا، قد بدأت في شباط قبل أن يهلّ شهر آذار، وأنها تسبّبت في سريان الغليان بين أهالي درعا، فجّر الموقف منها بعد أقلّ من شهر من وقوعها. تبيّن الواقعة نفسها، من جهة أخرى، أن التلاميذ الأطفال المذكورين، كانوا أول مَن أصابوا بسهام كلماتهم المحفورة على الجدران، الهدف الأخطر، رأس النظام، وبحدس طفولي مباشر، قرروا أن الإسقاط هو السبيل الأنجع للخلاص من نظام كهذا. لقد

أشرقت أساريرهم أيّما إشراق، فأصابوا لبّ الكارثة مباشرة، بعذوبة فيّاضة، بلا تأتآت ولفّ ودوران، بلا تحليلات وحذلقات، فكانوا بذلك، روّاد الثورة في معنى ما. كانت كلماتهم المحفورة على الجدران، أشبه بحُلم تطاولَ فجاوزَ مداه، فالكلمات للفكر بمثابة الآلات للعمل. بينما سقف مطالب المعتصمين يوم 15 آذار، بعد مرور أكثر من أسبوعين على واقعة الأطفال تلك، كان الإفراج عن المعتقلين السياسيين. يوضّح المطروق آنفاً أيضاً، أن أهالي درعا، كانوا أوّل مَن خرجوا بالألوف إلى الشوارع محتجّين، واستمرّوا، حتى بعدما اجتاحت دبابات النظام ومدرّعاته مدينة درعا في 25 نيسان 2011، وقُطعت معظم الاتصالات عن المحافظة، وأوّل من قدّموا شهداء في سبيل الحرية والكرامة السورية.

****

لقد أقامت درعا البرهان، بنفسها، من نفسها، ولنفسها، على أنها مهد الثورة، لسنا مَن نقول ولا مَن نظن. لكن تبقى جينيالوجيا الثورة، أكثر من مجرّد متابعة "نشأة" و"تكوّن"، أو اقتصار على وصف أحداث ووقائع. إذ من المهم هنا، التساؤل عن الكيفية أو عن الصيرورة التي جعلت من لعب الأطفال الخالص مثلاً، لعبة إرادات متصارعة. من المهم رصد الانشطارات والتعارضات والاختلافات والانشقاقات والتباينات، والاستراتيجيات والتكتيكات. من المهم العودة إلى أصل الثورة باعتبارها بذرة نمت في عمق النقيض المستبِد المستعبِد نفسه

الذي "زرعها" و"سقاها" من حيث لا يدري، لذا كان محقّاً عندما تصوّرها "مؤامرة خارجية". إذ كيف يمكنه استيعاب نشأة الثورة ونموّها في داخله، وهو مَن لا يملك البصيرة المختصة بتبصّر الداخل/العمق/العتمة! الثورة باعتبارها تحرراً، تنشأ على ما يبدو، مع نشوء الديكتاتورية في الآن نفسه، ثم تظلّ "تصير" إلى أن يحين تفجّرها، فتصبح "الخارج" من "داخل" الديكتاتورية. في "قصة الحضارة"، يُحكى أن القهر انتهى إلى أن يكون ضميراً، والخوف تطوّر حتى أصبح حُبّاً.

3

كان في الإمكان آنفاً الحديث عن الأطفال كـ"مجموعة" كما درجت العادة، من دون ذكْر أسمائهم اسماً اسماً، غير أن لهذا التفنيد والتمييز غايةً من شأنها الحثّ على الكفّ عن التعاطي مع أولئك الأطفال وغيرهم ممن ثار من الشعب، باعتبارهم كتلة بشرية لا متمايزة. فـ"الحقيقة" الثورية هنا، وراءها "أفراد"، أو "أشخاص"، "كثيرون"، متميزون لا تصحّ المبادلة بينهم، أعطوها قيمتها ومعناها، قبل أن يكونوا "مجموعة/مجموعات". إلا أن البعض ينزع إلى محاباة لطراز معيّن من المعارضين أو الثائرين، أو لشريحة و"طبقة" معينتين من الناشطين أو المشهورين باعتبارهم "أفراداً" أو "أشخاصاً"، في مقابل "حشود" أو "جموع" ثائرة غير ذات ملمح أو بال، ليست معروفة،

وليس ضرورياً أن تُعرَف. هكذا، يصدر البعض إلى المسرح ويدخل البعض الآخر دائرة الظل والنسيان.

****

كثيرة هي الأقاويل التي نسمعها أو نقرأها هنا وهناك، تتحدث أن الثورة تشبه فلاناً، وأن فلانة هي الوجه الجميل لسوريا، وأن فلاناً يمثلنا، وغير ذلك من ترّهات الاختزال. عشرات ألوف الشهداء والمعتقلين والجرحى، وملايين اللاجئين والنازحين، وثمة مَن يقول، إن الثورة تشبه فلاناً أو فلانة!. إن الثورة في الواقع، تشبه كل مَن شارك فيها وانتمى إليها.

تقف النظرة الديموقراطية للأشياء والوقائع والأحداث والأشخاص، موقفاً حذراً من الفرد أو الشخص، ذلك أن الأفراد قد يخطئون وقد يصيبون. لذا، ربما يكون لزاماً علينا أن نغلّب روح التعاون على منطق التنافس، وألا نعيد إنتاج "الزعامة" عبر تمييز "الفرد" والتقليل من شأن "المجموعة/المجموعات"، ولا نقول "حشداً/ حشوداً"ـ ينسحب هذا، على الخطاب التبجيلي الذي اعتادت الغالبية استعماله. فعلى مواقع التواصل الاجتماعي الافتراضي مثلاً، كثيراً ما نقرأ عبارات تفتقر إلى الحسّ النقديّ، من مثل: "تحية لمفكر(نا) الكبير فلان، أو شيخ(نا) الجليل فلان"، تماماً كما يجري في واقعنا الاجتماعي. السؤال هنا: أيهما الأجدى، أن نتعلم من هذا المفكر أو ذاك، ننقد أفكاره سلباً وإيجاباً، نتفاعل معها بحيث نفكر نحن

أيضاً، أم نبقى مسلّمين بأنه مفكر(نا)، يفكر عنّا، فنيسّر لـه أن يصـبح "زعيماً" نسير خلفه كأتباع ومريدين؟ هنـاك "شخصـيات" في الثـورة تحوّلت "زعامات" ممنوعـاً نقد مـا يصـدر عنهـا من أقـوال أو أفعـال تخصّ الشأن العام، فباتت مرتع استقطابات ونسجاً شللياً.

ربما يكون السؤال الأمضـى الـذي يجب أن يظـل قائمـاً: مَن يصـنع التـاريخ، الأفـراد أم الشـعوب والمجتمعـات والحضـارات، أم جـدل العلاقـة والتـأثير بين الاثـنين؟ وإذا كـان في إمكـان الفـرد التـأثير في ملامح جزئيـة من الأحـداث العامـة، فهـل في اسـتطاعته التـأثير في الاتجاه العام للأحداث؟

ملاحظة: نُشر هذا الموضوع في موقع "الحوار المتمدن" بتاريخ 12/11/2014، تحت عنـوان "جينيالوجيا الثورة السورية"، باسم (ع.ش*)، وهو يمثل الحرفَين الأولين من اسمي الصـريح أنـا كاتبـة السـطور. كـان ذلـك لاعتبـارات أمنيّـة، بعد مـا تم منعي بتـاريخ 1 نيسـان 2014 من مواصلـة الكتابـة عن الثـورة ولهـا، من قِبَـل فـرع الأمن العسـكري بالسـويداء الـتي كنت لا أزال مقيمة فيها.

المبحث الرابع

في بعض ما تجلّى
عن الثورة السورية

تفتّحت القـوة المفكِّرة لـدى شـعوب "الربيـع العـربي"، لتعلن ضـرورة "قتـل الأب" في بلـدانها، بـالمعنى الـذي ذهب إليـه مؤسـس

التحليل النفسي سيغموند فرويد، كعملية رمزية من شأنها إحداث قطيعة مع الماضي، وقطع العلاقة النسليّة مع الأصل وإعلان الهوية، والخروج على نظام أبويّ تسلُّطيّ. وقد تجلّى هذا المعنى في شعارات عديدة من مثل: "الشعب يريد إعدام الرئيس"، ليدلِّل على أن "قتل الأب" هنا ربما يعني الانتقال إلى نظام ديموقراطي، أسّه ومنتهاه حرية الإنسان الفرد وكرامته، وقد ثارت ثائرة السوريين مثلاً، على كل ما من شأنه "حَيْوَنَة سورية"، من أجل "أنسنة سوريا". ليست كتابة اسم البلاد بهذين الشكلين، عفواً. بل هو تعمّد يُظهر الفارق الكبير بينهما. فذات التاء المربوطة إنْ هي إلا حيوانة رُبطت طويلاً بحبل العائلة المالكة الحاكمة، حتى أمست "أسدية" صرفة. فيما ذات الألف الممدودة، الممشوقة، والمشدودة صوب السماء، هي نفسها الثورة الطامحة إلى الأنسنة والإنسان الحقيقي توقاً وشوقاً.

ـ قتل الأب السوري

لما كان "الأب"، حافظ الأسد، قد حكم سوريا ردحاً طويلاً من الزمن، وظلَّ بعدما وافته المنية، "حيّاً" يحكم البلاد والعباد من قبره، إن جاز التعبير، فإن العقل في تفتُّحه الثوري اتجه أول ما اتجه إلى استئصال جذر الآن، أي إلى "قتل الأب" المؤسِّس لنظام لا تزال روحه (روح الأب) حيّة نابضة فيه. قد نجد في هذا التحليل تفسيراً للعنة الثائرين والثائرات التي انصبَّت على روح الأب كما في شعار: "يلعن روحك يا حافظ"، وتحطيمهم تماثيله في المدن والبلدات المختلفة، لعل

أبرزها، إسقاط تمثاله الضخم وتهاويه على جبينه في وسط مدينة الرقة. وقد ترافقت عملية "قتل الأب" مع "الابن"، وفي هذه المرة سيكون الأب، أباً وابناً في آن واحد. إنه ابن حافظ، وأبو حافظ، بشار الأسد الذي ما انفكَّ المحتجّون يلعنون روحه أيضاً في إشارة رمزية إلى فنائه من حياتهم[31]. وما حَرْق صوره وتشويهها والسخرية المستمرة منه إلا تأكيد للرغبة الدفينة في "قتله"، ما يعني، في نهاية المطاف، نزع صفة "الخلود" عن "القائد الخالد"، ونزع "الألوهة" عن العائلة الحاكمة وردِّها لله، لله الأكبر، العالي، والمجرَّد، كما في شعار: "الله أكبر/ عالظالم". نلحظ المفارقة عينها في ضعضعة الثورة مفهوم "الرئيس السيِّد"، وعلى سبيل المثال، ما كان ليتحدَّث "السيد" إلى الناس في ساحة الأمويين بتاريخ 11 كانون الثاني 2012، للمرة الأولى مذ تبوّأ الحكم بالوراثة مع مطلع هذا القرن، ومن دون ربطة عنق، مثلاً، لو لم تقوِّض الثورة ثنائية "السيد والعبد"[32] التي جعلت من الإنسان "قرباناً" يفدي "بالروح والدم" الإله أو سيِّد البلاد الأعظم. بهذا تكون الثائرات والثائرين قد مهّدوا السبيل أمام نهوض كل أشكال الحرية، والمدنية. مدنية تعني فصل الله عن الأشخاص، كما فصل الدين والعسكر والحب والكره عن الدولة.

---

31 **يمكن مراجعة المبحث الأول، "اللغة بين نظام جائر وشعب ثائر"، عن إخماد النار بالنار. وزلزلة الأبد بالابد، الفقرة(4).**

32 **يمكن مراجعة المبحث الثاني، موضوعَي "الثورة والعبودية"، "الثورة والحرية".**

ـ تفتّح الفردية

مـع تفتّح القـوة المفكِّرة بانصـرافها إلى "قتـل الأب"، تفتّحت فرديّـة تحرِّض على رصد الذات، وتأمّلها، فهي الآن تشـعر وتفكـر وتتبصّـر وترفض وتقبل و... تريد. يبـدو أن الصـراع مـع الأنـا العليـا الأبويّـة، المتسلِّطة، كان أعمق من مجرد صراع ذي طابع مطلبيّ أو حاجـاتيّ. فجوهريَّة الصـراع هنـا اتصـلت بمكانـة الإنسـان وماهيَّة وجـوده. إنـه صراع غايته تفتيت نظام يساوي بين الناس مساواة سكونيّة، سـديميّة، تحـوِّل الأفـراد إلى قطيـع. الجـدير ذكـره، في هـذا المقـام، أن الفرديـة تفتّحت داخـل الجماعـة، واتفقت مـع غاياتهـا، فـانتقلت من الاهتمـام بمصيرها الخاص إلى العناية بالمصير العام. فقد كـان المـرء صـامتاً لعقود، وهو بنفسه جاهل، وفي السياسة لا يبالي، بيد أن هذا الانطـواء الصامت الطويل الأمد مهّد لنشوب ثورة نيرانها ثنائيَّة الفعل، الحـرق والإنـارة، فبمـا أن الحـرق فعـلُ ترميـد لصـفحة الماضـي، ماضـي الاستبداد والفسـاد والاستعباد، فـإن الإنـارة فعلُ إشـراق يشـيع ثقافـة التمرّد والاحتجاج الـتي قـد تفضـي إلى الديموقراطيـة، وتؤسِّـس حيـاة حرة كريمة؛ لأن كل تعقّل وكل حياة عقلية ومعقولة تبدو مستحيلة مـا لم يتم التسليم أولاً بحق الإنسان في أن يحيا حياة حرة كريمـة. ألم يبـدأ "الربيع العربي" بـاحتراق الجسـد؟ ألم يكن لجـوء محمـد البـوعزيزي إلى إضرام النار في جسده، حرقاً وإنارة في آنٍ واحد؟

- عَود إلى الملموس

مـع الإنـارة، هبطت الشـعارات الطوباويـة المتعاليـة حـول الصـمود والتصدي، والمقاومة والممانعـة، وحـول الأمـة العربيـة الواحـدة ذات الرسـالة الخالـدة، وحـول الحب المقـدّس للـوطن والأرض والحريـة؛ لتتبدّل ماهيّاتها، فتصبح أرضيَّة، واقعيَّة، تلامس حياة المواطن وتعنيه في الصميم. وباتت الشعارات مع الثورة لغة تغيير. تغيـير في طرائـق التفكير، وأداة لصنع مفـاهيم جديـدة، وواقـع جديـد يتخـذ من الجـدل لا الخطابة وسيلة للتثقيـف والتـأديب. فالتربيـة الشـكليَّة الـتي تعلّم أفكـاراً اغترابيَّة تشرّد الإنسان عن موطنه، وعن تفاصـيل عيشـه واهتماماتـه السياسية، لا بد أن تضمحلَّ لتحلّ محلّها التربيـة العلميَّة الـتي تنفذ إلى لبّ الأشياء، وتحاكي الهمّ اليومي، وتشحذ العقـل بالتأمّـل المنعتـق من التفسـيرات الوهميّـة للقضـايا السياسـية والاقتصـادية والاجتماعيـة. التنسـيقيَّات الميدانيـة الـتي تمخّضـت عن الثـورة، أو المجموعـات والتنظيمات غير الحكومية التي شكَّلت نفسـها بنفسـها ونظَّمت عملهـا من أجل إغاثة الفارين من بطش النظام الأسدي بعـدما قُصِفّت بيـوتهم ودُمِّرت، أي النازحين مثلاً من محافظة أو محافظة إلى أخـرى، ربمـا تكون نواة "مجتمع مدني" في طور التشكّل، مجتمع قد يكون له الدور الأكبر في الدولة الديموقراطية المأمولـة مستقبلاً. للمـرة الأولى وجـد السوريّ نفسه متكلماً بنفسه عن نفسه ولنفسه، خصوصـاً بعـد اكتظـاظ الشـوارع بجماعـات ثوريَّة من الأطفـال والنسـاء والشـباب والشـيوخ

الهاتفين للحرية والعدالة والمساواة، وتحوّل بعض الشابات والشبان إلى نشطاء سياسيين و"صحافيين ميدانيين" ينقلون للعالم ما يجري على الأرض السوريَّة بواسطة هواتف محمولة توثّق الأحداث وتحمِّلها على شبكة الإنترنت في ظل غياب الإعلام الحرّ المستقلّ.

ـإضاءة المهمَّش

استطاعت الثورة السورية أن تنقل تأثيرها على الرغم من المسافات، إذ هي، على ما يبدو، علّة وحيدة تحتوي في وحدتها جميع الأصول البذريَّة التي منها ينمو ويتطوَّر كل موجود جزئي. فلمّا كان صحيحاً أن سلطة آل الأسد ورجالها، لم تكن سلطة سياسيَّة، بل كانت دوماً سلطة تعتاش وتعيش من الأزمات، وعليها، وسدِّ الطريق أمام كلّ انفتاح للجزء على الكل، فالصحيح أيضاً أن ثورة الحرية في سوريا قد أحيت مشاعر المحبة، والتعاضد بين أبناء الشعب الواحد بكل مكوِّناته وأجزائه. تجلّى ذلك مثلاً في شعارات من مثل: "واحد واحد واحد/ الشعب السوري واحد"، أو "يا حماة حمص معاكي للموت"، أو "يا درعا إدلب معاكي للموت". هكذا تأتلف الحياة والمجتمع دائريّاً لا هرميّاً، أفقياً لا شاقوليَّاً. وفي الحركات الدائرية والمتنوِّعة تتوافر جميع الأسباب التي تحيي الروح الفرديّ وتعتقه، وعند تخوم الروح الفردي يتحطَّم صنم الخوف. وما من شك في أن تلاشي الخوف يعني

ولـوج عصـر أفـول الدولـة الأمنيَّة، وحلـول سـيادة الشـعب (الشـعب يريد...). من الحركات الدائرية والمتنوِّعة نفسها تتولّد حركـة الـذهاب والإياب من المركز إلى الهامش، ومن الهامش إلى المركز. إن حركة الـذهاب والإيـاب تلـك من شـأنها تحريـر الهـامش من تسـلّط المركـز واحتكاريتـه. هكـذا خلقت الثـورة في سـوريا مناخـاً سـمح بـأن تكـون العلاقة بين الهامش والمركـز جدليَّة. فقـد قطعت مـع السـلطة الأسـدية البعثيــة/ الأمنيَّة الــتي كرّســت الأعلى والأدنى طـوال عقـود، وبنت عليهما تمايزات ظالمة وباطلة جعلت من المركـز مقرّاً لحكم "أبـديّ" بإذلال الهامش ونهبه وقمعه، لا بل توسيعه وتكريسه. من هنـا كـان لا بـد من إسـقاط "الأبـد والأبديــة" من الأذهــان، بتظــاهرات محتجَّة أضـاءت المهمّش المغيَّب، وأكّدت أنـه: "مـا في للأبـد/عاشـت سـوريا ويسقط الأسد".

ـ قهرِ الموت التنسيبي والانبعاث البعثي

"ما مِنْحِبَّكْ ما منحبّك؛ حِلْ عنّا إنت وحِزبَكْ". كان هذا الهتـاف واحـداً من الهتافات المهمة التي أطلقها الشعب السوري في تظاهراته المدنيـة السلمية. أشار من خلالـه إلى الجـوهر الـديني التكفيري لنظـام يـدّعي "العَلمانية"، وإلى عزم الشعب الثائر على الــ"كُفر" بـدين أُكـرِه على اعتناقـه، اسـمه: "حـزب البعث العـربي الاشـتراكي". الحـزب الـذي

تحوّل إلى "دين" بعدما وصل الأسد الأب إلى السلطة قادماً إليها على ظهر دبّابة، واستمر الحزب كدين بعدما ورث الأسد الابن "الجمهورية".

درجت العادة، أن يترك جنود النظام على الجدران في المناطق الثائرة بعد كل مذبحة يقترفونها، عبارات من قبيل: "الأسد أو لا أحد". العادة نفسها، مارسها جنود النظام نفسه في بدايات ثمانينات القرن المنصرم، تاركين عباراتهم العدائية على الجدران في محافظة حماة بعد المذبحة الشهيرة التي كانت أحد أهم إنجازات "القائد الخالد". عبارات من مثل: "لا إله إلا الوطن، ولا رسول إلا البعث"، بحسب روايات ناجين من المذبحة تلك. إنه "البعث الرسول"! الذي فُرِض اعتناقه على السوريين، عبر نهج "التنسيب"، وهذا له دلالات دينية عميقة الجذور. فهو جملة إجراءات وتعليمات تبتغي إدخال تعديل كلّي وجذريّ على الوضع الحيوي للمراهقين في المدارس مثلاً. فعندما يصل التلميذ إلى الصف الثالث من المرحلة الإعدادية، تُقدَّم إليه أوراق يتم من خلالها "تنسيبه" إلى حزب البعث، ثم يصير فيه عضواً من دون أن يعرف حتى على ماذا وقّع وبصمَ، وما الذي يرتّبه ذلك من وجهة نظر قانونية، ولِمَ عليه "الانتساب" إلى حزب غير مطّلع على شيء من تفاصيله وفحواه، في ما عدا بضعة منطلقات "نظرية" تحنّ على الفقراء والمساكين وصغار الكسبة والعمّال والفلاحين (وهؤلاء هم أنفسهم اللذين طالما قُتلوا واعتُقلوا

وهُجّروا من ديارهم بعدما ثاروا مطالبين بحقوقهم المسلوبة منذ عقود!)، وشعارات طوباوية مريضة، تنزع إلى الهلوسة في الأمة العربية الواحدة، ذات الرسالة الخالدة، وأهداف كالوحدة والحرية والاشتراكية، يردّدها المراهق الذي لم يتلمّس منها شيئاً في الواقع، ترديداً ببغائياً. ليست معرفة "المريد" المراهق القاصر المغرَّر به عن الحزب، مهمة. بل "تنسيبه" إلى الحزب هو المهم؛ لأن "تنسيب" "المريدين" المراهقين وتعليمهم يتم من قبَل "الأولياء"، "حمَلة المعرفة الأسدية"، أولئك يتولون مهمة تزويد "المريد" المراهق المعرفة الواجب عليه معرفتها. "الأولياء"، قد يكونون مدرِّسين أو موجِّهين إداريين في المدرسة مثلاً، يمارسون مهامهم "التنسيبية" بتوجيهات من الأجهزة الأمنية وبالتنسيق معها.

اختيرت سِنّ المراهقة لـ"التنسيب" إلى حزب البعث، بغية نقش العقل مبكراً بـ"المقدَّس الأسدي" وبالإيحاءات العاملة على إعداد "إنسان" جديد. ففي "التنسيب" ينفصل "المريد" المراهق عن حياته الطبيعية، ليدخل في نطاق "الثقافة البعثية"، كون "التنسيب"، بمثابة تحوّل أنطولوجي في النظام الوجودي للفرد المراهق، وخاتمة للشرط الدنيويّ الحيويّ من أجل الدخول في عالم "الآلهة الأسدية المقدسة".

قبل "التنسيب"، يجرى نقل التصوّر "البعثي الأسدي" تدرّجياً إلى "المريد" المراهق خلال مراحل التأهيل والإعداد انطلاقاً من

"طلائـع البعث" الـتي تكمن مهمتهـا الأساسـية في تكـريس الــ"نَعَم" وحفرها في قلوب الأطفـال الطازجـة وعقولهم الغضّـة، كالـذي تفعلـه مثلاً، أغنية معروفة، ضاجّة بـ"نَعَمـات" تعظّم أبـا الطلائـع: "يـا حبّنـا نعم، يا رمزنا نعم... ويا أبا الطلائـع يـا حافـظ الأسـد/ نعم نعم نعم نعم نعم، نعم إلى الأبد... يا حافظ الأسـد". بعـد دخـول "المريـد" المراهـق في سلك "الكهنوت البعثي الأسدي"، يكون قد وُلد ولادة جديدة، يصير فيها كائناً آخر، يسير في طريق الاطلاع على "حقـائق الكـائن الأعظم الأبدي الخالد البطل القومي المقاوِم، وإنجازاته العظيمة الخالدة، وقواه السـحرية".

تسـتلزم تجربـة "التنسـيب"، كتجربـة إلزاميـة لأبنـاء المجتمـع السـوري وبناتـه، "موتـاً" متبوعـاً بــ"انبعـاث بعـثي"، يتم من طريـق تعاليم وطقوس بعثية أسدية تعمل على إدخال الفرد إلى مجتمع بـاطنيّ معـزول عن العـالم الخـارجي، يعـزّز رؤيـة دينيـة للعـالم، محورهـا "الكائن الأعظم"، "خالق سوريا وبانيها وحاميها، الذي سَنَّ نواميسـها ووضع شرائعها قبل أن يقدّمها إلى الأجيال". في "التنسيب" "يموت" المرء بالنسبة إلى وجـود معيّن حيـوي دنيـوي، لــ"ينبعث" مجـدداً في "عالم بعثي أسدي أبدي". كلّ مـا يتلقـاه "المريـد" من عِلم، يرجـع إلى لفتة ومكرمة صادرتين عن "الكائن الأعظم" وإلى فعله وتـأثيره. لـذا، لا ضـرورة لعقـل "المريـد" وتفكيره. بـل ينبغي قتـل "المريـد" أثنـاء "التنسيب"، وهذا يُرمَز إليه بـ"ختان" العقل والتفكير والإرادة الحـرة.

تلـــــــك هي "إيـــــــديولوجيا التنســـــــيب"، باختصـــــــار.

كان "طبيعياً"! إذاً، أن يجنَّ "البعثيون"، بعدما تمرّد "المريدون" على القداسة، و"كفَروا" بـ"الآلهة الأسدية وبدينها البعثي"، وغادروا عالمهـا عائـدين إلى الحيـاة، أحـراراً قـاهرين "المـوت التنسـيبي والانبعـاث البعـثي". جنـون تحـدثت عنـه بطرافـة وظرافـة في التظـاهرات، إحـدى الأهـازيج السـاخرة للثـائرين والثـائرات: "نحنـا مطالبنـا حـــأ(حـــق).. إنْ قلتْ إي وإن قلتْ لأ/ زِتّ وراقــك خلص الدَّأ(الدق).. ويلا لمّو البرتيّـة/ جَنّـو جَنّـو البعثيّـة.. لمّـا طلبنـا الحريـة/ يلعن روحك يا حافظ.. يا إبن الحراميّة".

ـإسقاط "سورية الأسد" وتحطيم صنم الدولة المتعالية

أن يكون هدف الثورة السورية الأول، إسقاط الأسد و"أبديّـة" حكمـه، يعني إسقاط "سورية الأسد"، و"دولة الأسـد"، تلـك الدولـة المتعاليـة، ذات "الهيبة" و"الرهبة" التي قد يعني"النيل" منهـا المـوت، إذ "النيـل من هيبة الدولة"، تهمة كان ضحيَّتها كـل مَن عـارض وانتقـد، أو قـدَّم

رأياً خارجاً على نص الاستبداد والقهر، وعلى مَر عقود طويلة من حكم الحزب الواحد. حزب البعث المشلول في حضرة الديكتاتور، ثمَّة مَن سُجِن وعُذِّب، وثمة من قُتِل، وثمة مَن هُجِّر وشُرِّد أو نُفي، والتهمة الجاهزة كانت دوماً "إضعاف الشعور القومي، والنيل من هيبة الدولة". فما دولة البعث إلا هيكل رسمي لعقيدة شموليّة غطَّت كل مظاهر الحياة البشرية، عبر جهاز رقابة بوليسي/ استخباراتي، وعبر حصر كل وسائل الدعاية، وكل الوسائل العسكرية، إضافة إلى الرقابة المركزية وتوجيه الاقتصاد بأكمله.

كامتداد للفاشية، كمذهب سياسي خاص في الحكم، يمجّد الدولة، ويدعو إلى حكم أوتوقراطي يرأسه زعيم ديكتاتوري يسيطر على أشكال النشاط القومي كافة، مُجِّدَت دولة البعث في سوريا كـ"وسيلة للأقوياء، وضمانة للضعفاء"، فباتت الدولة كل شيء، والأفراد مجرَّد تابعين، خادمين لها، كعبيد، وطويلاً مورِس العنف والاضطهاد تحت مسمَّى "مصلحة الدولة". الدولة الكتلة التي كانت دوماً عصيّة على الفصل بين السلطات، والتي ازدرت الشعب، أو لم تعترف بوجوده أصلاً إلا بوصفه أداة كانت حاضرة دوماً في خدمتها. لعل الطابع الرسمي الجاد لـ"المؤسسات" الحكومية، من حيث تسمياتها مثلاً التي اعتنقت ثقافة الموت والحرب، من خلال أسماء الشهداء والمعارك و"البطولات" الوهمية، أو من حيث الشعارات التي أُثقِلَت بلغة بلاغيَّة عظِّمت وقدِّست ومجِّدت. لعل اقتحام الفضاء العام، جملةً وتفصيلاً،

بصور الديكتاتور وعائلته، الصور التي كانت دوماً تأخذ شكل المواجهة والمباشرة كما هي عادة "الفن" في كل الأنظمة الديكتاتورية، حيث تكون "المواجهة" وتصوير البُعد الواحد والجانب الواحد أهم خصائصه. ولعل الاشتغال الحقيقي على تصنيع موظَّفين حكوميّين جمعهم الولاء المطلق لسيِّد البلاد، كما جمعهم الفساد والنفعيّة والمصالح الشخصيّة الخاصة والعبوس والتجهّم والجدّية المدروسة في التعاطي مع "المواطنين"، الجدِّية التي عكست موتاً للروح، ولكل ملمح إنسانيّ جمالي وأخلاقي. ناهيك بالتمييز ذي الطابع الطبقي، العنصري الازدرائي، والاستعلائي المتعجرف، بين الموظف الحكومي وغير الموظف، وبين البعثي واللابعثي، حتى أن أصغر موظف حكومي في دولة البعث كان دوماً أهم بما لا يُقاس من غير الموظف أو غير البعثي من ذوي الكفاءة والمقدرة والفكر والخلق. لعل ذلك كله، كان الجزء الأعمق في "السياسة" التي رمت إلى تقزيم الإنسان واقعاً ومفهوماً. الإنسان الذي تضاءلت قيمته وصغرت عند البوّابات السوداء الضخمة لأبنية الدولة.

إن العمل الممنهج على جعل الدولة "مطلقة"، وتقديسها، كمربية فاضلة للأفراد "القاصرين"، نزع عن السوري إنسانيته، وجعله عبداً لكائن متعالٍ، هو الدولة. مع أن الدولة لا تقوم لها قائمة من دون

شعب، قوامه أفراد يعقلون ويفكّرون ويشعرون ويريدون، بينما الدولة شخص اعتباري لا معنى له من دون الشخص الحّي الحقيقي النابض. هكذا قطعت الثورة السوريّة مع واقع "الدولة أولاً"، بغية التأسيس لواقع جديد ينطلق من "الإنسان أولاً"، فما ثورات "الربيع العربي" إلا ثورات "ولادة الإنسان"[33] بعدما شهدت هذه المنطقة من العالم موت الإنسان كقيمة عليا

لقد حطّم الشعب الثائر في سوريا، صنم "الدولة المتعالية"، إذ هو "العارف الأكبر"، بأن دولة "الصمود والتصدِّي، والمقاومة والممانعة"، لم تكن يوماً إلا دولة أصفاد كبَّلته طويلاً متصدِّيةً له ومقاوِمةً ضدّه وضدّ حريته وكرامته الإنسانية، وأن دولة الحق والقانون التي تحترم الإنسان وحقوقه، وتقوم على مبدأ الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وفصل العسكر ذهنيَّاً وسلوكيَّاً عن السياسة، كشأن عام، وفصل الحب والكره عن رئاسة الدولة، بعد حذف الثورة مفردة "مِنْحِبَّكْ" الأمنيَّة من قاموس الرئاسة، تلك الدولة، هي اللائقة بشعب بدأت إرهاصات ثورته بشعار: "الشعب السوري ما بينذل"، الذي أفصح الناس من خلاله عن

33 يمكن مراجعة ما جاء في مقدمة الكتاب.

شعورهم الذي طالما أخفوه عقوداً. شعور يتصل بخاطر مكسور، ونزف في الروح، وجرح عميق في الكرامة.

- الحرق، الفضح، والإنارة

للثورة السورية ماهية جدلية، جعلت علاقتها بكل شيء علاقة جدلية، يعمِّدها التأثر والتأثير- تأثرت الثورة، مثلاً، بما بدا للثائرين عدم اكتراث من "المجتمع الدولي"- بمِحَنِهم ومآسيهم، وإحجامه عن مدّ يد العون لهم. وترْكهم يكتوون بنيران حاكمهم وزمرته وحلفائه. وقد كان هذا التأثر بادياً دوماً – وإنْ بتفاوت- في شعاراتها ولافتاتها، حتى أن إحدى الجُمعات سُمِّيت:" المجتمع الدولي شريك الأسد في المجازر"- ربما كان هيغل مُحقّاً حين تكلم عن الرغبة في نيل الاعتراف والتقدير، كمحرِّك للتاريخ، تدفع البشر إلى الدخول في عراك حتى الموت، يسعى فيه كل فرد لنيْل اعتراف الآخر بقيمته وجدارته. إذ شعور الثائرين السوريين بمرارة كبرى سببها عدم الاعتراف بثورتهم، وبهم كثائرين، كان له الأثر البالغ، ولّد لديهم إصراراً مضاعَفاً على الاستمرار بالثورة، على الرغم من التكلفة الباهظة لهذا الاستمرار- بشرياً ومادياً.

إلا أن تأثير الثورة كان، على ما يبدو، أعمق من تأثّرها. حتى أنه قد يهجس المرء حيالها، فيتصوَّر- أن استمرارها ربما يؤجِّج نيرانها

أكثر فأكثر فتشعِل حرباً عالمية ثالثة. لكن الهاجس نفسه قد لا يكون مقلِقاً لذاك الذي يدرك أن لنيران هذه الثورة، وظائف عدة، منها: الحرق، الفضح، والإنارة. فإذا كان من شأن الحرق ترميد ماضي الاستبداد والاستعباد والفساد، فالإنارة من شأنها الإشراق. لقد بلغ تأثير الثورة السورية السياسي والأخلاقي مبلغاً مهماً محلياً وإقليمياً وعالمياً، ومارست الثورة أدواراً تجلّى بعضها في "نشر الوعي"، حتى صارت كأنها قدوة، وما رفْع علم الاستقلال الخاص بها في تظاهرات معارِضة لأنظمة الطغيان في دول أخرى، وما ترديد بعض هتافاتها، وتداول أغنياتها وأهزوجاتها وألحانها في أنحاء شتى من العالم إلا أمثلة على ذلك. فهي برهنت، عبر التجربة، أن في مقدور كل شعب أن يهزم العالم إذا ما وقف في وجه إرادته الحرة، وأن يفرض سياسة بديلة من التي ثار عليها ويفرض انتهاجها، وخصوصاً أن ما يناضل السوريون من أجله هو الديموقراطية، وهذه ظاهرة عالمية. هي ليست مُلكاً شخصياً للغرب، مثلاً، بل للإنسان، لأنها طريقه وتجربته أينما حلّ وكان. كما أن الكرامة والحرية والعدالة والمساواة هذه كلها حقوق إنسانية لا شأن لها بمكان وزمان، أو دين وعرق ومذهب وقومية وفكرة وعقيدة.

قل الشيء نفسه، بالنسبة إلى أدوار أخرى مارستها الثورة وكان لها تأثير مهم، كـ"الفضح". فالثورة بدت كأنها قد عرّت كل شيء، حتى باتت الكاشف الإنساني الأهم، والاختبار الحقيقي والجدّي

لصدقية أو لا صدقية كل شيء، عبر انقشاع الضباب عن كل شيء. ساهمت الثورة السورية في فضح عالم حقوق الإنسان الزائف، و"الأسرة" الدولية الأكثر زيفاً. فما جرى في سوريا من مجازر وجرائم حرب ضد الإنسانية، نكاد نجزم أنه سيظل وصمة عار على جبين البشرية. وسيذكر التاريخ، في صفحاته الأولى، أن ثمة شعباً من شعوب القرن الحادي والعشرين ظلَّ أعواماً يُذبَح ويُباد ويُستباح، وظل العالم بزعاماته المتواطئة مع عميلها المتواطئ، متفرِّجاً على المذابح الكبرى. ثمة جمعة من جمعات الثورة السورية اسمها "الإرهابي بشار يقتل المدنيين بالكيماوي والعالم يتفرّج" 23 آب 2013. هكذا، ستظل الثقة بالمنظمات الدولية، وبالأمم المتحدة، ومجلس الأمن على وجه الخصوص، في انحدار مستمر حتى الوصول ربما إلى نقطة اللاعودة، التي قد تنطلق منها المطالَبة العالمية بإسقاط النظام العالمي القائم على التسلط والسيطرة والاستغلال، سعياً لبناء نظام بديل يُعلي من قيمة المجتمعات المدنية الحقيقية حول العالم، مجتمعات يكون لها شأن مهم في الحد من السلطة المطلقة لأي نظام.

****

سنوات معمّدة بالدم مرّت على السوريين المنتمين إلى عصر لعل أبرز مظاهره هو اصطخاب الاحتجاج من كل اتجاه وعلى أي صعيد،

الأسرة، المجتمع، السياسة، الاقتصاد.. إلخ، ما يعني لا يقين الأخلاق السائدة ومطلب إعادة النظر في القيم كلها. حين لا يكون لدى المجتمع الدولي، كمنظمات حقوقية وهيئات ومجالس، وكحكومات وأنظمة، سوى البلاغة اللفظية الجوفاء يساهم من خلالها في مساندة الشعب السوري الذي نُكِّل به أبشع تنكيل؛ حينها يمكن القول إن ذلك تواطؤ مع سفك الدم. والواقع أن وقوف العالم متفرِّجاً على شعب يُذبح، لا بد أن يفجِّر أزمة ضمير، ما يدفع العقل صوب سؤال كالآتي: ما الذي يحكم العالم؟ الأخلاق؟ أم السياسة والمصالح والمال؟! وإذ يُرجّح حكم السياسة والمال للعالم، فإنه يفضح عمق أزمة أخلاقية، وأزمة حق وخير وجمال وعدل، بالدرجة الأولى، يعيشها العالم. ولأن العالم، محكوم بالسياسة والمصالح، والسيطرة والغلبة اندلعت ثورات "الربيع العربي"، حتى أنه يمكن القول إن أثرها طال في عام اندلاع ثورات الربيع نفسه 2011، قلب نيويورك، في الولايات المتحدة الأميركية، حين ردد محتجُّون الشعار المركزي لدى الشعوب العربية الثائرة: "الشعب يريد إسقاط النظام"، كما طالت الاحتجاجات نفسها موسكو، للتعبير عن سخط شعبي إزاء نظام شمولي، أمني استخباراتي، يمثِّل فلاديمير بوتين، حليف الأسد الأبرز، أحد رموزه.

****

تشـهد الحضـارة الإنسـانية المعاصـرة تحـوُّلات جذريَّة تجـري في المجالات كافة، لعل المجال التقني أهمّها، وإن طرز المعيشة والبنيات الاجتماعية والعقلية لتتطور بحسب إيقاع يفصح عن تسـارع التـاريخ، مـا يجعـل من وجـود قـوة إنسـانية عالميـة إراديـة حـرة، تضـع حـداً للحروب والمآسي، وللظلم والعدوان والتعسّف، وتكون سلطة بإمكانها أن توقـف تسـلّط مجلس الأمن المهيمَن عليـه من دول ذات عضـوية دائمة فيه، تقوِّض، عبر حـق النقض (فيتـو)، أي قـرار لا يتوافـق مـع مصـالحها أو مصـالح حلفائهـا، يجعـل من وجـود تلـك القـوة ضـرورة ملحّة.

****

مـا الثـورة السـورية، إلا ثـورة أتـاحت للإنسـان الفـرد في هـذا البلـد اكتشاف نفسـه في/وأمـام العـالم، عـبر اتسـاع آفـاق الزمـان والمكـان، وعبر شعوره بالاستقلال الذاتي بالرغم من كل شيء. أصبحت الحرية بالنسـبة إليـه الينبـوع الوحيـد للقيم الأخلاقيـة حـتى لـو لم يسـانده أحـد. فشعار: " يا الله ما إلنا غيرك لا الله"، مثلاً، حملَ الكثـير من الـدلالات الرمزية، بعضها ربما يدلل على شعور السوريين الثـائرين بوحـدتهم في معاناتهم، وتخلّي العالم عنهم، وتـركهم يواجهـون مصـيراً مرعبـاً. أما الترجمة السياسية للشعار نفسـه، فهي أنـه ليس إلا إرادة السـوريين

وحدها قادرة على نصرتهم في مواجهة شراسة الطغيان وفظاظته بعد قطع الشك باليقين بأن أحداً لن يبادر إلى مساندتهم فعلياً.

****

إن انقلاب الأيديولوجيات والأنظمة، وما ينجم عن الحضارة الحديثة من عُسرٍ وقلق، إنما يساهم في إيقاظ الاهتمام بأزمة الأخلاق، فإن ثمة مشكلات ملحّة تُطرح بالمقياس الكوني وهي ترمي إلى أن يتحلّى العالم بمزيد من مشاعر الإنسانية والإخاء، والتطلُّع إلى مجتمع يستطيع فيه الناس كافة أن يحققوا ذواتهم بحرية. وإن عودة سريعة إلى التاريخ قد تعزِّز وتدعم ما نذهب إليه هنا، فاحتجاجات طلاب العالم التي انتهت في فرنسا إلى انتفاضة أيار 1968، كانت إعلاناً عن رغبة في إدانة "مجتمع الإنتاج والاستهلاك". إضافة إلى إدانة مجتمع الإنتاج والاستهلاك، يريد إنسان المنطقة العربية عموماً، والإنسان السوري خصوصاً من ثورته على الاستبداد، الاقتصاص من مجتمع غياب حقوق الإنسان في عصر حقوق الإنسان. يبدو أن الاهتمام الحقيقي بالكرامة الإنسانية، والحنين إلى القيم الأخلاقية، هو ما يُمكن تلمّسه من وراء القلق البادي في المناقشات المطّردة على شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، والصحف وشاشات التلفزة والإذاعة بصدد الحروب أو التعذيب أو حريّات الشعوب وحقها في تقرير مصائرها وقضاياها المختلفة. تنتهي هذه المشكلات

الإنسانية وغيرها في آخر المطاف إلى التساؤل عن الواجب حيالها، والواجب ينطوي على (فعل) يجب القيام به، وما الفعل إلا إلزام يقتضيه القانون الأخلاقي. هكذا؛ فإن القانون الأخلاقي كان يفترض إلزام المجتمع الدولي بـ(فعل) شيء تجاه الشعب السوري الذي يتعرَّض إلى حرب إبادة حقيقية. لماذا يُلزم القانون الأخلاقي المجتمع الدولي؟ ربما لأن الذات الإنسانية واحدة وإن اختلفت تعيّنات وجودها. إن تجربة النشاط الإنساني تكشف عن نزعة طبيعيَّة لتجاوز المرء ذاته، وتطلّعه إلى السعادة الكاملة، وسوف لن تكون البشرية سعيدة مادام هناك بشر تعساء وبؤساء في هذا العالم.

إنعاش روح الوجود الأصيل

يعتقد الفيلسوف (مارتن هايدغر 1889-1976) أن الإنسان يمكن أن يحيا وجوده على صورتين مختلفتين، فهو إمّا أن يحيا وجوداً مبتذلاً، تافهاً، لا قلق فيه، وإمّا أن يحيا وجوداً أصيلاً مفعماً بالقلق، يستطيع فيه أن يؤكّد ذاته وأن يصبح نفسه. وقد لا نجانب الصواب في قولنا إن السوري الذي قرَّر الثورة على الوجود المبتذل، التافه، يحيا منذ أواسط آذار 2011، وجوداً أصيلاً مفعماً بالقلق، يثبت فيه قدرته على سقاط نظرية القمصان السود، وبؤس سكين الذبح والرشَّاش والمدفع والدبابة وطائرة الميغ والبرميل المتفجِّر والقنبلة الحارقة والعنقوديّة وصاروخ سكود و السلاح الكيميائي؛ أمام الإرادة الإنسانية الحرة، أي إرادة الحياة. فـ"الشعب السوري عارف طريقه".